الصراع الحضارى بين الشرق والغرب

فى ضوء المتغيرات الدولية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١



دكتور

مجدى الداغر

مدرس تكنولوجيا الإعلام والصحافة

قسم الإعلام ـ كلية الآداب

جامعة المنصورة

الناشر : المكتبة العصرية





الصراع الحضاري
بين الشرق والغرب

فى ضوء المتغيرات الدولية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١

دكتور
مجدي الداغر
مدرس تكنولوجيا الإعلام والصحافة
كلية الآداب - جامعة المنصورة

المكتبة العصرية
للنشر والتوزيع- المنصورة

الناشر: المكتبة العصرية للنشر و التوزيع.
جمهورية مصر العربية- المنصورة- برج المعمورة- شـ حسني مبارك
(المشاية) بجوار فندق مارشال الجزيرة.

هاتف: 2221875 50 20+ - 2342006 50 20+
فاكس: 2355055 50 20+ رقم بريدي: 35111
بريد الكتروني: m_bindary@yahoo.com

اسم الكتاب: الصراع الحضاري بين الشرق والغرب في ضوء المتغيرات الدولية
بعد احداث الحادي ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .
المؤلف: د/ مجدي الداغر .
الطبعة الأولي : ٢٠٠٩
رقم الايداع بدار الكتب: ٢٠٠٨/٢٤٨٣٨
I.S.B.N: 977-410-143-x

بسم الله الرحمن الرحيم

[يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ
أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا
بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)]

صدق الله العظيم

[سورة لقمان الآيات]

إلى أغـــلى ما عندى فى الوجـــود

أبنائى عمر وآروى

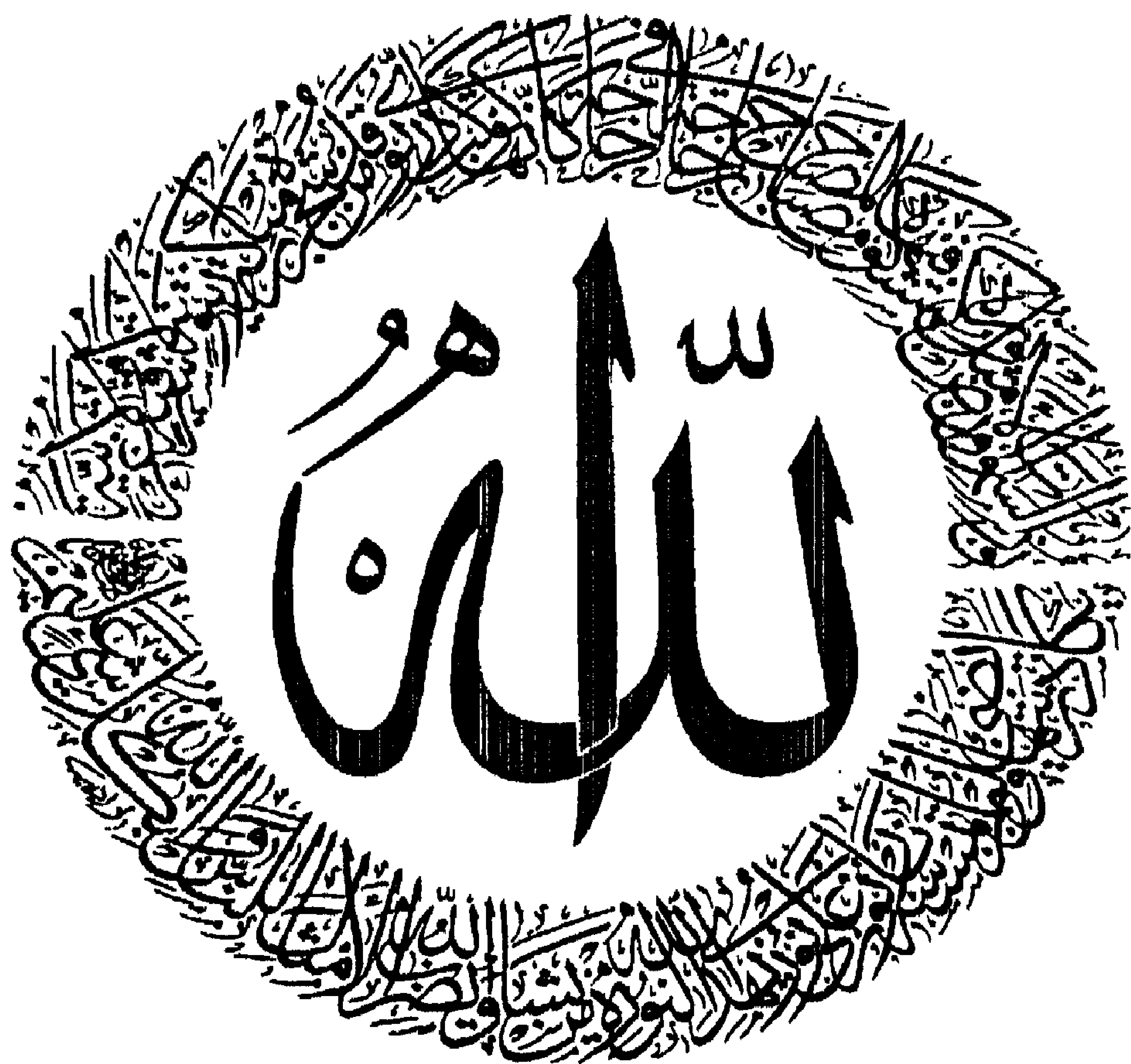
أهـــدى هذا الكتاب الجديد

والذى أتمنى من اللـــه أن يكـــون عمل خير فى مجال

الدراسات الإسلامية

دكتور / مجدى الداغـــر

المنصورة ٢٠٠٧


الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الصراع بين الشرق ا لغرب ..إلى أين ؟؟

تمهيد :

في البداية .... لا أستطيع أن أخفى حبي وإعجابي الشديد بالدين الذي أنتمي إليه بصورة كبيرة لا يمكن وصفها ، ليس هذا من باب التعصب أو التشدد بل إنني أرى الإسلام وعظمته وقوته من خلال التحديات والمحن التي تعترض طريقة، ومع ذلك فهو ماض لا يتوقف عن التقدم والذيوع والانتشار منذ أن كان محصورا في مجموعة من الأفراد وسط جبال مكة إلى أن أصبح ملء السمع والبصر في كل مكانٍ من العالم الآن، ورغم أن الكثير من الكتاب والمفكرين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تسابقوا فيما بينهم بالعديد من الدول العربية والإسلامية من أجل الدفاع عن الإسلام، واستبعاد تهمه العنف والإرهاب عن نصوصه المقدسة في محاولة يائسة لم تفد الإسلام في شيء.

وتعبوا كثيرا بل وأجهدوا أنفسهم أكثر مما ينبغي أمام شاشات التليفزيونات العربية والأجنبية وهم في فرح وسرور من أن صورهم أصبحت تتصدر الصحف والمجلات وتملئ بوصات الشاشات التليفزيونية على مختلف أحجامها وأشكالها وهم في الوقت ذاته غير مقتنعين بما يقومون به من عمل؛ لأن الإخلاص عند بعضهم منزوع منه، وكأن مثل هذه الأحداث جاءت فرصة لبعض علماء الدين الإسلامي وكثير من أساتذة الجامعات العربية لأن يكونوا ثروات من الهبات التي يحصلون عليها نظير ظهورهم في الفضائيات وشبكات التليفزيون العالمية ليقولوا ويندددوا ويشجبوا سلوكيات تلك الفئة التي قامت به، بل وتكفيرهم أيضا بمجرد أن أعلنت الولايات المتحدة أن تنظيم القاعدة وراء الحادث، كما لم يفوتهم كذلك أن يعلنوا عن أنفسهم ومواهبهم الخطابية لشركات الصوتيات والمرئيات ومواقع الإنترنت العربية والأجنبية، والحقيقة أن ما قاموا به لم ولن يفيد الإسلام في شيء من ناحية، كما أن الإسلام ليس متهما حتى يتبارى رجالات الأزهر وأصحاب العمائم والحناجر الرنانة للدفاع عنه من ناحية أخرى، لأنة ماض رغم أنف الذين لا يريدون له البقاء والانتشار" فالله تعالى يقول " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ولكن الله متم نوره ولو كرة الكافرون ".

ومن هذا كله يتضح أن الخوف على الإسلام ليس من أمريكا أو من غيرها، وإنما من المسلمين المقصرين تجاه إسلامهم وعقيدتهم، إن هم تخلوا عن الدين وتركوه لغيرهم يعبث في آياته كيفما شاءوا، ويؤولون نصوصه وأحكامه ليجعلوا منه شيئا أخر غير الدين الإسلامي الذي نعرفه؛ في ظل حالة الغيبوبة التي يعيشها العالم الإسلامي منذ سنوات، ولم يستوعب ما يحدث حوله إلى الآن سواء على المستوى الرسمي أو حتى على المستوى الشعبي، حيث ما تزال حياة اللهو والعبث وعدم الثقة بين الحكام والشعوب فضلا عن الفساد وأعمال السرقة والنهب وإهدار المال العام والنصب والعمالة لصالح جهات معادية، وإلهاء المسلمين في الأغاني والأفلام والمسرحيات والخلافات الدينية والفقهية، حتى أن الكل أصبح يتحدث عن الإسلام وهو لا يعلم عنه شيء، بل أن البعض أصبح يحلل لنفسه، ويحرم لنفسه بعيدا عن الفقهاء والعلماء المسلمين وهم في ذلك لهم العذر؛ فالغالبية منهم انصرفوا إلى الفضائيات ليحصلوا منها على الأموال والهبات بل والعملة الصعبة نظير استضافتهم لدقائق أو لساعات في البرامج الدينية والثقافية ليقولوا ما تريده القناة التليفزيونية، بينما خلت المساجد من الدعاة الصادقين الذين يدعون ربهم بإخلاص أناء الليل وأطراف النهار.

وهذا ما يدفع إلى وجود أزمة ثقة بين العلماء وعامة المسلمين، ففي الوقت الذي يطالبون فيه الفقراء بالصدقة على الأفقر منهم ، واستخراج زكاة أموالهم رغم ضيق الحال والتعثر المادي نراهم يركبون السيارات الفارهة ، ويسكنون الأبراج الشاهقة بالمواقع المتميزة وفى الميادين الكبرى ، وتملئ أموالهم خزائن البنوك العربية والأجنبية، فهم يطالبون بعدم التعامل مع البنوك لأنها تتعامل بالربا في الوقت الذي يزاحمون فية صغار المودعين للحصول على الفائدة الشهرية من حصيلة ودائعهم ومدخراتهم فى تلك البنوك، الأمر الذي دفع غالبية المسلمين إلى الانصراف عن هؤلاء الدعاة كما انصرفوا في السابق عن علماء الأزهر الذين يقولون على المنابر ما لا يفعلون ، وما تريده الحكومات والأنظمة السياسية المختلفة من فتاوى وأحكام.

وقد زاد على ذلك المطالبة الغربية بتطوير الخطاب الديني الذي تنوى

بعض الحكومات العربية والإسلامية القيام به من خلال تعديل لبعض الأحكام وتفسير جديد لبعض النصوص القرآنية بشكل يتفق وروح العصر الحديث، والمسألة في مضمونها جد خطيرة بالفعل ولها تأثيرها على مستقبل هذا الدين، وأن هذه المبادرة تكون نقطة انطلاقها من بلد الأزهر والإسلام – مصر – وهذا أصعب من أن تقوم به دولة مثل إثيوبيا أو الفلبين أو حتى إمارة صغيرة في أخر الكرة الأرضية مثل موناكو.

كما أن على المملكة العربية السعودية أن تقوم بتعديل بعض المناهج الدراسية التي يتلقاها الطلاب في المدارس والكليات الإسلامية وذلك للحيلولة دون خروج من هم على شاكلة أسامة بن لادن أو الشيخ سلمان العودة أو الدكتور عمر عبد الرحمن، أو الذين يكرهون أمريكا ولا يكفون عن الدعاء بحرقها على المنابر وأثناء صلواتهم، والمخطط هو تقليل جرعة الدين في المناهج لأنها تعد أحد أسباب وعوامل كراهية المسلمين للغرب، والاتجاه نحو تدريس العلوم التكنولوجية الحديثة، وذلك في خطوة جريئة لم يتجرأ عليها أحد من قبل، فكيف لهؤلاء المرتزقة أن يكتشفوا أن الإسلام به عيب أو نقص يجب استكماله- حاشا لله أن يكون كذلك – فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل لقد تعهد الله بحفظ هذا الدين حتى يرفعه الله من الأرض إلى السماء.

أما اختيار قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية لتكون هي مجال البحث والدراسة فإن لذلك العديد من الأسباب قد يكون على قائمتها أن الأقليات المسلمة في العالم الآن يمثلون نحو (٥٠٠) مليون مسلم يعيشون وسط أغلبية لا يعلمون عن الإسلام شيء، وما عرفوه إنما هي معلومات مشوهة تناقلتها وسائل الإعلام الغربية في خبث ودهاء، فهم يتعرضون للعديد من المشكلات والتحديات والصعوبات التي تعترض مسيرتهم وتقدمهم في المجتمعات الغربية، كما أنهم يمثلون الامتداد الطبيعي للعالم الإسلامي في الدول غير الإسلامية وخارج أراضيه، هذا فضلاً عن أن قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية لم تحظى باهتمام الباحثين والمفكرين على اعتبار أنها

قلة ولا تؤخذ الأحكام المطلقة من مجموعات متفرقة هنا أوهناك حتى وإن كانوا من أبناء دين وعقيدة واحدة، هذا بجانب أن قضايا الأقليات من الموضوعات التي توصف بأنها شديدة الحساسية لارتباطها بمجتمع الأكثرية وأن مشكلات الأقليات هي في الأساس مشكلة أغلبية لم تستطع أن تدمج الأقليات والقوميات المختلفة في إطارها القومي العام أو تمنحها حقوقها مثل غيرها من الأقليات الأخرى.

في حين أن الدين الإسلامي لا يفرق بطبيعة الحال بين الأجناس والقوميات والعرقيات التي آمنت به، فالكل في الإسلام سواسية ونسيج واحد أقليات وأغلبيات، أسود وأبيض، عربي وأفريقي، أوربي وروسي، أمريكي وهندي، حيث يعد ذلك من الأسس التي يقوم عليها الإسلام، وتميزه عن غيرة من الأديان والمعتقدات الفلسفية المعاصرة، كما أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " كان له الأثر الأكبر في سعي الكاتب نحو إتمام هذا العمل بهذه الصورة التي خرج بها، وخاصة بعد أن ظهرت العديد من الكتابات العربية والأجنبية تتناول بشيء من المكر والخبث والدهاء حقوق الأقليات غير الإسلامية في المجتمعات الاسلامية، وترى أن العالم الإسلامي لم يمنح الأقليات غير المسلمة على أرضة حقوقها وخاصة الأقباط في مصر والسودان، والبوذيين في أفغانستان وباكستان، والبهائية في إيران، واليهودية في المغرب، والأرثوذكس في إندونيسيا في الوقت الذي كانت تقوم فيه صربيا بإبادة الألآف من مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفا أمام العالم كله مسلمين وغير مسلمين، شعوبا ومنظمات، هيئات وجمعيات، الكل صامت ولا يتكلم، وكأن على رؤوسهم الطير، وأن ما يحدث لهؤلاء المسلمين أمر إلهي يقوم به الصرب الأرثوذكس ضد مسلمي البلقان من السماء من ناحية، أو أن الغرب لا يرغب في أن يتواجد على أرضه دولة إسلامية ذات جذور أصولية وإسلامية من ناحية أخرى.

فروسيا ما تزال تصر على تصفية التواجد الاسلامى في الشيشان وبلاد ما وراء النهر، حيث كانت القوات الروسية تتعمد إلقاء الصغار من الأطفال الشيشانيين تحت

جنازير الدبابات وعجلات العربات المدرعة وسط صرخات أمهاتهم في العاصمة جروزنى حتى إذا ما تم سحقهم وتسوية جثثهم بالأرض في لحظات من النشوة والسعادة من أفراد القوات الروسية، كانت الأمهات المسلمات يقمن بتجميع أشلاء أطفالهم والذهاب بها بعيدا عن العيون ودفنها فى صحراء جروزنى الشاسعة فى حسرة وألم على وضع المسلمين فى العالم.

وفى ذلك لم تخرج إلا تصريحات هزيلة عن بعض الحكومات والمنظمات العربية والإسلامية وكذلك الأوربية تؤكد جميعها أن ما تقوم به روسيا لا يتفق ومبادىء حقوق الإنسان التي تنادى بها المجتمعات الغربية، وعلى الجانب الأخر كانت الهند والصين والفلبين تشن هجماتها أيضا على التجمعات الإسلامية على أراضها حيث تقوم تلك الحكومات بهدم وسحق كل مظهر من مظاهر الإسلام والعمل بأقصى ما يمكن لمنع ظهور أي تواجد إسلامي في تلك المناطق.

وعلى ما يبدو أن الصين ما تزال ترفض أن تكون هناك دولة إسلامية تسمى تركستان الشرقية على أرضها أو بجوارها حيث أن غالبية مصالحها في تلك المنطقة، كما أن الرواج الاقتصادي الذي تنعم به الصين حاليا بما في ذلك ترسانة الأسلحة النووية الضخمة التي تملكها هي في الأساس واقعة ضمن المناطق التي يمثل فيها المسلمون الأغلبية العظمى ، كما أن روسيا ترفض هي الأخرى أن تكون هناك دولة تسمى إسلامية تسمى الشيشان ، من منطلق أن ذلك لو تحقق سيكون مدعاة لأن تطالب دول الاتحاد الروسي جميعها بحقها في الانفصال والاستقلال عنها هي الأخرى ، فضلا عن رفض روسيا أن يشاركها في المنطقة دولة ذات أصول وجذور إسلامية ، وخاصة بعد أن تم الإعلان عن رغبة العديد من دول الإتحاد الروسي الانضمام إلى دولة الشيشان في حالة استقلالها عن روسيا مثل داغستان وأنجوشيا وتتارستان، فى نفس الوقت ترفض الهند استقلال إقليم جامو وكشمير ذات الأغلبية المسلمة وتتمسك به رغم أن التقسيم السابق لشبة القارة الهندية والذي وضعته بريطانية قبل خروجها من مستعمراتها هناك كان يرمى إلى

تقسيم الهند إلى دولتين على أساس ديني (المسلمين في دولة مستقلة تسمى باكستان، والدولة الأخرى تضم التجمعات الهندوسية في دولة تسمى هندوستان أو الهند) وكان من باب الإنصاف أن يتبع إقليم جامو وكشمير باكستان بحكم أن غالبيته من المسلمين .

ولكن ماذا يقول التاريخ في الطابع الاستعماري البريطاني وسياستها المعهودة ؛ فهي عادة لا تخرج من مكان استعمرته من قبل ولو لمدة قليلة إلا وتترك ما يعكر الصفو ويسبب القلق والصراعات والحروب بين عدد من الأطراف لعشرات السنين ، فقد كانت السبب الرئيسي وراء يحدث الآن في فلسطين ، وتعثر القضية منذ عام ١٩٤٨ وحتى حكومة شارون وشيمون بيريز المتطرفة التى لا تنوى الوصول بالقضية إلى حلول ترضى الطرفين ، وكذلك ما يحدث في كشمير حيث ما تزال هذه القضية هي محور الصراع والقلق في شبة القارة الهندية بين الهند وباكستان ، وخاصة بعد أن أعلنت كلا الدولتين عن قدراتها النووية وأسلحة الدمار الشامل التي تملكها ، ولا يستبعد أن تلعب هذه الأسلحة الدور الأكبر إذا ما نشبت الحرب بين الطرفين، كما أن الصراع الذي بدأ في منطقة البلقان بداية من عام (١٩٩٠) بين الصرب والمسلمين ما يزال قابل للتصعيد بين لحظة وأخرى وأن اتفاقية دايتون للسلام (١٩٩٧) التي جاءت بعد خمس سنوات من حروب التصفية والإبادة لمسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفا، ليست كفيلة لهدوء واستقرار الوضع في المنطقة بين الصرب الأرثوذكس ومسلمي البلقان فى المستقبل .

بيد أن الوضع وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدأ يطل برأسه من جديد؛ وخاصة وأن نصوص الاتفاقية التي عقدها الدكتور إبراهيم روغوفا مع الجانب الصربي تحت رعاية الولايات المتحدة والمنظمة الدولية وحلف الأطلنطي كانت تشير إلى ضرورة بحث استقلال إقليم كوسوفا مع نهاية عام ٢٠٠١، وبالمثل فقد أوصت اتفاقية الكسندر ليبيد المفاوض الروسي مع أصلان مسخادوف الزعيم الشيشانى الذي خلف جوهر دوداييف إلى بحث استقلال الشيشان أيضا عن روسيا

مع نهاية عام ٢٠٠١، ومنح مسلمى الفلبين المزيد من الولايات فى الجنوب تمهيد لمنحهم الاستقلال الذاتى، إلا أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ جاءت لتكون هي العصا التي تنفض فيها كلا من صربيا وروسيا وحكومة الفلبين وعودهم السابقة من استقلال الشيشان وكوسوفا وجنوب الفلبين، بل وتطالب هذه الدول ذاتها الولايات المتحدة بتزويدها بالإمكانيات المادية والحربية لتعقب الخلايا الإرهابية على أراضيها تحت زعم أن هناك عناصر من تنظيم القاعدة نشطة في بعض دول الاتحاد الروسي مثل الشيشان وداغستان وكذلك في كوسوفا وقبرص واليونان وفى مناطق من البوسنة والهرسك.

وأخيرا يمكن القول أن الأقليات الإسلامية في أوربا والعالم بشكل عام تكاد تكون هي الضحية الأولى من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بعد أن أكدت الولايات المتحدة الأمريكية أن الحادث قام به تنظيم القاعدة الذي كان يتخذ في السابق من أوربا وأمريكا مركزا لنشاطه منذ الثمانينات وحتى تفجيرات نيروبي ودار السلام والرياض ثم تفجيرات نيويورك وواشنطن وبومباى الهندية ، وبالتالي اعتبرت بعض الأنظمة الأوربية أن كل الأقليات المسلمة المتواجدة على أرضها هم عناصر من تنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن، الأمر الذي دفع بهذه الحكومات – في عنصرية وتعصب – إلى تعقب المسلمين والقبض عليهم وإخضاعهم لتحقيقات مطولة والتضييق عليهم في كل ما يقومون به من أعمال وأنشطة مختلفة على المستوى الرسمي، أما على المستوى الشعبي فقد تعرضت العديد من الأقليات المسلمة في أوربا للإهانة بما في ذلك السب والقذف وتخريب المنشآت الإسلامية عبر إلقاء الزجاجات الحارقة على المراكز الإسلامية وتهشيم زجاجها، والتبول على جدران المساجد، والبصق في وجه المحتجبات والمنقبات في سابقة لم تكن موجودة قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

كما قامت الولايات المتحدة في بداية حملتها الصليبية – على حد قول الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش– على تأديب الأقليات المسلمة لديها، وفى الدول

الأوربية والآسيوية الصديقة التي تحالفت مع الولايات المتحدة لتقليم أظافر الجماعات والمنظمات والهيئات الإسلامية هناك ، وتحجيم نشاطها ومصادرة أموالها والقبض على النشطاء منها من المسلمين السنة أو الشيعة على حد سواء، ثم كان الاتجاه ناحية الدول العربية والإسلامية فكانت الحرب على أفغانستان وتنظيم القاعدة في ٢٠٠٢، ثم الحرب على العراق في إبريل ٢٠٠٣ بزعم أن النظام العراقي يمتلك أسلحة الدمار الشامل وأنه على علاقة بتنظيم القاعدة وأسامة بن لادن، مع أن وسائل الإعلام الغربية أكدت في العديد من تقاريرها قبل أحداث سبتمبر أن أسامة بن لادن ومن مقر إقامته السابقة في السودان كفّر الرئيس العراقي "صدام حسين" في حملات الإبادة والوحشية التى كانت ترتكبها قواته ضد المسلمين الأكراد.

ولكن ومن باب الإنصاف يمكن أن نشير إلى أن الولايات المتحدة ليس لها بالطبع سياسة واحدة ودية كانت أم معادية تجاه الإسلام والمسلمين، ويؤيد ذلك وجود أكثر من عشرة ملايين مسلم في الولايات المتحدة فقط ، وهذا العدد في تزايد ونمو مستمر، حيث تتحدد بسياستها تجاه الدول التي تخدم مصالحها الاستراتيجية ، وعلى الرغم من أن واشنطن ما تزال معادية للعديد من الدول العربية والإسلامية مثل إيران وسوريا والسودان والصومال فقد كانت مستعدة للتدخل لمصلحة مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان وإقامة الدولة الفلسطينية مثلما دعمت حركة المجاهدين الأفغان في الماضي ضد روسيا، وساندت الاقلية المسلمة في جنوب الفلبين عندما شرعت اليابان في غزوها، ودعمت النظام العراقي الذي أسقطته عندما كان في حربه مع إيران، بل أنها ساندت إيران ذاتها في فترة حكم الرئيس رضا بهلوى ومصدق قبل قيام الثورة الإيرانية ، وهذا ما يؤكد بطبيعة الحال أن السياسة الأمريكية تسير وفق مصلحة أفرادها بغض النظر عن أيديولوجية الدولة التي تعقد معها الولايات المتحدة علاقات أيا كان نوعها .

فالإدارة الأمريكية الحالية – وهى مجموعة الصقور– يختلط فيها الطابع السياسي

مع الديني، ويحتل العامل الديني نسبة كبيرة مما تقوم به الولايات المتحدة في العالم سياسيا، وقد يكون لها العذر إذا كان ما أصابها جاء من جماعة قليلة العدد من المعارضين لسياستها ، ويميلون إلى العنف والشدة تسمى تنظيم القاعدة، أو الجهاد الإسلامي، واستطاع الإعلام الصهيوني أن يلعب دورا مهما هو الأخر في إيجاد فجوة واسعة بين الولايات المتحدة ودول العالم العربي والإسلامي بما في ذلك الدول الإسلامية الصديقة والحليفة للولايات المتحدة.

إلا أن المنظمات الإسلامية هناك وهى بالتحديد منظمة (كير) كبرى المنظمات الإسلامية التي تحظى باحترام البيت الأبيض والإدارة الأمريكية أعلنت أن عدد المسلمين تزايد في أمريكا بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بصورة كبيرة حيث كانت الرغبة شديدة عند الكثيرين من عامة الشعب وطلاب الجامعات في البحث عن مضمون هذا الذي يدعى الإسلام؛ بعيدا عن الصخب الإعلامي الموجه ضده في أعقاب الحادث ، وكان نتيجة ذلك إقبال العديد من أصحاب الأديان الأخرى على المراكز الإسلامية لدراسة الإسلام من ناحية ، والبعض الأخر كان يرغب في معرفة المزيد عن الإسلام الصحيح من ناحية أخرى ، وكان من نتائج ذلك أن دخل العديد منهم في الدين الإسلامي عن اقتناع وبعد دراسات متأنية على الرغم من قوة الإعلام الغربي الموجه ضد الإسلام والمسلمين فى الفترة التي أعقبت أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١، يقابل ذلك تراجع شديد في فعالية الإعلام العربي والإسلامي على الرغم من امتلاكه نفس الإمكانيات التكنولوجية والفنية التي يمتلكها الإعلام الغربي من صحف وإذاعات وقنوات فضائية بكل اللغات ،ولكن على ما يبدو أن الإعلام العربي والإسلامي داخل المنطقة العربية وخارجها أيضاً ما يزال ينقصه شيء واحد فقط ألا وهو الحرية التي تشتاق إليها قلوب غالبية البلدان العربية والإسلامية .

د. مجدى الداغر

الفصل الأول :

الإسلام والغرب
الـــديـن .... أم الدولـــــة ؟

تمهيد:

بدأت الدراسات المنهجية الرسمية حول الإسلام في الغرب في القـرنين السـادس عشر، والسابع عشر الميلاديين مدفوعة بدوافع العداء الديني ضد الإسلام، وقد كان ذلك مسبوقاً في الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشـر الميـلادي بحركة محمومة في الغرب قام من خلالها الباحثون الغربيين بنقل وترجمة الأعمال الثقافية والعلمية المدونة بالعربية، والتي أسهمت إسهاما بالغا في نهضة أوربا.

وفى القرن التاسع عشر الميلادي ونتيجة لحركة التنوير ونزعة العلمانية الإنسـانية المصاحبة لها تغير أسلوب المستشرقين الغربيين، وتم استبدال العداء الـديني إمـا بدوافع إمبريالية أو تكبر حضاري وهما أسوأ بكثير من مجرد العداء الديني، وهناك بلا شك من درسوا الإسلام والمجتمعات المسلمة بصورة طبيعية أو علـى الأقـل بدافع من التعرف الثقافي على الأخر، بيد أن النظرة الكلية للإسلام عنـد مفكـري الغرب بدأت تأخذ اتجاهات قد يكون معظمها – عدائي – ضد الإسـلام والتواجـد الإسلامي في الغرب في أعقاب تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ باعتبار أن ما حدث كان نتيجة التنظيمات الإسلامية التي سمح الغرب بتواجدها على أرضه ورعايته لها فترة صراعه مع بعض الأيديولوجيات الأخرى.

إن الصراع بين الإسلام والغرب متوارث من صدام إلى أخر، وكانت هناك بالطبع مواجهات استراتيجية متكررة بين الطرفين أبرزها في القرن الثامن الميلادي مـع الفتوحات الإسلامية في أسبانيا وفرنسا، ثم في القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما تقدم العثمانيون نحو وسط أوربا وشبه منطقة البلقان، لكـن هنـاك فتـرات تاريخية كثيرة لم تشهد صراعا من هذا النوع.

أما فى الحالات التي شهدت فيها عدوانا بالمعنى الاستراتيجي أو التجاري فقد جـاء العدوان من الغرب وليس من العالم الإسلامي الذي بدأ يشعر بالضعف بعد سـقوط الخلافة الإسلامية على يد كمال الدين أتاتورك في مطلع القرن العشرين، والسـؤال

كيف كانت علاقة الإسلام بالغرب قديماً ؟؟ وما مستقبل هذه العلاقة في ظل التطورات المتعاقبة في العالم المعاصر؟

وبداية تجدر الإشارة إلى أن تاريخ المسلمين ارتبط بتاريخ المسيحيين منذ أول أيامهم، ففي القرن السابع الميلادي وتحديد عام ٦١٠ م كانت القوتان المسيطرتان الرئيسيتان على العالم هما (الإمبراطورية الرومانية المسيحية تحت قيادة هرقل والإمبراطورية الفارسية تحت قيادة الإمبراطور كسرى) إلا أنه وبحلول عام ٦١١ م أحرز الفرس انتصارات كبيراً على الرومان فاستولوا على حلب ودمشق، وحين سقطت القدس عام ٦١٥ م في أيدي الفرس تم حرق المدينة وبعد استيلاءهم عليها اتجهوا غرباً حتى وصلوا طرابلس في شمال إفريقيا، أما في الشرق فقد وصلت جيوشهم إلى أطراف القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، بينما الجزيرة العربية نفسها لم تقع في أيدي أي من القوتين رغم أن أطرافها وقعت تحت سيطرة أحدهما في أوقات مختلفة، وتنازعت في اليمن قوتان هما(الفرس والأحباش) الذين كانا تربطهم علاقات ثقافية وسياسية قوية مع اليمن طول قرون عديدة.(١)

وفى الصراع على القوة والسيطرة كانت قريش الوثنية قد تحالفت مع الفرس الذين كانوا يدينون بالزرادشتية، وسعدوا بهزيمة الرومان معتقدين أن تحطيم قوة الرومان المسيحية سوف توقف انتشار رسالة (محمد صلى الله عليه وسلم) واقتصاديا استفاد القرشيون من هزيمة الرومان باستيلائهم على طرق التجارة في جزيرة العرب من اليمن إلى دمشق وغيرها من البلاد العربية.

وقد تعاطف النبي (صلى الله علية وسلم) والمسلمون مع الرومان المسيحيين، وأعتقد الجميع أن الإمبراطورية الرومانية قد تحطمت ، بيد أن الرسول (صلى الله علية وسلم) أخبر بهزيمة الفرس عبر الوحي في نص قرآني يقول فيه الله سبحانه وتعالى " غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ".(٢)

وبعد سبع سنوات تحقق ما رواه الرسول (صلى الله علية وسلم) من آيات قرآنيـــة ، وهزمت الفرس بالفعل وانتصر الرومان، وحاولت جيوش الروم الدخول مع الإسلام في معارك حقيقية التقت خلالها جيوش الرومان مع المسلمين عنـد مدينـــة تبــوك وانتهى اللقاء بالتفاوض على تسوية سلمية وسحب كلا منهما قواته.

بيد أن دوافع التحرك الروماني في هذه المرحلة كان وراءه قلق إقتصـــادى علـــى مصالحها وتجارتها في المنطقة من ناحية، وخطورة الإسلام على المسـيحية مـــن ناحية أخرى، حيث أقبل المسيحيون على اعتناق الدين الجديد، الأمر الـــذي دفـــع الرومان لأن يواجهوا هذا المد المتزايد نحو الإسلام، ولكن الرسول (صلى الله علية وسلم) جهز هو الآخر جيوشه واستشعرت خلالها الروم قوة الإســـلام، ورضـــخت لعقد صلح مع الرسول (صلى الله علية وسلم).[٣]

ولكن وعلى الرغم من المعاهدات بين الطرفين إلا أن محاولات الروم لم تنقطع عن غزو البلدان العربية ومقاومة الإسلام والدخول معه في صدام مباشر تظهر من خلاله مدى قوة الإسلام وخطورته على الدول المجاورة، وكانت المحاولة الثانية في عهد عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين وبعد فتح المسلمين لسوريا وفلسطين ذهب عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلم مفاتيح مدينة القدس، وعندما دخلها رفض الصلاة في كنيسة القيامة خوفاً من أن يسيء البعض فهم الإسلام وينتهزون الفرصة لبناء مسجد بدلاً من الكنيسة، وأمر عمر بحماية المسيحية (كأقلية) والحفاظ على حقوقهم ومشاعرهم الدينية .[٤]

وكان سكان البلدان العربية قبل الفتح الإسلامي يتكلمون الكلدانية في وادي الرافدين والسريانية في سوريا وفلسطين، والعربية في العديد مـــن المقاطعـــات الأخـــرى، وتحول عدد من العرب إلى المسيحية منذ القرون الأولى للمسيحية وخاصـــة فـــي سوريا وبلاد الرافدين، وكان لهم آنذاك مذهب صاغوه بلغتيهما الكلدانية والسريانية.

وفى ظل الإمبراطورية البيزنطية استأثر اليونان في سوريا بجميع المراكز المدنية والعسكرية والدينية وفرضوا اللغة اليونانية لتصبح لغة رسمية للبلاد، بينما لم

يتوغل تأثيرهم إلى لبنان وبلاد الرافدين ، وانفصل السريان والكلدان عن روما، ومع حدوث الانشقاق الكبير في الكنيسة الأم عام (١٠٥٣) ما بين شرقية وغربية اتبع الأقوام الخاضعون لليونان الكنيسة اليونانية أي الشرقية واستمر التدخل اليوناني في الكنيسة الأرثوذكسية حتى عهد الحكم العثماني ثم أخذ هذا التدخل يتراجع مع بدء التدخل الروسي السياسي – الديني في إطار ما يسمى بالمسألة الشرقية.

وظل الأرثوذكس العرب التابعين للكنيسة الأرثوذكسية حتى تاريخ التدخل الروسي يؤدون تراتيلهم وصلواتهم باليونانية مع إدخال العربية في قسم كبير من أناشيدهم وتراتيل مزاميرهم.

إلا أنه وبمجرد ظهور الإسلام وحد بين القبائل العربية بداية وجعلها أمة واحدة متجانسة قوية[٥] وانطلقت تنشر الإسلام في كل مكان، حتى امتدت الدولة الإسلامية إلى جميع البلاد المجاورة في آسيا وإفريقيا واضعاً قواعد للروابط البشرية، فلم يحدث إكراه في دخول الإسلام، وإنما ترك للناس حرية العقيدة والمذهب وخاصة النصارى واليهود، والذين عرفوا بأهل الذمة، حتى أوضح الإسلام معاملتهم وما عليهم من حقوق وواجبات، وهو ما يستدل عليه من الوثيقة المدنية التي أذاعها الرسول (صلى الله علية وسلم) في المدينة المنورة بمجرد استقراره فيها والتي تعتبر بحق القانون الأساسي للدولة الإسلامية الجديدة.[٦]

وقد وضع الرسول بذلك أسس الدولة الإسلامية في المدينة، وأخذ يعمل جاهداً على نشر الإسلام، فقد أمر الله الرسول (صلى الله علية وسلم) والمسلمين بقتال المشركين، وأذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله وقام الرسول بغزوات عديدة لمواجهة قريش والقبائل العربية في شبه الجزيرة العربية أشهرها بدر الكبرى، وأحد، وبنى النضير والأحزاب التي أعقبها صلح الحديبية (٦هـ).[٧]

وعلى ذلك فإن الإسلام وإن كانت صلته بجميع الشعوب والأقوام تقوم على مبدأ المساواة، وتحكمها نظرة واحدة، إلا أنه بالنسبة للعرب فكانت هناك علاقة خاصة بين الإسلام والعرب، ليست لشعب من الشعوب، ولا لقوم من الأقوام، حيث اختار

الله رسوله محمد (صلى الله علية وسلم) من العرب، كما اختار لغة العرب لتكـون لغة كتابه الخالد (القرآن الكريم) واختار البيت الحرام كعبة المسلمين في كل بلـدان الدنيا في مكة المكرمة في بلاد العرب، واختار الجزيرة العربية لتكون قاعدة لـدين الله، فلا يجتمع في جزيرة العرب الإسلام ودين آخر.(٨)

وبذلك أصبحت هناك أمة بالمعنى الإسلامي الذي يعنى الانتماء الديني والعقدي، وليس انتماءا عنصرياً لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق، ومن ثم فقد قامت الأمة الإسلامية خلال تاريخها الممتد منذ تأسيس الرسول (صلى الله علية وسلم) الدولة الإسلامية في المدينة من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر، فقد كان فيها من الصحابة غير العرب من كانوا أقرب الناس إلى الرسول مثل بلال الحبشى وصهيب الرومى، وسلمان الفارسي وغيرهم.(٩)

إن الذين قاموا بالفتوحات الإسلامية هم المسلمون، وليس العرب، فالإسلام هو الذي خلق للعرب القيم والروح التي واجهوا بها التاريخ والحضارة، وبالتالي لم يتوقـف نشر الإسلام على العرب على اعتبار أنهم شعب الإسلام المختـار كمـا زعمـت طوائف أخرى من قبلهم ولم تحتكره قبيلة أو طائفة منهم دون سائر العرب بـرغم العصبية والدموية، أو القرابة القبلية، فلا فرق بين عربي وأعجمـي إلا بـالتقوى والعمل الصالح.(١٠)

ومن هنا يتحمل نشره جميع المسلمين على قدم المساواة، فالدعوة عامة ولا كهنوت ولا أسرار ولا عرب، ولا عجم، ولا تمايز من أي نوع وهذا ما يساعد على انتشار الإسلام من فرد لفرد ومن موقع لأخر، في مد ذاتى متواصل إلى أن يعم الأرض جميعاً فلا يوجد مكان في العالم إلا وبه أقليات مسلمة كبيرة كانت أم صغيرة يعبدون الله وسط أغلبية لا تدين بالإسلام ويمارسون شعائرهم الدينية وسط اضطهاد وعنف من قبل الأغلبية المتسلطة غير المسلمة.

لكن وبعد وفاة الرسول (صلى الله علية وسلم) وانتهاء عهد الخلفاء الراشدين حرصت الدولة الأموية على أن تحافظ على عروبة الدولة والحكام والتنظيم وأطلقت على الباقين "موالى" وظلت هذه النظرة سائدة، وكانت أيضاً أحد أسباب سقوط الدولة الأموية لأنها ميزت بين العرب وبين أبناء البلاد المفتوحة (الموالى) وداخل العرب ميزت بين قريش وغير قريش وداخل قريش ميزت بين الأمويين والهاشميين وغيرهم.(١١)

أما الدولة العباسية فقد أحدثت تغييراً جذرياً في أصول الحضارة الإسلامية؛ وقد اعتمدت على الفرس في نزاعها مع الدولة الأموية وإسقاطها، وبذلك زالت النزعة العربية عن الدولة، فالخلافة الإسلامية للعرب، أما الإمارة والحكم فكانت للفرس، ثم نازع الأتراك الفرس في هذا،ولكن ظلت الخلافة الإسلامية عربية،والحكم الفعلي لقوات الجيش –الأتراك– ففي العصر العباسي حدث مزج إجتماعى بين العناصر التي تتكون منها الدولة ولم يعد هناك تعبير عربي ومولى وإنما هناك تعبير مسلم وغير مسلم وأصبحت الرابطة بين الجميع هي الإسلام بصرف النظر عن الأصل، أو اللغة، أو الديانة السابقة.

إن الأمة العربية تلجأ في مراحل الخطر المحدق والعدوان عليها من قبل الغرب إلى أعمق ما في وجودها وهو الإسلام والعقيدة التي يؤمنون بها، ولقد تجلت ذلك في مواجهة الحملات الصليبية، ولاسيما منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وفعلت ذلك في مواجهة الحملات الإيبيرية، وفى مواجهة الحملة الفرنسية على بلدان المغرب العربي، وفى مواجهة العدوان الثلاثي على مصر، وفى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفى سائر حركات المقاومة الشاملة للغزو الإستعمارى الغربي، فهي تدرك بفطرتها وغريزتها أن العدوان عليها كان ولا يزال عدوانا على الثقافة العربية والإسلامية؛ قبل أي شيء آخر، وأن هدفه هو محو هذه الثقافة وإن احتل الجانب الإقتصادى جزءاً منها.

ويصبح من البديهي أن نشير إلى أن الأمة العربية والإسلامية ليست معادية بطبعها للغرب، واستطاعت الثقافة العربية والإسلامية أن تقدم الدليل دوماً في تاريخها القديم والحديث والمعاصر، أنها ليست معادية لأية ثقافة أخرى، وأنها تحترم سائر الثقافات، وأنه أفضل ثقافة تحقق في تاريخها تمازج الثقافات المختلفة ، وأن جوهرها الإسلامي قوامه العفو والتسامح والمحبة، والرحمة واحترام الأديان والمذاهب التي يدين ويؤمن بها الآخر. (١٢)

الشرق والغرب أم الإسلام والمسيحية :

تُعد مسألة تحديد أبعاد الموقف الممكن اتخاذه من الغرب من الإشكاليات المتجددة باستمرار منذ القرن الماضي، وربما من قرون عديدة سبقت حيث تعد الحروب الصليبية من أهم أجزاء التاريخ المشترك بين أوربا والعالم الإسلامي بتوجيه من البابوية في روما، بغرض استعادة بيت المقدس في الشام، وقد بدأت هذه الحروب في نهاية القرن الحادي عشر واستمرت في عنف وضراوة حتى القرن الخامس عشر، ثم أخذت ألواناً أخرى من الصراع حتى القرن السابع عشر وعلى ذلك فإنه ما تزال توجد صعوبة في تحديد مصطلح الغرب نفسه فالمصطلح من الموضوعات التي يعانى دارسوها من حالة التداخل بين المعرفي والأيديولوجي، فعل الرغم من أن مصطلح "الغرب" هو في جوهره مصطلح جغرافي يوحى بدلالات تتصل بالموقع المكاني لهذا المجتمع أو ذاك، فإنه يلاحظ أن البعد الجغرافي يستمد منه هذا المصطلح اسمه أصلا يهمش في معظم الأحيان، بل قد يغيب كلياً مقابل تأكيد أهمية أبعاد أخرى، قد تكون سياسية، اقتصادية، حضارية، دينية

أما فيما يتصل بالبعد السياسي فإن هناك من يربط بين الغرب والاستعمار الذي عانت منه دول العالم الإسلامي من هيمنته وما تزال تعانى من آثاره على مختلف الأصعدة كان أخرها غزو العراق واحتلاله وتهديد دول الجوار وفرض خريطة جديدة على العالم بالقوة واحتلاله عقب أحداث " سبتمبر ٢٠٠١.

ومن اللافت للنظر أن هذا التوجه الإستعمارى بأشكاله المختلفة الذي يعتقد أنه يلازم طبع الغرب يفسر بمستويات مختلفة إذ قد ينظر إلية بعضهم على أنه يستند إلى قاعدة اقتصادية سمتها الرئيسية رغبة الغرب في امتلاك أسباب القوة الاقتصادية، وسعيه من أجل السيطرة على ثروات الشرق وخاصة النفط وفى المقابل تبرز تفسيرات أخرى خلاصتها أن الشرق المسلم والعربي تحديداً كان على الدوام هدف المخططات العدوانية التي حاول الغربي (المسيحي) تنفيذها إرضاءاً لنزعاته الانتقامية وانطلاقا من تعارضه الديني والسلوكي مع العقيدة المسيحية.

إن الغرب يظل مصدر الخطر لأن النزوع إلى الهيمنة بأشكالها المختلفة والرغبة في إذلال الأخر يمثلان المصدرين اللذين يستقى منهما توجهاته وقد يرى البعض أن الغرب يجسد التقدم التقني، والرقى الحضاري والثقافي كما أنه موطن التقاليد الديموقراطية والحرية، فهو باختصار حلم أبناء المجتمعات المتخلفة.

وتجدر الإشارة هنا أن مصطلح الغرب يستخدم غالباً في صيغة تعميمية تتجاهل وجود تباينات أو تناقضات تعانى منها المجتمعات التي تحشر تجاوزاً – وبمعزل عن المسوغات المنهجية – تحت لواء المصطلح المعنى ، فالحدود الحقيقية التي يشمل نطاق هذا المصطلح غير واضحة المعالم ، فهل يشمل جميع الدول الأوربية بالإضافة إلى الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي السابق ، وكندا أم أنه يقتصر على دول أوربا الغربية والولايات المتحدة على وجه التخصيص ؟ وأيد هذا الرأي المفكر المصري زكى نجيب محمود بينما يرى البعض ضرورة التعامل مع المصطلح بشموليته.

إن موضوع الشرق والغرب أو فيما يعرف بالإسلام والغرب ليس موضوعاً جديداً كما أشرنا سابقا برز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الأخيرة في نيويورك وواشنطن إنما هو موضوع قديم وتحديداً منذ ظهور الإسلام من أربعة عشر قرنا أو يزيد حول شاطىء البحر الأبيض المتوسط في الجنوب ثم الشمال وورائته للإمبراطورية الرومانية، وفى الحروب الصليبية أتى الغزو من الشمال الغربي،

الشاطىء الأوربي إلى الجنوب الشرقي الشاطىء الأسيوى فى الشام، ونجح الجنوب والشرق، مصر والشام من صد العدوان، وفى العصر الحديث أتى العدوان من جديد من الشمال والغرب من أوربا وأسبانيا والبرتغال إلى الجنوب والشرق إلى إفريقيا وأسيا عبر البحار والمحيطات بحركة التفات نحو العالم القديم بعد أن فشل الاختراق في القلب في فلسطين.

إن الصراع بين الإسلام الغرب، قد بدأت مؤشراته منذ الصراع بين فارس والروم وفتوحات الإسكندر في قلب أسيا والصراع بين الشمال والجنوب، وكذلك منذ الصراع بين روما وقرطاجنة ثم الصراع حول البحر الأبيض المتوسط بشاطئية الشمالى الأوربى، والجنوبي الأفريقي عبر المرحلة القديمة اليونانية، الرومانية، ثم الوسيطة المسيحية الإسلامية، ثم الحديثة الاستعمارية التحررية صراع قديم ما زالت جذوره متأصلة في اللاوعى الحضاري حول البحر الأبيض المتوسط.

هذا الإرث التاريخي والتراكم الثقافي جعل شاطىء البحر الأبيض المتوسط كفارسين متبارزين عبر التاريخ فنشأت بين الضفتين علاقة محبة وكراهية الأثر المتبادل بين الشمال والغرب من ناحية والجنوب والشرق من ناحية أخرى، وهو ما يعرف في الأدبيات الحالية باسم الإسلام والغرب وهو تقابل بين حضارة ومنطقة جغرافيه، والصحيح بين حضارتين، الإسلامية والغربية أو بين منطقتين جغرافيتين " بين الشرق والغرب ".

إن الغرب يدرك شأن الإسلام وحجمه ودوره عندما يتحدث عن مخاطره عليه، ويتغاضى عن هذا الشأن عندما يتحدث عن ثقافته وحضارته وعطائه الإيجابي، وبالتالي كان من الإنصاف القضاء على الأفكار المبيتة التي يحملها الغرب عن الإسلام، وابتعاد هذا الغرب عن موقفه الإنتقائى المغرض قديماً وحديثاً، ونعنى انتقاء الأحداث والأفكار إنتقاءاً يؤكد نظرته المعادية للإسلام، فمن الظلم المقارنة بين الثقافتين الإسلامية والغربية في لحظة واحدة إذ تعيش كل ثقافة في مسار تاريخي خاص بها، فالثقافة الغربية مثلاً مرت بثلاثة عصور (القديم، الوسيط،

الحديث) في العصر القديم لم يكن الإسلام قد ظهر بعد، أو انتشر، فورث الحضارة القديمة اليونانية واللاتينية وتراث الآباء اليونان واللاتين ترجمة وقراءة، وانتحالاً وإبداعا، وتلخيصاً.

وفى العصور الوسطي نشأت الحضارة الإسلامية عصر المتنبي والبيروني وابن سينا، وابن الهيثم، والتوحيدي، وغيرهم، وهو ما يقابل العصر الوسيط الأوربي، ثم بدأت عمليات الترجمة من العربية إلى اللاتينية في مختلف العلوم والتي كانت وراء النهضة الأوربية الحديثة وكانت الأندلس في عصره الذهبي مسيطراً على شبه الجزيرة الأيبيرية فيما عدا جيوب في أقصى الشمال، والشمال الغربي صارت فيما بعد ممالك مسيحية قوية .(١٣)

أما في الشرق فكانت بغداد مدينة العباسيين الجديدة بالغة الثراء والاتساع وإلى جانب العواصم (بغداد – قرطبة) ازدهرت المدن الإسلامية بصفة عامة، وكان العالم الإسلامي هو الجانب الأقوى عسكرياً وحضارياً ، وكان البحر المتوسط بحيرة عربية، والدولة الإسلامية كثيرة الغنى، ففي قرطبة كان عدد سكانها أكثر من مليون يسكن العامة فيها (١١٣) ألف مبنى، أما الخاصة فدورهم كانت (٦٠) ألفاً، وكان بها (١٦٠) فندق، (٤٥٢) حانة، وكانت مقسمة إلى (٢١) حياً، يسكن الخاصة في (٣) أحياء هي (الرصافة –الزهراء –الزاهرة) وكانت شوارع هذه المدينة مرصوفة بالحصى، ومضاءة بالسراج ليلاً بأطوال تصل لـ١٦ كيلو، والمياه تجرى إلى المنازل عبر شبكة مياه عامة من الرصاص، أما بغداد فكانت الأكثر ازدهاراً في عهد هارون الرشيد فكان خراج الدولة العباسية حوالي (٧٠) مليوناً وخمسين ألف دينار في العام الواحد(١٤) تصب كل هذه الأموال في بيت مال المسلمين.

إن الدين هو حجر الزاوية في علاقات المسلمين والمسيحيين واليهود فهم جميعاً أهل كتاب، والكل يعبد إلة واحداً لا شريك له، فالإسلام الذي يعنى التسليم الكامل – هو دين كل الأنبياء الذين سبقوا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فكل الأنبياء قد دعوا إلى نفس المبدأ وهو التسليم الكامل لله (نوح، إبراهيم، إسماعيل، موسى، عيسى،

محمد) فموسى وعيسى بن مريم (عليهما السلام) جاءوا باليهودية والمسيحية وكانا قبل الإسلام، ولكن لفظ اليهودية لم يذكر أبداً في التوراة فلم يشر موسى أبداً لهذه الكلمة، كما لم يستخدمها سليمان أو داود فيما بعد.(١٥)

أما كلمة المسيحية فهي الأخرى لم تذكر أبداً في الإنجيل ولم يقل عيسى أنه المسيح، فقد جاءت النصرانية إلى روما على أيدي الرسولين (بطرس، وبولس) اضطهدتها الإمبراطورية الرومانية وولاياتها،وخاصة مصر وظلت عمليات الاضطهاد تمارس ضد النصرانية إلى أن جاء قسطنطين (٣٠٦م) وأوقف هذا العداء حيث كان يؤمن بالنصرانية ولكن لم يعلن عن إيمانه بها إلا وهو على فراش الموت .(١٦)

وفى الواقع فإن الإسلام لم يقابل مواجهة عنيفة ولا حرباً شعواء إلا من المسيحيين (النصارى) ويذكر بعض المؤرخين أن النصارى قد ألفوا أناجيلهم تأليفاً بعد انتقال السيد المسيح بعشرات السنين، ويغير لغته، وبما استطاعوا تذكره، ومن هنا جاءت مليئة بالأقاويل والمبالغات، بل وأضاف إليها بعض الحكام ورجال الدين ما يريدون لدنياهم، وعلى ذلك فإنهم يرون في الإسلام الذي لم يغير فيه البشر حرفاً واحداً الخطرعليهم إذ يكشف زيفهم من ناحية ،وادعائهم كذباً بأنهم أتباع المسيح من ناحية أخرى .

والثابت أن كل رسالة إلهية هي من عند الله سبحانه وليست من تأليف الرسول وافتعاله، وكذلك لا تصلح تسمية النصراني بالمسيحي لأنه مهما بلغ النصراني من الكمال فلن يبلغ شأن السيد المسيح حتى يكون مسيحياً(١٧) فكلمة المسيحية لم تذكر أبداً في الإنجيل، ولم يقل عيسى أبداً أنه المسيح أو يسوع، حيث أن الرسالة المشتركة التي دعا إليها جميع الرسل هي الخضوع والتسليم الكامل لله، وأن كل الرسالات السماوية تنتهي برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وكانت المسيحية قد وصلت إلى أوربا في عدة صور مذهبية مما سبب انقسامات دينية في شعوب أوربا، كان أخطرها المذهب الأريوسى السكندري، الذي اعتبره مجمع نيقية الكاثوليكي مذهب يدعو إلى الهرطقة، ويجب القضاء عليه، إلا أن روما تعرضت

لغارات من قبل القبائل الجرمانية وأسقطتها، وظلت أوربا الغربية ثلاثة قرون تحت سيطرة الجرمانية، التي دان بعضها بالمذهب الكاثوليكي ودانوا بالولاء لبابا روما، وقامت مملكة الفرنجة في وسط أوربا كما أسس القوط الغربيين الذين كانوا على المذهب الأريوسى ممالك لهم في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا.(١٨)

وقبل ظهور الإسلام بقليل – كما أشرنا في السابق- كان الصراع الدولي على أشده بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، وبين الإمبراطورية الفارسية الأمر الذي دفع الفرس إلى غزو ولايات الإمبراطورية البيزنطينية في الشام، ولكن الإمبراطور هرقل استعاد ما سبق فقده عام (٦٣٠م) وفي عام (٦٤١م) توفى هرقل، ثم تعاقب على عرش الإمبراطورية بعده أباطرة لم يكونوا على مستوى المسئولية من الأحداث الجارية والتي تداعت أحداثها سريعاً بقضاء المسلمين على الإمبراطورية الفارسية تماماً.

وكان ذلك مؤشرا إيجابياً على امتداد الإسلام خارج أراضية فانطلق المسلمون في أسرع زحف عرفه التاريخ فاتحين أجزاء كبيرة من العالم القديم، فخلال ما يقرب من قرن ملكوا الإمبراطورية الفارسية كلها، وتوغلوا في شرقها حتى نهر السند وغرب الصين، ومعظم أملاك الإمبراطورية الرومانية البيزنطية وكل دول القوط الغربية في شبه جزيرة أيبيريا، وكانت الدولة الأموية أكثـراً اهتمامـا بالفتوحات الإسلامية عن الدولة العباسية حيث اهتمت بالحفاظ على ما ورثته من الدولة الأموية وقد حملت هذه الدولة لواء الإسلام لأطراف الأرض حيث لم يدانيها في ذلك أية دولة أخرى في العالم، وإن لم تكن قد أخذت بمبدأ الشورى في نموها.

إن الدولة التي أقامها الأمويون وطورها العباسيون تنتمي من حيث البيئة والهيكل الإداري إلى نموذج الدولة الإمبراطورية على النمط الفارسي الذي لم يعهده عرب الجزيرة، ولا وجدوا له نظيراً في دولة الإسلام الأولى " دولة المدينة" فهي قامت باسم الإسلام (الخلافة) ولهدف هو – فضلاً عن تدبير شئون أمة الإسلام – نشر دعوة الإسلام في أصقاع أبعد من مركز الدولة بجانب أن الذين بنوها خارج

الجزيرة هم أنفسهم خريجوا دولة المدينة، إلا أنها أبطلت مبدأ الشورى في إدارة الحكم وفى تعيين الولاة مستعيضة عنه بنظام الوراثة وتحول الحكم إلى ملكية خاصة للعصبيات، خلاف ما كان عليه أمره في بادىء الأمر، وسوى ذلك من علامات التغير التي طرأت عليها بفعل حقائق التراكم السياسي الجديدة بعد تعاظم موجات الفتح والاصطدام بمنظومات حكم أجنبية لم يكن العرب يعلمون عنها شيئاً لولا غزوهم لهذه الشعوب.

على أن هذه المتغيرات جرى تأصيلها بسرعة تكفى لعدم إشعار المسلمين بالفراغ، وجرى إسباغ الشرعية الدينية على الخلفاء من قبل المؤسسة الفقهية الدينية بل وصل الأمر – أحياناً – إلى درجة تألية السلطان السياسي وإحاطته بالقداسة ضماناً لصورة الدولة الوفية للإرث النبوي .

كما جرى إدراج الوراثة السياسية لكرسى الخلافة ضمن نظام البيعة لإضفاء الشرعية الدينية عليها، وقد نجحت سياسة القمع– أحياناً -- في انتزاع الاعتراف بهذه الدولة غير أنه – في جميع الأحوال – لم تلغ هذه المتغيرات ثوابت دولة المدينة، وانفصال المجال السياسي عن المجال الديني في التكوين، واتصاله به في تحقيق الشرعية.(١٩)

ومن هنا يمكن القول بأن الدولة التي أسسها الرسول (صلى الله علية وسلم) في المدينة كانت كياناً سياسياً قام منذ البداية على رابطة مدنية وليس رابطة دينية، حيث كانت دولة المدينة بهذا المعنى دولة مواطنين يجمعهم الانتساب إلى كيان إجتماعي وسياسي مشترك، ويؤكد ذلك ما جاء في دستور هذه الدولة (الصحيفة) حيث جرى التعاقد بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذين معه وبين سائر الجماعات والملل المكونة للاجتماع السياسي في المدينة، إلا أنه وبعد وفاه الرسول (صلى الله علية وسلم) قامت مؤسسة الخلافة لتكوين التنظيم السياسي العملي للأمة، ويلاحظ أن فكرة الأمة استمرت قائمة عبر فترات التاريخ الإسلامي الممتد، فبينما تعرّضت مؤسّسة الخلافة للهزات والتمزق، فإن الأمة بقيت تاريخياً – الإطار العام

للمسلمين – ورغم ذلك كانت رقعة أراضى الخلافة في توسع متصل طيلة القرن الأول الهجري.

كما أن الخلافة زمن الراشدين، قامت على أساس الاختيار بصورة مباشرة، كما في حال الخليفة أبو بكر، وعلى بن أبى طالب أو بالتسمية التي تسبقها معرفة رأى الشخصيات البارزة بين الصحابة بالنسبة لعمر بن الخطاب وكانت الفتنة والحرب الأهلية الأولى أيام (عثمان وعلى) تعبيراً عن أزمة في الخلافة والمجتمع العربي الإسلامي، نتيجة التطورات العامة التي أعقبت التوسعات الإسلامية الضخمة في بلدان العالم، فقد شاركت القبائل في الفتوحات وشعرت بقوتها وبدورها فلم ترضى عن سيطرة المركز (المدينة) ولم تخضع لسلطان قريش، كما أدى تدفق الأموال والغنائم من الفتوحات إلى فجوة بين القبائل وبين أهل المدينة (قريش خاصة)، ولم تهدأ هذه الأزمة إلا بظهور الدولة الأموية.

وعندما انتقلت السلطة إلى الأمويين تلا ذلك إدخال فكرة الوراثة في الحكم التي تنافى مبدئياً مفاهيم الشورى ولا تتمشى حتى مع المفاهيم القبلية التي تقبل بانتقال السلطة أحياناً من الأب إلى الابن بشكل محدود وخضعت كل القبائل للسياسة الأموية بالعنف والقوة في أحيان كثيرة.

أما العالم المسيحي فكانت الإمبراطورية البيزنطية على احتكاك دائم بالخلافة العباسية في لعبة توازن القوى التي كانت تدار بحكمة واقتدار أحياناً وبشكل يغلب علية التنافس والصراع في معظم الأحيان عندما تكون رؤوس الحكم على مستوى عال من الفهم السياسي مثل عهد الإمبراطور "نيقوفور" في بيزنطة، وهارون الرشيد في بغداد، والخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل في قرطبة والإمبراطور شارلمان في أوربا اللاتينية، حيث كانت الإمبراطورية البيزنطية تشابه إلى حد كبير الخلافة العباسية وأن الحكم في كليهما يسيطر على السلطة الدينية والزمنية أو يملكهما معاً، كما في الخلافة العباسية على عكس ما كان سائداً آنذاك في أوربا.

أما في الغرب فقد كانت السلطة الزمنية خاضعة أحياناً للسلطة الدينية ومتمردة عليها أحياناً أخرى، وبنهاية القرن الثامن تمكن البابا "ليو الثالث" من دعم فكرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجسد هذا في ليلة عيد الميلاد عام (٨٠٠م) عندما توج بيده شارلمان إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ويذكر أن هارون الرشيد وشارلمان تبادل السفراء حيث كان هناك تحالف بين الدولة العباسية وشارلمان من ناحية، وضد الدولة الأموية والإمبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى[٢٠] وفى أوائل القرن الرابع عشر (١٣٢٦) تكونت دولة إسلامية على أنقاض دولة السلاجقة الأتراك التي استنزفت الإمبراطورية البيزنطينية، فقد سيطر العثمانيون على الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وعبروا بحر إيجة ونزلوا على الساحل اليوناني (١٣٥٤) ثم اقتطعوا اليونان كلها (١٣٣٩) وأوغلوا شمالاً وغرباً واستولوا على صوفيا عاصمة البلغار (١٣٨٦) وأصبحت ولاية الصرب تابعة لسلطان الأتراك العثمانيين، بينما نهضت المجر وبولندا في حملة صليبية هزمها العثمانيون (١٤٤٤ –١٤٤٨) وتمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية في عام (١٤٥٣) منهياً على الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي ظلت أكثر من ألف عام بعد سقوط روما، ذاك الحدث الذي هز أوربا وأشعل الأمل في الشعوب الإسلامية وخاصة في المغرب العربي الذي كان يعانى من الهجمات الصليبية على شواطئه مراراً وتكراراً.

وقد قام محمد الفاتح بالعبور إلى (إترانتو) على الساحل الإيطالي عازماً فتح روما نفسها،ولكنه توفى وانسحب الأتراك عائدين الأمر الذي اعتبره مؤرخو أوربا هزيمة للدولة الإسلامية خارج أراضيها[٢١].

وكان المسلمون بجيوشهم قد تمكنوا من السيطرة على نصف فرنسا وكانت معركة (بواتيية) بين المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، وبين الجيوش المسيحية بقيادة شارل مارتل من أهم المعارك الفاصلة فى تاريخ أوربا، ومع هزيمة المسلمين وقتل الغافقى فيها عام (١١٤هـ –٧٣٢م) فإن مارتل لم يستطع أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها، وأقام العرب بفرنسا قرنين كاملين وتوغلوا في سويسرا عام (٩٣٥)

ميلادية، ويقول غوستاف لوبون: إنه لو انتصر العرب على شارل مارتل لأصاب أوربا النصرانية مثل ما أصاب أسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي محمد (صلى الله علية وسلم) .[٢٢]

وفى عام (٢١٧) فتح العرب صقلية وتقدموا فاستولوا على جنوبي إيطاليا، وبلغوا في تقدمهم ضواحي روما، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية إليهم، وصاروا سادة البحر الأبيض.

أما الآن وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر فالمسرح الثقافي والسياسي في أمريكا اليوم مشغول بالقضايا الروحية والعلاقة بين الدين والدولة، فرجال السياسة عادة ما يحاولون اللعب على وتر الدين لتحقيق مكاسب سياسية في أوقات معينة، ولكن محاولتهم هذه تستمد مصداقيتها وأهميتها من الاهتمام الشعبي بدور الدين في الحياة العامة. فقد تجرأ "آل غور" واعتبر انه وُلد من جديد كأصولي مسيحي وأما نائبه السناتور الأرثوذكسي" ليبرمان" فدعا إلى إحياء دور الدين في اللعبة السياسية الأمريكية، أما "جورج بوش الابن" فلقد وعد ببناء "Jesus City" مدينة المسيح إذا فاز بمنصب الرئاسة الأمريكية.

وقد يعود هذا الاهتمام بالدين عند "جورج بوش" إلى موقف تعرض له في شبابه عندما أصيب بأزمة كبيرة في نهاية العشرينيات من عمره عندما كان يتعاطى الكحول ، وقد حصل أن شفاه المبشر الإنجيلي "بيلي جراهام" من ذلك عندما كشف له عن القيم الروحية للدين، وعندئذ شعر بوش وكأنه ولد من جديد! ونجا من عادة تعاطي الشراب التي كادت تودي به وبحياته ، وبالتالي فالدين عنده هو العصمة من الانهيار، وبهذا المعنى فهو متدين وبشكل حماسي، ولكنه لم يتحول إلى متعصب، أو متزمت على طريقة الأصوليين من أمثال جيري فالويل، أو بات روبيرتسون ، أو جيم بيكر، أو جيمى سواجرت ، أو أورال روبرتس، أو كينيث كوبلاند ، أو ريتشارد دى هان، أو ريكس همبرد ، وعندما سئل عن فيلسوفه المفضل أو مفكر تاريخي من الطراز الأول يحترمه أجاب: المسيح. وبالتالي لم تكن مقولته بأنة سيقوم بحرب صليبية على العالم الإسلامي في أعقاب التفجيرات الأمريكية الأخيرة

أو ما يعرف بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ مجرد ذلة لسان أو عبارات خرجت في لحظات انفعالية في وقت الغضب وإنما هي في الواقع من صميم العقيدة والدين الذي يؤمن به.

كما اتخذ الصليبيون من الرحلات الكشفية وسيلة فعّالة للوصول إلى قلب العالم الإسلامي الذي ازداد حقد الغربيين عليه بعدما تمكن محمد الثاني الملقب بالفاتح سنة ١٤٥٣م من فتح القسطنطينية وتردد صدى هذا الفتح في أسبانيا كما تردد في كل أنحاء أوروبا المسيحية، وقد كان لهذا النصر العثماني أثره البالغ على حركة الكشوف الجغرافية، حتى أن البابا "نيقولا" الخامس سنة ١٤٥٥م أصدر مرسوماً يبارك فيه جهود هنري الملاح الكشفية، وعمل جاهداً على تكوين حلف صليبي ضد الدولة العثمانية إلا أنه ماتِ ولم يحقق ما كان يسعى إليه.(٢٣)

كما أن البابا "كاليكستوس" الثالث قد أصدر هو الأخر مرسوماً سنة ١٤٥٦م يؤكد المنحة التي وهبها "نيقولا الخامس لهنري الملاح، وشرع للنصارى صلاة التبشير التي يطلبون فيها النصر على الأتراك، وبذل جهوداً لتأليب أوروبا ضد المسلمين، وإزاء هذه الحملة تطورت أسطورة "برسترجون" التي انتشرت في أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وبمرور الزمن تطورت هذه الأسطورة حتى أصبحت صورة تعبر عن آمال الصليبيين في تكوين تحالف مع هذا الملك القوي لضرب قلب العالم الإسلامي خصوصاً بعد ما حققه المسلمون من انتصارات في الشام ومصر على الصليبيين.

وقد أصبحت هذه الأسطورة تنحصر في مملكة الحبشة المسيحية إبان القرن السابع الهجري ويعتبر البرتغاليون أول من بحث عن إمبراطورية "برسترجون" بكل جدية ومثابرة، ويبدو أن الحرب التي خاضها البرتغاليون ضد المسلمين في شبه الجزيرة الليبيرية والتي تمكنوا من النصر فيها أعطتهم دفعة قوية وأثارت فيهم الحماس في الوقت الذي فترت فيه الروح الدينية والحماس الذي ساد أوروبا أيام الحروب الصليبية وتراجع لهذه الحملات الغربية في تشكيلها وفي أهدافها التي وجهت إلى المشرق العربي والدليل على أن الدافع الديني كان من أقوى الدوافع وراء حملات البرتغال الكشفية والاستعمارية وكان لهنري الملاح دور هام في حركة الكشوف

الجغرافية ويعتبر هنري الملاح الابن الثالث للملك "جون" الأول ملك البرتغال، وقد عرف عنه أنه محارب صليبي متعصب، وله سيرة حافلة بحروبه ضد المسلمين في شمال إفريقيا، فقد نشأ في دير من الأديرة الأسبانية وتشرب تعاليم الكنيسة وبغضها المرير للإسلام والمسلمين وقد ترأس طائفة من الرهبان اليسوعيين (الجزويت) وأنشأ مدرسة بحرية ومرصداً بحرياً في الطرف الجنوبي لشاطىء البرتغال وجلب علماء الرياضيات ورسامي الخرائط والفلكيين واستعان بأسرى المسلمين الذين لهم دراية في المجال البحري.

ويقول كبار قساوسة الغرب :أن الإسلام يشكل تحديا بالنسبة لأوربا وللغرب عموما.. وان العالم الإسلامي قد بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية.. فكيف يمكننا ألا نري في ذلك برنامجا واضحا للتوسع وفتحا جديدا؟.. أما في ديار المسلمين فلقد سعي الغرب برعاية ودعم العلمانية الغربية للكنائس الغربية إلي تنصير المسلمين في ديارهم.. فجاء في بروتوكولات قساوسة التنصير الذين اجتمعوا في مؤتمر 'كولورادو' بأمريكا فى مايو سنة١٩٧٨ م' :أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا ونحن بحاجة إلي مئات المراكز لفهم الإسلام ولاختراقه في صدق ودهاء ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين.'

وقد قام مخططهم لاختراق الثقافة الإسلامية والوصول الي تنصير المسلمين بالاعتماد المتبادل علي الكنائس الوطنية المحلية! والعمالة الفنية المدنية الأجنبية!.. وبالتركيز علي المرأة والمبعوثين المسلمين في المجتمعات الغربية وباستخدام الفنون والآداب، بل وبصناعة الكوارث التي تخل بتوازن المسلمين فتسهل تحولهم عن الإسلام إلي النصرانية! فقالوا: 'لكي يكون هناك تحول إلي النصرانية فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس أفرادا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها! وقد تأتي هذه الأمور علي شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب وقد تكون معنوية كالتفرقة العنصرية أو الوضع الاجتماعي

المتدني وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلـــي النصرانية! ولذلك فان تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمرا مهما فـــي عمليـــة التنصير! وان احدي معجزات عصرنا أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى. (٢٤)

ومن هنا فإن الواقع الذي يعيشه المسلمون في المجتمع الأوروبي اليوم ، واقع مرّ، وهناك محاولات عديدة من جانب الحكومات الأوروبية في تحديـد أمـر الهجـرة واللجوء إليها وإذا كان العذر الخارجي لها هو الضغط الاقتصادي الـذي يضـرب أوروبا فان الدافع الواقعي هو تحديد نزوح المسلمين من دولهم التي تمرّ بمراحـل سياسية صعبة.

وهذا الخطر الداهم نراه الآن في المجتمعات الأوروبية على أشـده وأنـه السـبيل الوحيد الذي يعتمده المثقفون الأوروبيون هو مواجهـة المسـلمين علـى الصـعيد الحضاري، بتجريدهم من روح دينهم التي تمنح حياتهم معناها، وتكسب مجـتمعهم تماسكه وحيويته.

وفي هذا الصدد يمكن للمرجعية أن تسند المراكز الإسلامية في أوروبا من تهيئـة الندوات التثقيفية، والتوعية على القيم الإسلامية والتمسك بها وأن الإسـلام وقيمـه العالية، وتشريعاته القويمة هي التي تطبع المجتمع بطابعه الأصيل، وتبني علاقـات الإنسان ــ أفرادا وجماعات ــ على أسس متينة من أحكام الإسلام وقيمه الرائعـة. وهذه الأفكار والآراء البناءه لا يمكن انتشارها في المجتمعات الأوروبيـة إلاّ عـن طريق آراء وسياسة المرجعية الدينية الرشيدة والمؤسسات الإسـلامية المتطـورة الفاعلة.

إن دور الإسلام في المعركة الحضارية يشكل نقطة مركزية في مسيرة الإنسـانية وحين يلحظ التعصب الغربي مرونة الإسلام، وأهمية قيمـه فـي تربيـة الإنسـان وصياغته الأخلاقية العامة يتفجر التحرك المضاد نحو الجالية الإسلامية، والمحاولة الجادة في وضع العقبات، والمشاكل للحذر منهم والتصدي لهم.

وهنا أيضا يبرز دور المراكز الإسلامية في أوروبا للقيام بدور فاعل لكبح جماح هذه العاصفة بما ينسجم وطبيعة الدولة، وأسلوب التحاور.

وكثيرا ما كان مفهوم الغرب في العقلية الإسلامية مرتبطا بالتاريخ أكثر من الجغرافيا، وبالماضي البعيد والقريب أكثر من اللحظة والمستقبل، وبالتكتيك أكثر من الاستراتيجيا، وظل هذا التشخيص بين مد وجزر وله بعض مبرراته في الإطار الاستعماري والاستعبادي والاستغلالي الذي حباه، والحروب والمناوشات المتبادلة طوال حقبات طويلة من الزمن، حتى ولّد أخيرا ما اصطلح عليه بالصراع بين الحضارات، وهو نهاية مطاف غير سعيدة تنبئ عن عمق الأزمة بين كل الأطراف

إذن فالعلاقة بين الشرق والغرب أو بين الإسلام والمسيحية علاقة مشحونة بالعديد من الأفكار المعادية لكل منهما ، وأن التفاهم بين الحضارات مجرد شعارات لا ترتبط بالواقع المعاش، وأن الحل يكمن فقط في احترام كل منهما للأخر، ومحاولة البعد عن الصورة السلبية التي عادة ما يستند الغرب إليها في أزماته ومشكلاته باعتبار أن الإسلام هو السبب فيما يعانيه الغرب من قلق وتوتر في حياته المادية والروحية، بينما تمثل الحروب الصليبية على العالم الإسلامي نقطة الخلاف الكبرى بين الشرق والغرب، أو بين الإسلام والمسيحية حتى الآن على الرغم من مضي مئات السنين عليها ؟؟.

هوامش الفصل الأول

١	طه عبد العليم	جغرافية العالم الإسلامي (القاهرة، الأنجلو المصرية ١٩٩١)، ص ٤٠
٢	عبد العزيز الدوري	التكوين التاريخي للأمة العربية (بيروت، مركز الدراسات العربية ١٩٨٦)، ص ٢٧٩: ٢٨٥
٣	على جريشة	حاضر العالم الإسلامي(الكويت، دار المجتمع للنشر ، ١٩٨٦) ص ٣٢
٤	طه عبد العليم	جغرافية العالم الاسلامى، مرجع سابق، ص ٥٠: ٧٥
٥	عدنان عويد	التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب (بيروت، مجلة النهج، عدد يناير٢٠٠٢، ص ١٥٢)
٦	محمد نصر مهنا	انتشار الإسلام في آسيا (الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٨) ص ٣١
٧	________	انتشار الإسلام في آسيا، المرجع سابق ، ص ٢٨
٨	محمد حسنى فرحات	الحضارة الإسلامية (السعودية (الرياض ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٩٨٦) ص ٣١٥
٩	________	الحضارة الإسلامية، المرجع السابق ، ص ٣٠٨
١٠	طه عبد العليم	جغرافية العالم الإسلامي، مرجع سابق ، ص ٥١
١١	عبد الله عبد الدائم	العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الحضارات (بيروت، مجلة المستقبل العربي، يناير ١٩٩٦) ص ٢٠:٢٩
١٢	________	العرب و العالم بين صدام الثقافات، مرجع سابق، ص ٣٢
١٣	حسن حنفي	الإسلام والغرب (مجلة شئون عربية، جامعة الدول العربية، عدد ربيع ٢٠٠٢) ص ١١٠
١٤	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب(القاهرة، مركز الأهرام للتأليف والترجمة، ١٩٩٢) ص ٣٢
١٥	خليل المسلاتى	أمريكا كما رأيتها (الكويت، مكتبة المعلا ١٩٩٨) ص ٣٣٩
١٦	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ص١٨
١٧	طه عبد العليم	جغرافية العالم الاسلامى، مرجع سابق ، ص ١٥
١٨	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ، ص ٢١
١٩	عبد الإله بلقزيز	مفارقات الجدل في إشكالية الدين والسياسة (بيروت، مجلة المستقبل العربي، عدد سبتمبر ١٩٩٧) ص ١٣٤
٢٠	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ص ٢٤
٢١	________	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، المرجع السابق ص ٥٢

٢٣	سعود الخالدى	الحروب الصليبية (مجلة الواحة، العدد الثامن ٢٠٠٢) ص١٢:١٩
٢٤	محمد بحر العلوم	الإسلام والغرب : القاهرة : (مجلة الفكر الجديد ، العدد الخامس ، مارس ١٩٩٣

الفصل الثانى :

فضل الحضارة الإسلامية على العالم الغربي

تمهيد :

لعل التعصب الديني هو الذي حمل الغرب دائما على تشويه منجزات المسلمين والعرب، وطمس فضلهم على الحضارة الأوربية، بيد أن طبيعة العلاقات بين الغرب والإسلام منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر تبين كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملي التاريخ بصورة معينة، أي بصورة مشبوهة، وأبعد ما تكون عن الواقع والحقيقة، وفي هذا الإطار تؤكد الكتابات الدينية والسياسية أيضا على عمق الفجوة الحضارية بين الغرب والشرق في ما يتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة والدور الجوهري والعضوي الذي يلعبه الدين في حياة الفرد والمجتمع في الشرق، ففي الوقت الذي استطاعت فيه المجتمعات الغربية فصل الدين عن الدولة وعلمنة النظرية السياسية وَحماية الدين من تداعيات اللعبة السياسية ومنع تسييسه، فشلت المجتمعات العربية والإسلامية في تحييد الدين عن المسرح السياسي ومنع استغلاله وتسييسه.

والأكثر من ذلك أن معظم المجتمعات العربية تشهد حالياً إحياءاً دينياً ليس فقط في حياة الفرد والمجتمع بل أيضا في الحياة الثقافية والسياسية، ففي نظر معظم المهتمين بشؤون المجتمعات العربية، ثمة اختلاف شاسع وتمايز شديد بين الغرب والشرق الإسلامي المتدين، ومن هنا يكمن جوهر الإشكالية الحضارية بين الثقافتين.

إن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة موجودة ما وجد الإنسان الذي أنعم الله عليه بالعقل والإرادة والبيان، فالإنسان دائماً قادر على تجميع خبراته واحتوائها وتذكرها والاستفادة منها[١] وقبل تناول هذه المرحلة في حياة الشعوب لابد من طرح الثوابت التي تعد من المسلمات وتتمثل في أن أية حضارة لابد أن تتكون من عنصرين أحدهما مادي، والأخر معنوي.

فالعنصر المادي يتضمن الماديات كالزراعة والتجارة والصناعة والطب، والفلك مثلاً وهذا الجانب ليس له وطن، وينتقل من حضارة لأخرى، ومن بلد لأخر بسهوله عن طريق الترجمة واكتساب الخبرات، ولعل الحضارة الأوربية استطاعت أن

تجوب كل بلدان العالم، ولكن مع احتفاظ كل شعب بخصائصه الذاتية في المرحلة الراهنة.، أما العنصر المعنوي، فهو يتمثل في الخصائص التي تميز شعباً عن شعب، وبالتالي حضارة عن حضارة، وهذا الجانب المعنوي يتجسد في القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية وعلى رأسها اللغة والقانون حيث ترتبط الثقافة ارتباطا وثيقا بالاعتقاد، بل أنها تبنى على الأساس العقائدي وتنتج عنه، سواء أكان الأساس دينا أو فلسفة، أو أيديولوجية، ففي الغرب ترتبط الثقافة في علاقة وظيفية بفلسفتهم عن الإنسان، فالفلسفة في رأى الغرب هي فلسفة الإنسان. (٢)

إن الإنسانية كلها عبارة عن مجموعة حضارات تتبادل الصدارة وتتكامل فيها بينها. وبعض الشعوب لديها القدرة على متابعة الحضارة وبعضها الأخر عاجز عن ملاحقه هذا التقدم المادي المذهل.

فقد أوجد الشعب المصري الحضارة الفرعونية القديمة ثم انتقلت إلى الإغريق الذين أضافوا إليها الكثير من الفكر والثقافة، وانتقلت بعد ذلك إلى الرومان فأضافوا أيضا إليها الكثير، ثم العرب المسلمين ثم إلى أوربا في عصر النهضة، ولكل منهم إضافته، وهكذا فالحضارات المختلفة تبادلت الإنجازات والمخترعات والعلوم الحديثة أي الجانب المادي منها والثابت أن النتاج الحضاري لا يولد بين يوم وليلة، بل أن لذلك مراحل وتطورات وثوابت قامت عليها الحضارة الحالية فقد كانت هناك حضارات ست كانت وراء التحرك الحضاري في القديم هي الحضارتان المصرية – السومرية وحضارتا المايا، والأنديز في العالم الجديد، والحضارتان الصينية والمينوية Minoan والأخيرة قامت في كريت، وتعد أصل للحضارتين الإغريقية – والرومانية، ففي الثقافة الهندية مثلا تحكم المجتمع قيم عنصرية متخلفة في عنصريتها، فطبقا لقانون (منو) يتم تقسيم المجتمع لخمس طبقات أعلاها البراهمة وأدناها (جندال) وجاء في التلمود أن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة."(٣)

ويبدو بوضوح أن الفارق بين الحضارة الإسلامية والغربية كبير حيث أن تقدم الغرب ارتبط بتخلف جزء كبير من العالم، فنموه كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وأمريكا، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا[٤] وان شئنا الدقة العالم الإسلامي متخلفاً فالحضارة الإسلامية وبما تملكه من تصورات وقيم وتفاعل ووجود تقبل حوار الحضارات، تتحاور معها بمقابيس ثابتة ، وتجادل بالتي هي أحسن مستهدفه إقرار الحقائق الثابتة في الكون والطبيعة، واستطاعت الحضارة الغربية بعد جولات عديدة ضد المسلمين أن تكون هي الحضارة الغالبة وأن يكون أصحابها هم المسيطرون على بلدان العالم الإسلامي سيطرة متطورة حينا، وغير متطورة حينا أخر.[٥]

فالمجتمعات الإسلامية في العالم الإسلامي قد انبهرت بمعطيات هذه الحضارة الغربية، ثم انقسمت على نفسها إزاء الأخذ عنها إلى ثلاث أقسام:-

الأول: فضل أن يغلق النوافذ والأبواب دون هذه الحضارة الوافدة واعتبر أن كل ما جاء فيها أو جاء عنها شراً فحاربها وناصبها العداء وهو في موقف المغلوب على أمره.

الثاني: كان على النقيض، فلم يفتح النوافذ والأبواب أمام حضارة الغرب وإنما اندفع إلى الحضارة الغربية يعب منها دون نظر أو تميز.

الثالث: لم يعجبه أن تهمل الحضارة الغربية كلها، ولا أن تتجاهل وسائلها في ترفيه العيش، وإشباع رغبات الإنسان ونزواته، ووقف ليقيم مزجاً بين الحضارتين.

والحضارة الغربية حضارة تتميز بالوسائل ويمكن أن نتطلع إليها على مستوى الوسائل ونستطيع أن نجمل هذه الوسائل في ثلاث عناصر هي التقدم العلمي، والمعرفة التكنولوجية، والصناعة، فهي حضارة منهج وتنسيق وتنظيم، ومحاولة استئناس للظواهر الطبيعية والتعامل معها، ومع الظواهر الإنسانية بهدف السيطرة عليها خصوصا مابين الحربين العالميتين الأخيرتين وما بعدها، وأن الغرب قد بلغ

من التفوق المادي حداً كبيراً وضع قيادة العالم في يده إلى حد بعيد، وربط به مصير البشرية وشكل المناخ الذي يسود العالم المتحضر من شرقه إلى غربه [٦] إلا أن الحضارة الغربية فشلت كما هو ثابت بالأدلة والبرهان في توجيه الإنسان أو تحقيق أدنى درجات الأمن والاستقرار، لأنها لم تعتني به مثلما اهتمت بالحيوان والجماد والماديات عموماً، ولم تستطع أن توقف التيار الجارف من الأمراض، وحالات الانتحار للتخلص من الحياة.

وبالتالي نستطيع القول بأن الحضارة الغربية من صنع الناس للناس، وأنها تنكرت لكل دين وانطلقت تشبع في الإنسان حيوانيته على حساب إنسانيته، فكان ما كان من الحيرة والتخبط والضياع، وإن كانت الحضارة الغربية مرتبطة بشكل واضح بالديانة المسيحية إلا أن الحضارة التي كانت سائدة في أوربا قديماً، وما زالت تحتفظ الحضارة الراهنة ببعض منها اعتمدت على محورين أساسيين هما:

الأول: فصل الدين عن الدولة، لأن المسيحية كدين لا دخل لها بتنظيم الأمور الدنيوية على الإطلاق، إعمالاً بقول المسيح " ردوا ما لقيصر لقيصر، وردوا ما لله، لله" ولم يكن لدى الغرب تنظيم في الحكم، ولا حتى تنظيم اقتصادي أو قانوني أو شيء من هذا القبيل، لذلك كان المسيح يردد:" مملكتي ليست هنا، إنما في السماء" إذن فهي دعوة للأخلاق الفاضلة والرباط الذي يربط بين الناس وخالقهم ، أما الأمور الدنيوية فليس لها دخل في فترة ما سمي بالعصور الوسطي في أوربا.

وقبل عصر النهضة تجاوز البابا هذا النطاق، وأقام لنفسه سلطة زمنية يعين بها الولاة والحكام ويمنح صكوك الغفران ويدخل الجنة والنار، وبذلك اعتلى على السلطة الزمنية للحكام على خلاف ما تقول به المسيحية، ثم جاءت الثورة الفرنسية وأعادت الأمور إلى نصابها الصحيح، وفصلت الدين عن الدولة كما تنادى المسيحية بذلك، وهذه الدولة هي ما تسمى بالدولة العلمانية في العصر الحديث.

الثاني: يتمثل في التراث الثقافي والحضاري المأخوذ عن الفلسفة الإغريقية والقانون الروماني، وكذلك ما ورد في الإنجيل من قيم أخلاقية كما أخذ الغرب عن الحضارة

الإسلامية أشياء كثيرة، فالغرب ظل يعيش في ظلام العصور الوسطي غارقاً في التأخر والتخلف يوم أن كان العالم الإسلامي ينعم بالحضارة الإسلامية وعبر الأندلس وصقلية والحروب الصليبية المتتالية على البلدان الإسلامية تم نقل الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

أما الإسلام فقد أتى بأسس جديدة منها الجمع بين الدين والدولة في كيان واحد ولأن الإسلام بطبيعته دين حضارة ودولة، فقد اتخذ لنفسه منهجاً سوياً يوصله إلى ما يريد، فبدأ بإعداد الفرد المسلم وتربيته تربية إسلامية باعتباره الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي، وتقوم الحضارة الإسلامية على أساس من الكتاب والسنة وما اشتملا عليه من قيم ومبادىء وأحكام وعبادات مفروضة تصدر جميعاً عن مركز الدائرة في الإسلام(٧):

كما أن ولاء المسلم وقبل كل شيء هو لعقيدته الدينية التي تضمنها كتاب الله ورسوله (صلى الله علية وسلم)، كما أن تاريخه وأمجاده هو تاريخ الإسلام خلال العصور السابقة، فالإسلام بالنسبة للمسلم عقيدة وعبادة وشريعة وخلق ونظام حياة وثقافة وحضارة وتراث وتمثل اللغة العربية الوعاء لكل هذه المضامين على مدار أربعة عشرة قرناً من الزمان. (٨)

فالقيم في الحضارة الإسلامية تستند إلى أساس متين، حيث الإيمان بالله ومن ثم كانت ثابتة راسخة دائمة لا تعصف بها الأهواء، ولا تهزها الأزمات، ولا تؤثر فيها المغريات ولا يغير في جوهرها تطور المجتمعات وتتابع الدول، ولا مرور الأزمان وتعاقب العصور، ومن أهم هذه القيم التي أقامها الإسلام لتكون أساس الحضارة الإسلامية الآتى:(٩)

العدل: وهو من القيم الأصلية الراسخة في الحضارة الإسلامية، و في تاريخ الأمم والشعوب الإسلامية، شهد بذلك كل من سمع به من سيرة الحكام والقضاة المسلمين، أو اطلع على النصوص القاطعة التي أمرت به أمراً، لا مجال للترخيص أو

الاجتهاد فيه فقال تعالى " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "

وقال أيضا " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون " وقال كذلك " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى" وقد ضرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى في العدل حينما جاء أسامة بن زيد يستشفع في المرأة المخزومية التي سرقت وعزم الرسول على تنفيذ شرع الله فيها بقطع يدها فقال له: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " رواه البخاري ومسلم.

<u>الشورى:</u> والشورى في الإسلام مقدسة لأنها أمر رباني، لا يجوز لحاكم أن يعطلها ليبسط سلطان طغيانه على الناس فقال تعالى "وأمرهم شورى بينهم "وقال أيضا"وشاورهم في الأمر" .

فالحاكم في الدول ذات الدساتير الوضيعة له أن يعطل الدستور والقانون ، ويفرض الأحكام العرفية كما شاء باسم الضرورات، والأمن الداخلي، لذلك كان من سماحة الشورى في الإسلام أن سمح الحكام المسلمين بالرأي الأخر، فقال عمر بن الخطاب للمرأة التي ردت عليه بشأن المهور، أخطأ عمر وأصابت امرأة، قال أيضاً إذ اعترضه أحد المعترضين" لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها "

والشورى في الإسلام تستمد قيمتها من هدى وروح الإسلام الحنيف الذي لم يجعلها شورى الغوغاء كما هو الحال في البرلمانات والمجالس في كل بلاد العالم، وإنما جعلها شورى قاصرة على عليه القوم من ذوى العقول الراجحة والكفاءات العلمية النادرة "

<u>المساواة:</u> وهى القيمة الكبرى في المجتمع الإسلامي، وهى ليست وليدة اجتهاد فردى أو نتاج تفكير فلسفي، وإنما مبدأ أصيل فى التكوين الاسلامى، قال تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم

عند الله أتقاكم "، ومن ثم لا فضل لعربي على أوربي مسلم ولا لأبيض على أسود، الناس كلهم في ميزان الإسلام سواء، وقال الرسول صلى الله علية وسلم " لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى "وقال أيضا" الناس سواسية كأسنان المشط " الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله "

وإذا ما علمنا أن الإسلام قرر هذه القيمة في المجتمع الإسلامي منذ ظهوره وأن الإنسانية التي لم تهتد بهدى الإسلام لا تزال تعانى إلى اليوم من مشكلة الطبقات ومن معضلة الملونين والتفاوت الرهيب بينهم وبين البيض.

تكافؤ الفرص: وقد تضافرت على إنشاء الحضارة الإسلامية كنوز الفكر الإنساني من جميع الأجناس والألوان واللغات وانصبت في حياضها ثمرات قرائحه على مدى العصور والأزمان، فكانت حضارية إنسانية عامة، لا تختص بجنس دون جنس ولا لغة دون لغة، ولولا هذه النظرة الإنسانية الشاملة للمواهب البشرية ما وصلت الحضارة الإسلامية إلى هذا الشأن الرفيع الذي وصلت إليه في السابق.

المحبة والتآخي: الرابطة التي تربط المسلم بأخيه مهما كان حبه ولونه ولغته هي رابطة الإيمان بالله، إنما المؤمنون أخوه، وأخوة الإيمان أوثق روابط النفوس وأمتن عرى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح

وقال الرسول صلى الله علية وسلم: ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكـره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه " وقال: في حديث السبعة الذين يظلهم الله فـي ظله يوم لا ظل إلا ظله " رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه "

وقال: والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحـابوا أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بيـنكم " وقـال " المـؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " رواة مسلم "وقال مثل المؤمنين فـي تـوادهم

وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى لـــه ســـائر الجسـد بالسهر والحمى " رواة مسلم .

ومما يؤكد مرونة الإسلام وعدالته وتآخيه مع الشعوب التي فتحها أنه في عهد عمر بن عبد العزيز اجتاحت جيوش المسلمين أراضي ما وراء النهر (جيحـــون) فـــي بلاد أوزباكستان اليوم، وأراضي التركستان، ثم أن الإسلام لم يتأصـــل فـــي تلـــك الأمصار النائية في قلب العالم الإسلامي، إلا بعد حادثة فريدة لم تكن لتقـــع لـــولا الحرية التي أتاحها الإسلام للناس سواء المسلمين، أم غير المسلمين "

فقد خرج أهل سمرقند من أراضي التركستان ووفدوا إلى أمير المؤمنين عمر بـــن عبد العزيز فرفعوا إليه مظلمتهم بأن قتيبة بن مسلم – قائد جيوش المسلمين – دخل مدينتهم واستولى عليها على غدر، فكتب عمر إلى قتيبة بطالبة بأن ينصب لهـــؤلاء قاضيا ينظر في شكواهم، فنصب قتيبة الصحابي جميع بن عامر فحكـــم بخـــروج المسلمين من المدينة وبالفعل تحركت الجيوش المسلمة وخرجـــت مـــن ســـمرقند، وتعجب أهل المدينة من أمر هذا الدين، وأعلنوا الدخول في الإسلام. إحساسا بـــأن هذا الدين والعدل والرحمة والإنصاف الذي يحمله لم يعهدوها فـــي أي عقيـــدة أو مذهب اعتنقوه فيما سبق إيمانهم بالإسلام. (١٠)

أما عندما طرد المسلمون من صقلية ٤٦٤هـــ على أيدي فرسان النورمان النصارى، أمعن هؤلاء الفرسان في العدوان على أهلها وقتلوا كل من وجدوه من المسلمين، ولم يلبث أهالي الجزيرة أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان لهم أشد عبئاً عليهم من عداوة العرب، حتى اضطر البابا ليون التاسع إلى حرب النورمان، فأسره وصاروا يدخلون الأديرة ويذبحون رهبانها ويسلبون ما فيها من الأموال والغلال. (١١)

ولعل التضارب وعدم وضوح الرؤية كانت وراء التعقيد الذي أصاب مفهوم الديانة النصرانية مثلها في هذا الشأن مثل اليهودية، حيث كانت هناك صعوبة في مخاطبة العقل والمنطق وانعدام الأساس المتين الذي يقوم عليه الدين، فالنصراني حتى يكون

مؤمناً حقاً أو متديناً عليه أن يؤمن بعقيدة التثليث الأب والابن والــروح القــدس[١٢] وهو اعتقاد يعترف الكثيرين من المفكرين حتى في الغرب بأنه محير وصعب الفهم ولا يمكن إثباته أو تحقيقه ، فقط على الفرد أن يؤمن به، فالخالق قد يكون أباً، وقــد يكون ابنا أيضاً وقد يكون روح القدس تارة ثالثة.

فالمسيحية في حقيقتها لفظ أطلقة اليهود على أتباع عيسى من مريم واعتبروه الماسيا المكتوب عندهم في التوراة والمعنى الأغريقى لكلمة الماسيا "كريست أو كريستوس" وهى كلمة مبهمة جاءت بعد وفاة المسيح علية السلام.

وبالتالي فقد خلعت أوربا روح الحضارة والمدنية وخلفتها وراء ظهرها وسارت على نهجها كذلك دول العالم الجديد، فى الوقت ذاته لم تمنع القيم الدينية أوربا من ذبح سبعين ألفاً من المسلمين في بيت المقدس في شهر شعبان (٤٩٢هـ -١٠٩٩) وكتبوا إلى البابا يهنئونه بقولهم.[١٣]

" ثق أنه في إيوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخــوض فــي بحــر مــن دمــاء الشرقيين"، كما لم تحول روح الحضارة كذلك بين أسبانيا وبين قتل وتشريد أكثــر من ثلاثة ملايين من المسلمين بعد نكبة الأندلس، وهذا تقدير الأوربيــين أنفســهم، ويمكن القول بأن عدد القتلى والمتشردين أضعاف ذلك بكثير وبأمر رئيس الأساقفة الأسباني آنذاك "اكزيمنيس" أحرق ثمانون ألف مخطوط عربي واســلامى، وبهــذه الصورة كان يتعامل الغرب مع حضارة المسلمين، في حين تشمل عدالة الإســلام غير المسلمين ما داموا سالمين فاختلاف الأديان يحكم فيه الخالق ســبحانه، ولــيس مبرراً للتظالم والعدوان، فقال تعالى :" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الــدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " .

والثابت أن الصراع بين الإسلام والغرب القائم في أكثر من مكــان بعــد أحــداث الحادي عشر من سبتمبر لن يتوقف ما دام الفكر والعقيدة قائمان, أو بعبارة أخــرى صراعا ثقافيا حضاريا، فالصراع في أسيا على سبيل المثال هــو صــراع فكــري سياسي حضاري حيث أن التبشير الصليبي تحركه العقيدة في هذه البقعة من العــالم

وهو في نفس الوقت يمهد للسياسة التي هي الاستيلاء على مقدرات الشعوب المسلمة – عقيدة – وشعباً – ونظاماً – ومن ثم بسط النفوذ الاستعماري عليها.

وقديماً كانت العقيدة هي المحرك الأول للحروب الصليبية مستهدفة السطو على البلدان الإسلامية – وبسط النفوذ السياسي عليها ومتسمة بسمات الدين ومتطلقه من البابوية في روما، كما أن الرئيس الأمريكى "جورج دبليو بوش" وإعلانه انه سوف يخوض حربا صليبيه على العالم الإسلامي ثم الرجوع عن مقولته بعد حاله الاستياء التي سادت كافه البلدان الإسلامية والعربية وشعور الأقليات المسلمة فى الغرب بنوع من القلق، يؤكد البعض من المفكرين أنها لم تكن فى حقيقتها ذله لسان وإنما كشفت عما يحمله الرئيس الأمريكي من حقد دفين تجاه الإسلام، والرغبة في التخلص من بعض الأنظمة الإسلامية وخاصة في إيران – والسودان – والسعودية والعراق، وتحجيم الدور الذي من المفترض أن يلعبه الرئيس الفلسطيني محمود عباس أبو مازن في المرحلة القادمة بعد تصبعيده ليكون هو المفاوض الوحيد مع الاداره الأمريكية والقيادة الإسرائيلية في مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم أزمة استقالته وتعيين أحمد قريع أبو علاء خلفاً له، وفوز منظمة حماس فى الانتخابات التشريعية وتكليفها من قبل الشعب الفلسطيني بتشكيل الحكومة ثم اسقاطها، والسعي الإسرائيلي نحو تصفية الزعيم الروحي لحركة حماس الشيخ أحمد ياسين ونجاحهم فى ذلك، وإعلان الاتحاد الأوربي عن موقفه من أن منظمة حماس والجهاد الإسلامي من المنظمات الإرهابية والمتطرفة في منطقة الشرق الأوسط، وأنهما السبب المباشر في المماطلة في تنفيذ خارطة الطريق ، وإصرار رئيس الوزراء الاسرائيلى على استبعاد منظمة حماس من المفاوضات من ناحية ، والمطالبة بوقف الدعم الدولي للشعب الفلسطيني طالما أن حماس هى التى تتولى رئاسة الحكومة من ناحية أخرى.

لذلك استغلت إسرائيل ما حدث في الولايات المتحدة من تخريب وتدمير وراحت تروج لفكره أن مرتكبي الحادث ينتمون إلى دول عربيه مسلمه وحاولت الزج بالمقاومة الفلسطينية وحزب الله اللبناني ضمن قائمه الجهات التي رتبت لهذه

الاعتداءات في الوقت الذي أعلنت فيه الإدارة الأمريكية في أعقاب الأزمة أنها لا تمانع من وجود دوله فلسطينية مستقلة ضمن حدود آمنه ومعترف بها وكان ذلك في أعقاب تصريحه عن الحرب الصليبية التي يفكر في شنها ضد العالم الاسلامي.

ومن هنا يمكن القول أن الحضارة الغربية وإن كانت خليفتها مسيحية أساسا إلا أنها نتاج اجتهادات بشريه، وبالتالي فان الإشارة تصريحاً أو ضمنياً للصراع الحضاري ليس في محلها البتة, والحال أن المسلمين يتحولون يوما بعد أخر إلى جـزء مـن المجتمعات الغربية ويشاركون بقيه مكونـات هـذه المجتمعـات أمالهـا وآلامهـا ويشتركون معهم في المصير نفسه، ويساهمون بسواعدهم وفكرهم فـي النهـوض بهذه المجتمعات وخدمتها.

ولا شك أن الخيار البديل لصدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية مع بعضها البعض، بما يعود على الإنسان والبشرية بالرخاء، فالتفاعل عمليه صراعية ولكنها متجه إلى البناء والاستجابة الحضارية لتحديات الراهن, عكس نظرية صدام الحضارات التي هي مقوله صراعية تدفع الغـرب بإمكانياتـة العلميـة والماديـة لممارسه الهيمنة والسيطرة ونفى الأخر والاستيلاء على مقدراته وثرواته وان أدى ذلك إلى إعلان الحرب أيا كان دافعها ديني-أم سياسي – أم اقتصادي على الأخر.

وبالطبع فان أشرس حروب الابادة هي التي تتعرض لها الأقليات الإسلامية في عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وهي تلك التي تشن باسـم المسـيح عليـه السلام، وهي في الواقع امتداد لحروب صليبيه تركت بصـماتها علـى الأنظمـة الحديثة وليس من العجيب أن يشن النظام الشيوعي حروب الابادة علـى الأقليـات المسلمة في الأراضي الواقعة تحت نفوذه كما كان في الماضي وكما يحدث الآن في الصين، فقد ظهرت هذه السياسة بوضوح منذ عام ١٩١٧ م، وقـد كشـفت عـن وجهها في تخليها عن الدين وإعلان الحروب على الإنسان حتى أضبحت الشيوعية والإنسانية يسيران في طريقان متوازيان.

وقد أدى تهميش الدور الإسلامي على الساحة الدولية (منظمات، هيئات، شعوب، أقليات) بعد حالة التمزق التي أصابت العالم العربي والإسلامي على حد سواء في أعقاب حرب الخليج الثانية وانهيار الاتحاد السوفيتي ثم أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، إذ يعيش المسلمون اليوم محنة حقيقية وخصوصاً مجتمع الأقليات منهم، ليس في منطقة البلقان وحدها بل في معظم بلدان العالم تقريباً حيث تعامل العالم الإسلامي مع النظام العالمي الجديد بوجوم شديد، كما تعامل معه بعض الرؤساء والحكام العرب والمسلمين بروح النظام الذي سبقه، أو روح الحرب الباردة والاستقطاب الدولي واللعب على الحبال بين المعسكرين، فكانت هزيمة أقوى بلد عربي عسكرياً وتكنولوجياً في حينه وهو العراق مع مطلع حقبة التسعينيات من القرن العشرين ثم احتلاله من قبل القوات الأمريكية في أبريل ٢٠٠٣.

كما أصبح هاجس أوربا كلها يتمثل في كيفية ضرب وحصار العالم الإسلامي حتى لا يتمكن من امتلاك السلاح النووي أو أسلحة الدمار الشامل، الذي إن تحقق له ذلك – من دولة مثل كازاخستان المسلمة– لأمكن أن يحدث به توازناً عالمياً في ميزان القوى، وبالتالي كان فرض حظر امتلاكه على كل من (العراق، إيران، سوريا، ليبيا، السودان، مصر) في الوقت الذي تمتلك فيه إسرائيل السلاح النووي وتهدد به من لا يرغب في التفاوض معها، وهى الأقل حجماً من حيث المساحة، والأقل سكاناً، هذا فضلاً عن اغتصابها للأراضي العربية يقابله عدم اهتمام القادة العرب والمسلمين بهذه النوعية من الأسلحة منذ الخمسينيات وحتى الستينيات، وبدأت الشعوب العربية والإسلامية تسلح نفسها بالسلاح والعتاد الحربي المتطور مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين.

وفي الوقت الذي كان فيه " شيمون بيريز" رئيس وزراء إسرائيل الأسبق يقوم برحلات متواصلة بين تل أبيب وباريس لإنشاء مفاعل " ديمونة " النووي في صحراء النقب، كان جمال عبد الناصر زعيم أقوى دولة عربية وإسلامية آنذاك وهى "مصر" يقوم بتصفية عناصر منشقة على حكمه من جماعة الإخوان المسلمين

والشيوعيين، وتجاهل الصراع الدولي من حوله حتى التهديدات الإسرائيلية والتي ترتبط معه بحدود مشتركة بين البلدين، واكتفى ببعض الشعارات الحماسية وبقدراته العسكرية والتدميرية فتم هزيمته في ١٩٦٧ في لحظات معدودة دون أن يستوعب ما حدث، وخرج على الشعب بقرار التنحي عن السلطة وتحمله أعباء الهزيمة، الأمر الذي رفضه الشعب وطالبه بالبقاء في السلطة فعاد إلى النغمة القديمة مرة أخرى وأنة سيمحو إسرائيل من الوجود إلى أن جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ واسترد الشعب العربي كرامته المسلوبة وعودة معظم أراضية.(١٤)

إذن فالغرب يسعى جاهداً للقضاء على كل مظهر من مظاهر الإسلام على المستويين (أغلبيات – وأقليات إسلامية)، بل أن مجرد طرح الإسلام كمصطلح وكدين من شأنه أن يولد الكراهية من جانب مفكري وسياسي الغرب لكل من ينتمون إليه.

ومن هنا فإن العالم الإسلامي يواجه ضغوطاً عديدة، وهوية دينية مهددة بالضياع من تأثير عوامل اختراق سياسى واقتصادي وثقافي أوربي يساندها تآكل داخلي وتراجع في القيم والموروث الحضاري في المجتمعات العربية والإسلامية.

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية تقود حملة تهميش الإسلام واستبعاده من أي حلول يمكن أن يطرحه لمشكلة ما، أو قضية من القضايا، عملاً بمبدأ عدم اتخاذ الدين ورقة في الأجندة السياسية.

إلا أنها كانت هي ذاتها أول من قامت باللعب بورقة الدين على الساحة السياسية الدولية، فالولايات المتحدة وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت أن الدين من الممكن أن يحقق لها بعض المكاسب ضد منافسها السابق – الاتحاد السوفيتي- فقامت بإنشاء ما يعرف الآن بمجلس الكنائس العالمي في مطلع الستينيات لمقاومة الفكر الشيوعي المتنامي في شرق وجنوب أسيا وبعض الدول العربية، كما قامت بتمويل إيران فترة حكم (الشاه رضا بهلوى – ومصدق) وإمدادها بالأسلحة المتطورة، كما دعمت الأكراد المسلمين ضد نظام صدام حسين بعد حرب الخليج الثانية، وقامت في أواسط السبعينيات بإرسال قواتها لضرب الماركسية في ظفار،

مما يؤكد براعة الإدارة الأمريكية فى اللعب بورقة الدين عند الحاجة لإيقاف المد الشيوعي في العالم العربي والاسلامى، ودعمت حركة المجاهدين الأفغان وتنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن المتهم بالتفجيرات الأمريكية الأخيرة من تدمير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام مرورا بحادث الخبر بالسعودية إلى أن جاء الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكانت الهجمات الانتحارية على برجي مركز التجارة العالمي ومقر البنتاجون وتفجيرات الرياض والدار البيضاء ومقر الأمم المتحدة في بغداد.

كما قامت الولايات المتحدة أيضاً باللعب بنفس الورقة - عندما عزمت على بيع صفقة الطائرات (الأواكس) إلى المملكة العربية السعودية والتي وافق عليها الكونجرس الأمريكي بأغلبية (٥٢) صوتاً مقابل (٤٨) صوتاً اعترضوا على البيع باعتبار أن السعودية دولة إسلامية، وبذل الرئيس الأسبق ريجان آنذاك جهوداً كبيرة لإقناع الكونجرس بضرورة تدعيم السعودية بالسلاح خوفاً من قيام " الخومينى " بتصدير الثورة الإسلامية الإيرانية للدول المجاورة، وخاصة السعودية وتهديد المصالح الأمريكية في الخليج، كما أثيرت نفس هذه المضامين عند اقتحام صدام حسين الكويت عام ١٩٩٠، حيث أعلن البيت الأبيض الأمريكي أن صدام حسين يمثل الخطر الأكبر على المنطقة العربية كلها، وأن الولايات المتحدة تسعى لوقف نفوذه وأطماعه في دول الخليج تحديدا، والحفاظ على أن يظل الكيان العربي باقيا على الساحة السياسية الدولية في المرحلة القادمة وأنة ينوى احتلال المملكة العربية السعودية أيضاً وأنه يتحتم على الولايات المتحدة تزويد المملكة العربية السعودية بالأسلحة المتطورة للحفاظ على بلد الحرمين وقبله المسلمين، في الوقت الذي أكدت فيه غالبية المصادر السياسية والوثائق التي تم الكشف عنها عن حرب الخليج الثانية أن السعودية لم تكن في دائرة اهتمام صدام حسين ولا أى دولة أخرى كما لم يعلن أن السعودية من أهدافه.

والواضح من هذا كله أن رؤية الكونجرس الأمريكي للإسلام لم تختلف عن رؤية المفكرين الأمريكيين في المطالبة بالقضاء على الظاهرة الإسلامية في كل بلدان

العالم، فالمفكر الغربي (البارون كادادى فو) يقول: "إن علينا أن نعمل نحن الغرب جاهدين على تهميش وتمزيق العالم الإسلامي وتحطيم وحدته الروحية، مستخدمين من أجل ذلك كل ما لدى الغرب من قوة وسلاح".

وبالتالي تظهر حقيقة، أن الغرب ليس لديه أي مانع لأن يحارب نيابة عن المسلمين الأغنياء ضد المسلمين الفقراء، أو أن يعلن أن مهمته في منطقة الخليج ليس النفط أو آبار البترول وإنما الهدف الرئيسي هو الحفاظ على المقدسات الإسلامية في المملكة العربية السعودية والوحدة العربية، كما قد يكون أكثر استعداداً للانغماس في علميات عسكرية في العالم الإسلامي عن ذي قبل ليضمن عدم التفوق الإسلامي والحضاري في أي مجال من مجالات الحياة وخصوصاً المجالات العسكرية.

وهذا ما يفسر بالطبع سرعة تدخله في منطقة الخليج العربي، أكثر من اهتمامه بما يحدث في منطقة المغرب العربي من صراعات واضطرابات وفتن منذ سنوات مثل ما كان يحدث في الجزائر على سبيل المثال.

ومن هنا فإن تهميش العالم الإسلامي لم يكن من قبيل المصادفة، بل كان مفروضا على النظام العالمي الجديد فترة نمو ظاهرة الإسلام السياسي في أماكن عديدة من العالم، ومن هنا فقد أخذت عملية التهميش الجوانب الآتية:

١- القضاء على الدول التي من المنتظر أن تسبب قلقا للولايات المتحدة على المدى البعيد بامتلاكها السلاح النووي وأسلحة الدمار الشامل، فكانت عملية ضرب العراق ١٩٩٠ ثم القضاء على النظام البعثى الحاكم هناك واحتلال العراق في ابزيل ٢٠٠٣، وفرض عقوبات على ليبيا من عام ١٩٨٩ وحتى تصديق مجلس الأمن على رفع العقوبات عنها في سبتمبر ٢٠٠٣ وبعد أن أعلن الرئيس معمر القذافى نية بلادة دفع التعويضات المناسبة لأسر ضحايا الطائرة الأمريكية التي تم تدميرها من قبل اثنين من الليبيين فوق منطقة لوكيربى في اسكتلندا، وكذلك مقاطعة إيران وتوتر العلاقات مع سوريا والسودان واللعب بورقة الأقباط في مصر والسودان وورقة الأكراد في العراق وتركيا وسوريا..).

٢- بيع الأسلحة الأمريكية التي لم يطرأ عليها تحديث للعرب والدول الإسلامية مقابل الحصول على البترول الخليجي وبالتالي يصدق الزعم القائل بأن حرب الخليج الثانية كانت من صنع المخابرات المركزية الأمريكية، وانغمس فيها العرب ودفعوا فواتيرها من اقتصادهم المتدهور عاما بعد أخر.

٣- منع ظهور أي قوة إسلامية على المدى البعيد، وتقليم أظافر السودان وأفغانستان وإيران، والتركيز على الإسلام ووصفه بدلالات تحمل معاني الإساءة والعنف والإرهاب والأصولية وسفك الدماء والإسلام السياسي والتخريب، والسعي نحو البحث عن إسلام معدل يتفق وروح الألفية الثالثة.

٤- السيطرة على جميع المناطق الاستراتيجية في العالم الإسلامي بما فيها البحار والمحيطات والمضايق، والسيطرة على أنظمة الدول المتحكمة في هذه المنافذ.

٥- تهميش دور منظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية وعدم تمكينهما من المشاركة في أي طرح دولي حتى في القضايا المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط وكذلك بأحوال الأقليات الإسلامية في البلقان أو القفقاس أو حتى في كشمير أو مسلمي الفلبين.

ومن هنا يمكن القول أن الفكر الإسلامي ليس عاجزاً بذاته عن المواجهة، والعيب ليس في قوة الغرب الذي ما يزال يسعى جاهدا لتطويق العالم الإسلامي بشتى الطرق والوسائل، ولكن المسؤولية ملقاة على المسلمين أنفسهم في التصدي لهذا المدّ الجارف، فإنه ولاشك في أن فتح المدارس وبناء المساجد تؤدي دوراً; ولكن الدور المنشود هو توظيف هذه المنشآت في خدمة الدين الإسلامي من خلال وضع خطة سليمة ومنهج بنّاء ودعاة يحملون فكراً إسلاميا أصيلاً ويتقنون توظيف هذا الفكر الأصيل في كل المجالات وفي مختلف التخصصات.

فاليهود يسيطرون على أكثر من ألف صحيفة في أوربا وأمريكا، بما في ذلك امتلاكهم المباشر لوكالات الأنباء العالمية وشبكات التليفزيون الشهيرة التي تتمتع بدرجة عالية من الانتشار والتأثير منها وكالات رويتر، هافاس، اليونايتد برس،

الاسوشتيدبرس حيث تعد من أقوى الوكالات التي يمتكلها اليهود، أما الصحف التي يمتلكونها في الولايات المتحدة الأمريكية فقط فأبرزها: الواشنطن بوست، النيويورك تايمز، الديلى نيوز، صن تايم، نيويورك بوست، ستار ليدجر، شيكاغو صن تايمز. وفى بريطانيا التايمز، الصنداى تايمز، صن، نيوز أوف ذى ورلد، سيتى مجازين، الايفنج ستاندرد أما في فرنسا اللوفيجارو، لوكاتييان، فرانس سوار.(١٥)

كما تتنوع الصحف والمجلات التي يصدرها اليهود في أوربا وأمريكا وتتنوع بالتالي أساليبهم في السيطرة على الإعلام الدولي والتي منها.(١٦)

١-الملكية المباشرة لوسائل الإعلام المختلفة، والسيطرة الإعلامية من وجهة نظر اليهود هي أن يضعوا أيديهم على منافذ صنع القرار داخل الدولة وداخل المنظومة الإعلامية. فالمال عنذهم مسخر لتحقيق أهداف معينة وهى خدمة ما يؤمنون به ويعتقدونه من فكر معادى للعرب والإسلام في المنطقة العربية وخارجها .

٢ - استقطاب الإعلاميين من غير اليهود لمناصرة قضايا اليهود ضد البلدان الإسلامية أو أولئك الذين ينادون بتطوير الخطاب الديني والسعي نحو إيجاد بديل أخر للإسلام.

٣ - استخدام فن الإعلان كسلاح في الضغط على بعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية المتعثرة التي لا تخضع لهم.

٤ - الضغط على الصحفيين العاملين في صحفهم لأن يكتبوا ضد العرب والمسلمين ويشوهوا صورة الإسلام في نظر الأقليات الإسلامية في أوربا وأمريكا، تمكنوا من أن ينفذوا مخططاتهم بكل دقة، واستهدفوا مستويات ثلاثة هي:

- مستوى الأمة استطاعوا من خلال حملاتهم الإعلامية المنظمة أن يشوهوا الصورة الذهنية للإسلام عند الغرب، وأن يصنعوا الفجوة الكبيرة بين الأمة وإسلامها ببث مفاهيم غربية تختلف شكلاً ومضموناً مع قيمهم الدينية.
- وعلى مستوى القادة والحكام استطاعوا أيضاً أن يتقربوا منهم، ويسيطروا على أفكارهم وفى صنع قراراتهم الأمر الذي أدى إلى اتساع

الهوة بين الشعوب من ناحية، وما ينادى به الحكام والزعماء من حريات وديمقراطيات من ناحية أخرى.

- وعلى مستوى المفكرين فقد تقطع أمرهم بينهم شيعاً، فقاسمتهم الفلسفات وتنازعوا أمرهم بينهم، وكل منهم يطلب مذهباً وفكراً يخالف ما عليه قومه ، ويضيف به صراعاً جديداً بجانب صراعات الأمة المتعددة.

إن الوضع الذي عليه الإعلام العربي والإسلامي مطالب بضرورة استثمار المال العربي في مجال الإعلام الخارجي، والمساهمة في امتلاك بعض وسائل الإعلام الكبرى من صحف ومحطات إذاعية وتليفزيونية على المستوى الدولي وبلغات عديدة؛ كما يجب الاهتمام إعلامياً بقضايا الأقليات الإسلامية في العالم، والدفاع عنهم مع مراعاة تدريب العاملين في وسائل الإعلام، وقياس مدى قدرتهم على الانتقاء للمعلومات من بين الكم الضخم من الأخبار والتقارير الواردة عبر وكالات الأنباء ووسائل الإعلام المختلفة وانتقاء ما يناسب الصحيفة والأيديولوجية التي تعتنقها الدولة. وبما يخدم قضايا الأقليات الإسلامية خاصة والمسلمين عامة.

إن القوى المعادية للإسلام كالصليبية والماركسية والصهيونية أو المناهضة له كالماسونية والقاديانية والعلمانية أحدهما تستهدف تقويض البناء والصرح الإسلامي، والأخرى تستهدف تجميد المضمون الإسلامي لتسود أفكارها، وبالتالي لم يكن مستغربا أن ينادى العديد من المفكرين في الغرب بإيجاد إسلام بديل عن الإسلام الحالي يكون خالي من العنف والتطرف والإرهاب، وكذلك مناداة المفكرين العرب – المسلمين– بتطوير الخطاب الديني وإعادة النظر في بعض الثوابت التي تضمها الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم.

ومن هنا يمكن القول أن العلاقة بين الدين والدولة في العالم الإسلامي ما تزال تتصدر اهتمام الباحثين والمراقبين لشؤون العالم العربي والإسلامي على حد سواء، حيث أصبح من غير الممكن نظريا، على الأقل فصلهما عن بعضهما البعض دون خسائر وتداعيات تهدد ديمومتهما معا.

ومع تزايد حدة المواجهة الدموية بين حركات الإسلام السياسي، التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الحكم من جهة، والمنظومة الحاكمة التي ترفض

المشاركة الشعبية في العملية السياسية، من جهة أخرى، في العقدين الأخيرين، اعتبر العديد من المحللين أن الترابط بين الدين والدولة والمجتمع في العالم الإسلامي يشكل إحدى الخصائص الحضارية والثقافية التي تميزه عن نظيره الغربي وهذا ما أظهرته بوضوح أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

فبعد أحداث نيويورك وواشنطن تحول مئات المسلمين إلى المسيحية وآخرون غيروا أسماءهم، حيث قالت مصادر مطلعة في أمريكا وبريطانيا أن حالة من الذعر هزت المجتمع العربي الإسلامي في أمريكا وأوروبا، أدت إلى متغيرات كثيرة بين قطاعات كبيرة منه، أبرز هذه الظواهر مسارعة عديد من حملة الجنسيتين البريطانية والأمريكية إلى دوائر الهجرة والجوازات لتغيير أسمائهم العربية والإسلامية إلى أسماء أجنبية، أما أن تكون مشابهة لأسمائهم الأولى مثل سمير تحول إلى (سام) وخالد إلى (كال) وحاتم إلى (تيم). وهذا الأمر كان موجوداً في السابق لتسهيل تداول الاسم، دون أن يصل إلى حد البطاقة المدنية، وهناك آخرون تحولوا إلى أسماء مثل (جورج) و(ادوارد) بدلاً من عبد الله وعلي ومحمد.

وعن مستقبل الإسلام وحضارته فى الغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ يتناقض موقف الباحثين والدعاة الإسلاميين، فبينما يرى جمهور منهم أن الإسلام سيشرق على العالم كله من جديد، من أوروبا وأن الغرب سيعود إلى الدين الإسلامي حتماً، يرى آخرون أن الغرب عاش وثنياً صليبياً، وأنه سيظل كذلك، وأن رسالة الإسلام لا يمكن أن تنطلق من هذا المستنقع الآسن.

ومن هذا الشأن يقول إسماعيل الفاروقي أستاذ الإسلاميات وتاريخ الأديان- بجامعة فيلادلفيا في الولايات المتحدة أن أمريكا ستتحول يوماً إلى الإسلام حيث يقول: "حقاً إن أعظم فتح في التاريخ لهو الفتح الذي يدخل أمريكا في الإسلام، ولكن هل فتح هذا ممكن؟ هل يجوز لنا أن نأمل أن أمريكا، بكل ما لها من سلطة وديناميكية، بكل ما فيها من خيرات كانت بالفعل أم بالقوة، ستدخل يوماً ما في الإسلام، وتصبح ركناً من أركان دار الإسلام؟ هل يجوز لنا أن نتطلع إلى اليوم الذي يدخل فيه الشعب الأمريكي بمئات ملايينه في الإسلام فتصبح أمريكا دولة إسلامية وأرضاً

تعلو فيها كلمة الله وشعباً يجاهد في سبيل الله، ويسير في خطى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم؟ نعم بالتأكيد هذه الرؤيا ليست فقط مرغوبة بـل هـي ممكنـة بـل ضرورية"

ولكن رجلاً آخر من العاملين في الحقل الإسلامي في أمريكا، والذي نـال شـهادة الدكتوراه في التربية من جامعاتها عام ١٩٨٣م، ويعمل في الأكاديمية السعودية في واشنطن وهو كمال كامل نمر يقول: "أما أولئك الذين يطمحون أن تقام دولة الخلافة الإسلامية في أمريكا، وأن تنطلق راية الجهاد من هناك، فقد ضلوا الطريق، ذلك أنه بالرغم من الحرية التي يعتقد المسلمون أنهم يتمتعون بها في أمريكا لأنهم حرمـوا منها في كافة ديار الإسلام، فإن انطلاق دولة الإسلام من ذلك المستنقع لا يعدو أن يكون مجرد حلم لذيذ" (مجلة البحوث الإسلامية -عدد٢٢- صفحة٢٥٠).

ويقول محمد وجدي الخالد رئيس مركز الأنصار في ألمانيا أن : "إنطلاق الإسـلام من الغرب هو مجرد سراب أو حلم يحلم به بعض الدعاة الذين ليس لديهم معرفـة واسعة بالغرب، حيث يرددون باستمرار عبارة كنت أسمعها في ألمانيا، ثم أصبحت أسمعها في الدول العربية، وهي قولهم بأن الإسلام سينطلق مـن الغـرب.. ومـن جهتي أقول إن الغرب كان معقلاً للنصرانية، وعاد كذلك.. وعقلاؤهم يؤيدون مبدأ التعايش السلمي مع الأديان الأخرى"

إن الأمور التي تحدو بكثير من الدعاة الإسلاميين أن يعتقدوا أن الغرب قد أصـبح قريباً جداً من الإسلام، هي رؤيتهم أن الغرب قد أصبح على شفا الكارثة الأخلاقية والاجتماعية، وأنه قد وصل القاع، ولا بد أن يبحث عن مخرج ولا مخرج لـه إلا بالإسلام، وكذلك رؤيتهم تحول كثير من مفكري الغرب إلى الإسلام، ومحـاولاتهم تقديم الإسلام ليكون بديلاً لنظام الحياة السائد في الغرب، ومن هـؤلاء المفكـرين العظام الذين قاموا بتقديم الإسلام للغرب، د.مراد هوفمـان -سـفير ألمانيـا فـي الرباط- والذي كتب كتابه (الإسلام هو الحل البديل)، وقد أثار هذا الكتاب زوبعـة كبيرة في ألمانيا والغرب، ويقول د.مراد: "إنني أعتقد أن حركـة تجديـد الإسـلام ستأتي في القرن الحادي والعشرين من أوروبا" ومن قبلـه كـان إسـلام روجيـه

جارودي حدثاً عالمياً هز أوروبا إذ رأوا تحول علم كبير من أعلام الماركسية والعلم المادي إلى الإسلام إنقلاباً هائلاً.[١٧]

ومن هنا فإن الخطاب الإنساني ذو التوجه الإسلامي في الغرب يبقى نجاحه رهين حملته وأعضائه، ولا يبقى حبيس النظرية والإنشاء، ولكن يجب أن يتمثل في ممارسة واعية ورشيدة، يدخل الأسواق والمتاجر، ويستأنس داخل البيوت والغرف، ويشعّ عبر سلوكيات حضارية في المدرسة والطريق والنوادي، حتى لا يكون النموذج النظري في واد وممارساتنا في واد آخر.

ولعل من تأويلات الأثر المشهور عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أن الدين سيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء"، يتبين أن مصطلح الغريب يكون من الغرابة، وهو ما سوف يلقاه هذا الخطاب عند غير بني ذويه. والغرابة محطة نفسية وثقافية يليها إحدى المسارين، إما تفهم وقبول وحتى تبني، أو رفض ومواجهة وعدوان، فإما الطوبى أو الخسران، وهذا يبقى رهين منهجيتنا في التعامل، وطريقة عرضنا لمشروعنا، ومدى وعينا بأمسنا ويومنا ومستقبلنا.

فقد كانت هجرة يوسف عليه السلام مثالاً حيا للهجرة السليمة والاستقرار المفيد والمستفيد، من بدوي في الصحراء إلى حافظ لخزائن البلاد في الحضر، أحسن إلى قومه وعمل للصالح العام، فخدم مشروعه الإنساني وأفاد وطنه ومجتمعه ودويه.

فالغرب إن لم نكن جزء من تاريخه وثقافته الماضية ومقوماته السالفة، فنحن الآن قطعة من نسيجه وجزء من يومه وغدة.

لهذا وجب تحديد الغرب الجديد من خلال أنفسنا ودورنا المرتقب داخله، فليس الغرب التاريخ الذي يعنينا ولكن الغرب الوطن الذي نعيش سُحُبه وضيائه.

لهذا فخطاب الانعزال والتقوقع والانسحاب مرفوض ومضر بالبيت وأهله والضيوف، ويدفع إلى الفرقة والنبذ، ويجعل من المسلمين غير مواطنين أو مواطنين من درجة عليا أو سفلى، ليس لهم نفس الحقوق ونفس الواجبات التي تجمعهم بالمواطنين الآخرين. إن حق المواطنة يفرض على الخطاب الإسلامي أن

يكون وطنيا، وأن يمثل لا حقا أحد الخطابات المتعددة والمتنوعة التي تمثل الغرب بأقليته الإسلامية الجديدة.(١٨)

فالغرب الجديد في الخطاب الإسلامي يجب أن يقطع مع خطابات الخنادق والضفاف، لأن المسلمين أصبحوا يمثلون جزء منه، يفرحون لفرحه ويحزنون لحزنه ويهمهم ما يهمه، وحتى إن اختلفت الرؤى والتصورات فهي تبقى اختلافات داخل المجموعة الوطنية الجامعة، ككل نقد وتعدد للأراء يحميه القانون والعرف، في إطار ديمقراطي رشيد.

وتشير الملفات واوراق الادارة الامريكية في حقبة الخمسينات أن جون فوستر دالاس وزير الخارجية في عهد ايزنهاور" كان المبشر الاعلى صوتا بأن الدين هو السلاح الاكثر فعالية ونفاذا في العالم الثالث لأنه الهوية التقليدية لشعوب وأمم ما زالت على وعيها العذري الفطري " وان شقيقه الان دلاس الذى كان يعمل مديراً وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تولى مهمة" اطلاق الافكار، وليس اطلاق النار" ، باعتماد " سلاح الاعتقاد ضد تهديد الالحاد " (الشيوعي) في هذا الاطار " فإن وكالة المخابرات الامريكية تجاسرت على اتخاذ شعارات الاسلام – وهو العقيدة الاكثر انتشاراً في المنطقة – لتكون وسيلتها وذخيرة سلاحها " .

وعلى هذا الأساس اقيم " حلف بغداد " (تركيا والعراق وايران وباكستان) ثم " الحلف المركزي" (الدول ذاتها ناقص العراق الذي خرج بعد ثورة ١٩٥٨) ثم "الحلف الاسلامي " (ايران وباكستان) الذي خرجت منه تركيا ويولى وجهها شطر اوروبا بعد ذلك اصبحت "هذه الاحلاف (مع استحالة الحرب) غارقة الى الأذان في حروب العقائد ، فقد جرى الخلط بين الدعوة الدينية والتجسس الامني بما لذلك في معظم الاحيان من نتائج خطرة .

وبإحكام قبضة أمريكا تدريجياً على المنطقة منذ مطالع الخمسينات ، تكونت جملة اوضاع وازمات وتحديات سياسية واقتصادية واجتماعية وامنية في معظم الدول الاسلامية ، فقد القت هزيمة ١٩٤٨ في فلسطين بثقلها على الجسم العربي الذي شهد انقلابات عسكرية في سوريا ومصر ومن ثم في السودان والعراق واليمن

وليبيا ، كما جرت احداث مشابهة في ايران وتركيا وباكستان ، ناهيك عن انـدلاع الثورة وانتصارها في الجزائر وبعدها بنحو عشرين سنة في ايران .

وكانت الدعوة القومية ، الناصرية والبعثية ، هي التيار الغالب في هذه الاحداث الى ان وقعت هزيمة عام ١٩٦٧ في فلسطين .

كما وقد ثبت من اوراق وملفات الادارة الاميريكية في الخمسينات والستينـات أن أمريكا واجهت التيار القومي العربي بالدعوة الاسلامية مـن خـلال انظمـة سياسيـة وتنظيمات اسلامية واجهـزة مخابرات تخلط بين الدعوة الدينية والتجسس الامني .

بينما وبعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران اتخذت سياسـة الاعتمـاد علـى التيارات والتنظيمات الاسلامية منحىآخر اكثر جدية اذْ انتهزت الادارة الاميركية ، في عهد الرئيس جيمي كارتر وبتوجيه من زبغنيو بريجنسـكي مستشـاره للامـن القومي ، فرصة انغماس موسكو في المستنقع الافغاني لتوظيف الدعوة الوهابيـة والأموال السعودية – وفق تحقيق محمد حسنين هيكل – في استراتيجية جسـورة " لتدمير الاتحاد السوفياتي اطلقت عليها اسم " مشـروع الجهـاد الاسـلامي فـي افغانستان" .

وقد كشف "بريجنسكي" تفاصيل هذا المشروع في حديث صريح اجرته م-، " لانوفيل اوبرفاتور " الفرنسية ،على النحو الآتي :

١. الخطـوة الاولى: قـرار اميركـي بازعـاج السوفيـات في جهورياتهـم الجنوبية (الاسلامية) من قواعد في افغانستان
٢. الخطوة الثانية: تصعيد هذا النشاط وتكثيفه الى درجة يضطر معها السوفيات الى التدخل العسكري .
٣. الخطوة الثالثة:وهي اعلان الجهاد بعدما يقع الدخول السوفياتي المأمول والمطلوب

هوامش الفصل الثاني

١	حسين مؤنس	الحضارة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة ، عدد يناير ١٩٧٨) ص ١٥
٢	محمد فتحي عثمان	الحضارة الإسلامية (السعودية: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مؤتمر الحضارات ،١٩٨٦) ص ٩١
٣	أحمد عبد الجواد	بروتوكولات حكماء صهيون (المنصورة ، مكتبة الايمان) ص ٥٠
٤	محمد على ضناوى	الحضارة الإسلامية (الندوة العالمية للشباب الإسلامى ، مؤتمر الحضارات ١٩٨٦) ص ٥٢٨
٥	على عبد الحليم	الحضارة الإسلامية (الندوة العالمية للشباب الاسلامى، مؤتمر الحضارات ١٩٨٦) ص ٤٤٠
٦	محمد فريد عبد الخالق	الحضارة الإسلامية (الرياض، الندوة العالمية للشباب الاسلامى، مؤتمر الحضارات ١٩٨٦) ص ١٧١
٧	ـــــــ	الحضارة الإسلامية المرجع السابق، ص ١٨٢
٨	محمد حسن فرحات	الحضارة الإسلامية (الرياض، الندوة العالمية للشباب الاسلامى، مؤتمر الحضارات ١٩٨٦) ص ٢٢٩
٩	محمد فتحي عثمان	الحضارة الإسلامية (الندوة العالمية للشباب الاسلامى، مؤتمر الحضارات ١٩٨٦) ص ٥٨: ٦١
١٠	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم (بيروت: دار الريان ١٩٩٢) ص ١٢
١١	محمد خفاجة	الإسلام والحضارة الإنسانية (بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢) ص ١٧٩
١٢	خليل المسلاتى	أمريكا كما رأيتها (الكويت، دار المعلا ، ١٩٩٦) ص ٣٦٣
١٣	محمد خفاجة	الإسلام والحضارة الإنسانية، مرجع سابق، ص ١٦١
١٤	أحمد منصور	أضواء على السياسة الأمريكية (القاهرة : دار القبلتين ١٩٩٥) ، ص١٠٧
١٥	غازي السعدي	الإعلام الإسرائيلى (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧) ص ٢١٧
١٦	جون مارتن	نظم الاعلام المقارنة(القاهرة، الدار الدولية، ١٩٩١) ص٣٨٣
١٧	عبد الرحمن عبد الخالق	مستقبل الإسلام فى الغرب (الكويت : جمعية إحياء التراث الإسلامى ، ١٩٩٤)
١٨	خالد الطراولي	تأملات في الخطاب الإسلامي في الغرب بين الإشكاليات والتجاوز (باريس : مجلة أقلام ، العدد الثامن .

		السنة الثانية، ٢٠٠٣)
١٩	محمد حسنين هيكل	الملفات السرية فى العلاقات الأمريكية مجلة " وجهات نظر " ، القاهرة ، العدد ٣٦، ٢٠٠٢ ، صفحة ٤-١٧

الفصل الثالث:

العالم الإسلامي والحضارة الغربية

حروب و صراعات

تمهيد

يبدو أن الإسلام كتب عليه أن يعيش وسط المحن والأزمات من بداية ظهوره وحتى الآن، ومع أن أزماته مع العالم الغربي ازدادت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن الأزمات والأخطار ليست بجديدة على الإسلام وأهلة، وأن انتصار الإسلام على الأعداء مهما كثر عددهم وخروجه منتصراً من الأزمات والأخطار مهما طالت إنما هو أمر عادى في تاريخه، لأن هذا الدين –الذي ولد في بيئة معادية له وهي مكة – لم يزل منذ ميلاده يغلب الأزمات ويقتحم المحن ويخرج مظفرا، وتلك أخر الأمر هي الحقيقة الأساسية في وجود الإسلام.

وقد تعرض الإسلام لخطرين في وقت واحد كلاهما كان أصعب من الأخر هما الخطر المغولي، والخطر الصليبي ، ولكن الإسلام نجا من ذلك الخطر المحيط والمزدوج ، وخرج بعد عشرات السنين من الكفاح المرير أقوى بنيانا وأوسع رقعة وأقوى نفوذا .

إلا أن الحملات الصليبية كانت الأقوى تأثيرا على العالم الإسلامي، وان كان البعض يرى أنها كانت أولى المشروعات الأوربية للتوسع خارج أراضيه. بينما يرى البعض الأخر أنها كانت حربا دينية على الإسلام الذي أظهر تهديدا للمسيحية بمجرد ظهوره، ويساند هذا الرأي ما تحدث به واضع سياسة الحروب الصليبية وهو البابا " أوربان " الذي كان يحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح ويبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من أيدي المسلمين، وأن يتم تخليص الأرض المقدسة من سيطرتهم، مؤكدا أن هذه الأرض تفيض باللبن والعسل، ووصفها أوربان الثاني بأنها ميراث المسيح، وأعلنت الكنيسة وقت التفكير في غزو العالم الاسلامى أنها ستمنح الغفران– صكوك الغفران من الذنوب – لكل من يشارك في هذه الحملات الصليبية سواء مات وهو في طريقه إلى الأرض المقدسة، أو مات وهو يقاتل أعداء المسيح من المسلمين في بلاد الشرق.

بل أن البابا "أنوسنت الثالث" قالها صراحة في قوله : بأن الرب يريدها، أي الحرب المقدسة على الإسلام، وأعلن هو الأخر إعفاء كل من يذهب للجهاد ضد المسلمين

من الضرائب المفروضة عليه للكنيسة، وأطلقت أوربا على الحملات الصليبية مسمى مشروع العصر.

ومن هنا جاءت كلمات الرئيس الأمريكي بوش عن الحملة الصليبية التي سيقوم بها الولايات المتحدة ضد الدول التي ترعى الإرهاب – في العالم الإسلامي – أحد المؤشرات التي أعادت إلى الأذهان تراث الحروب الصليبية بكل ما تحمله من مآسي وألام تحت زعم أن العالم الإسلامي يضم العديد من الجماعات الأصولية التي تتبنى العنف والإرهاب ضد الدول الأوربية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

ويعتقد البعض من المفكرين والسياسيين في الغرب أن الأصولية والإسلام وجهان لعملة واحدة، وبالتالي يتم اختزال وتشويه صورة الإسلام الذي يصبح مرادفا لمصطلحات مثل العنف والإرهاب والتطرف كما يتسابق الخبراء في البلدان الغربية لتعريف جوهر الإسلام وتحذير قياداتهم من الخطر الجديد القديم القادم من الشرق وتداعياته وتأثيراته على المصالح الغربية الحيوية والسلام العالمي، ومع انهيار المعسكر الشرقي والمنظومة الاشتراكية، حاول بعض دعاة المواجهة في الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة رد الاعتبار إلى أطروحة الصراع التاريخي بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، والتحضير للمواجهة الدموية القادمة.

ولا يمكن فهم أطروحة صراع الحضارات التي تقدم بها أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد" صمويل هانتجتون" عام ١٩٩٣ إلا من خلال هذا السياق والإطار العدائي للإسلام والمسلمين الذي يحذر من أن الصراع القادم لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا أو سياسيا بل صراع حضارات، ويزعم إن العالم الإسلامي سيشكل التحدي الرئيسي والاهم للغرب في العقود المقبلة.

الغريب في هذا الخطاب أن الغرب الأوربي – الأمريكي– المسيحي أقنع العالم غير الإسلامي بأن الإرهاب قرين الدين الإسلامي، وأنة يحض على كراهية الغرب المسيحي ويحرض على قتال غير المسلمين، بل أن الأكثر إثارة من كل ما سبق هو أن يقع علماء المسلمين في هذا الفخ، وأخذوا يتسابقون للدفاع عن الإسلام وتأكيد براءته باعتباره متهما، وأن ابن لادن لا يمثل الإسلام ولا المسلمين في شيء، وأن

على الغرب أن يصدق ما يقوله العلماء المسلمين الرسميين بعيدا عن فكر الجماعات الدينية المتطرفة.

ومن هذه المقدمة يتضح أن الصراع بين الشرق والغرب صــراع ممتــد لقــرون عديدة مضت ولم ينتهي بعد، وتعد الحروب الصليبية مــن أهــم أجــزاء التــاريخ المشترك بين أوربا والعالم الإسلامي – والتي قامت بتوجيه من البابوية في رومــا بغرض استعادة بيت المقدس في الشام، والاســتيلاء علــى مقــدرات الشــعوب الإسلامية في بلدان الشرق، وقد بدأت هذه الحروب في نهاية القرن الحادي عشــر، واستمرت في أعنف حالاتها حتى القرن الــ (١٥) ثم أخذت أشكالا وأنماطا أخرى من الصراع حتى القرن (١٧).[١]

وأدت الحروب الصليبية إلى حدوث توترات في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين منذ القدم وحتى الآن، فضلا عن الاختلال في التوازن السكاني في المنــاطق التــي كانت تتمتع بأغلبية إسلامية، وتحول العديد من المسلمين عن الإسلام إلــى الــدين المسيحي حيث آثروا أن يرتدوا عن الإسلام تفاديا للمذابح التي كانت تعد خصيصا للمسلمين، فاعتنقوا المسيحية خوفا على حياتهم، وان كان أغلبهم ظل على تمســكه بالتراث الإسلامي والحضاري قرون عديدة حيث يمثلون جســد الأمــة الإســلامية الممتد في دول الغرب.

وبدأت فكرة هذه الحملات العسكرية عن طريق البابا (جريجورى السابع) مستغلاً استغاثة الإمبراطورية البيزنطينية بعد موقعة (ملاذكرد) عام ١٠٧١التي هزت أركان المسيحية في العالم، وفيها انتصر السلطان السلجوقى ألب أرسلان على الإمبراطور البيزنطي "رومانوس الرابع" وجاءت هذه المعركة لتفتح الطريق أمام الأتراك داخل أسيا الوسطي والقفقاس التي كانت تُعد من أراضى الدولة البيزنطينية.

وقد تزامن ذلك مع محاولة (الفونسو السادس) ملك ليون وقشتالة استخلاص بعــض الأراضي في أسبانيا من أيدي ملوك الطوائف واستطاع السيطرة على طليطلة عام (١٠٨٥) ومنذ ذلك التاريخ أخذ الصراع في أسبانيا صفة الحرب العامة –الدينية –

المتعصبة، ووضع المقاتلون لأول مرة شارة الصليب على صدورهم وظهورهم ودروعهم تسمى حرب صليبية بالأسبانية cruzada، [٢] وجاء اسمها في اللغات الأوربية،kreuzzug- cruciatae-groisade-crusade- وهى نفس الكلمة التي أعلنها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ وبعد أن أعلن أن التنظيمات الإسلامية في الشرق الوسط وراء الأحداث وأن ذلك يستوجب أن تقوم الولايات المتحدة بحرب صليبية على هذه التنظيمات والدول التي ترعى الإرهاب في العالم، ومن هذه الدول العراق وإيران وسوريا والسودان واليمن والصومال والجماعة الإسلامية في مصر وحزب الله في لبنان ومنظمة حماس والجهاد الاسلامي في القدس.

إن الواقع البشري الذي وردت فيه نصوص القرآن الكريم والسنّة المطهرة المتعلّقة بالقتال تختلف في مجملها مع ما تقوم به الولايات المتحدة الآن، ثم جاءت آراء الفقهاء تعالجه منذ العصر الأول حتى انهيار الخلافة العثمانية في أوائل القرن العشرين حيث يتميّز بما يلي:

– سيطرة الأنظمة الاستبدادية على جميع الشعوب إذ أن هذه الأنظمة كانت تمنع على الناس حرية اختيار الدين الذي يشأون، بل وتلزمهم بمذهب الدولة الرسمي، وتبيح قتل المخالف حتى ولو كان مواطناً، ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على بلاد الروم وفارس في العصور الإسلامية الأولى، بل امتدّ ليشمل الدول الأوروبية حتى هذا القرن.

وإذا كان الإكراه الديني لم يعد موجوداً تجاه المواطنين في نفس الدولة بسبب انتشار الفكرة العلمانية، إلاّ أن الحقد الديني لا يزال يشكّل خلفية أساسية في التفكير الأوروبي والغربي – عند الشعوب أو عند الحكّام – ضد الإسلام والمسلمين بشكل خاص. ويظهر بين الحين والآخر في ممارسات ضد الإسلام والمسلمين تتجاوز حتى مسائل الحريات الشخصية وحقوق الإنسان كمسألة الحجاب والحقوق الدينية للأقليات المسلمة في الغرب.

- سيطرة فكرة الحرب والقتل والعنف بشكل عام وضد الإسلام والمسلمين بشكل خاص، نلاحظ ذلك عند بداية البعثة النبوية في المرحلة المكية، واستمر الأمر على هذا المنوال في المرحلة المدنية، ثم بدأ العدوان على الجزيرة العربية من قبل الروم والفرس، وظهر إصرار الحكّام على منع شعوبهم من الدخول في الإسلام، فكانت الحروب الإسلامية كلها إمّا رداً لعدوان واقع، أو منعاً لعدوان متوقّع، أو رغبة في تخليص الشعوب من الأنظمة المستبدة لتختار ما تريد بحرية كاملة، والواضح الآن أن هذا الجو المسيطر على العالم كله- جو الحرب والتآمر والكيد ومنع الحريات - كان له أثره الكبير على العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى.

بل إن القرآن الكريم ميّز غير المسلمين حتى من جهة قربهم أو بعدهم عن الإسلام كدين، وعن المسلمين كأمّة. قال تعالى:(لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون) وقال تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمّة قائمة، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون).

بيد أن الملاحظ أن بداية الحروب الصليبية على العالم الإسلامي أنذاك قابلها ضعف وتنازع بين المسلمين شعوبا وجماعات وفرق ومذاهب، فقد استفحلت الحروب الدامية داخل دويلات الأتابكة، فضلاً عن تصاعد الأخطار من جانب الحركات الباطنية وأهمها طائفة الحشاشين الذين كانوا سبب الإضطراب والفوضى في الدولة السلجوقية التي أنهت التواجد البيزنطي في أسيا الوسطي.

أما الفاطميون فكانوا يشكلون الفئة الأخرى المتنازعة على حكم العالم العربي والإسلامي، وعلى الرغم من أن الفاطميين كانوا يحكمون مصر، إلا أنهم تركوا أمور الحكم للوزراء المتنافسين والمتصارعين على السلطة، في حين كان الخلفاء الفاطميون في حالة تنافس أخر وتنازع مستمر مع الأتابكة بسبب بلاد الشام التي سيطر الفاطميون على الجزء الجنوبي منها عشية الغزو الصليبي، حيث كانوا قد احتلوا بيت المقدس ١٠٩٨ وقد شمل حالة الضعف في حكم العالم الإسلامي أيضا

الغزنويين في إيران وما وراء النهر، الذين انشغلوا في محاربة الأتراك ومحاولات توسيع رقعة دولته[٣]

والثابت أن الحملات الصليبية استفادت من حالة التشرذم السياسي للحكام المسلمين بما فيهم السلاجقة، سواء أثناء تقدمهم في أسيا الصغرى أو أثناء صراعهم في بلاد الشام، وإذا لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من صراعات وحروب وخلافات، وظن السلاجقة أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذي تعودا عليه، أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا في مناصرة إخوانهم في الدين والعقيدة من السلاجقة الذين هم من السنة، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب السلاجقة المسلمين السنة.

أما التهديد الصليبي تجاه العالم الإسلامي فإنه يرجع في الواقع إلى فترة تاريخية سابقة على نهاية القرن الخامس الهجري حيث سيطر المسلمون على أجزاء من دولة الروم، فضلاً عن حسرة الصليبيين تجاه ما فقدوه في شبه جزيرة أيبيريا حتى استعادوه من المسلمين وأنهوا بذلك صفحة إسلامية مضيئة في حركة التاريخ الإسلامي بسقوط الأندلس عام ١٠٣١.

وقد يرجع العداء بين المسيحيين والمسلمين إلى عهد عمر بن الخطاب وكذلك سلسلة الحروب والغزوات بين المسلمين والروم، والتي استمرت في آسيا الصغرى خلال حكم الدولتين الأموية والعباسية إلى عهد سيف الدولة، ثم تصاعد حملات الكراهية الصليبية تجاه المسلمين والتي اتخذت فيما بعد شكل هجوم حربي استعماري على البلاد الإسلامية وخاصة في الشرق الأدنى من أجل احتلالها وامتلاك خيراتها، وخاصة بعد اتهام المسلمين في القدس بأنهم يعترضون قوافل الحجاج المسيحيين أثناء زيارتها للقدس وقبر المسيح.

وفي عام ١٠٩٥ دعي البابا " أوريان الثاني" خليفة البابا جريجورى السابع وتلميذة النجيب لتجهيز الحملات العسكرية إلى قلب العالم الإسلامي وبلغ عدد هذه الحملات

خمس عشرة حملة منها (٧) حملات قوية وضخمة انتهت بالحملة السابعة على مصر بقيادة الملك لويس التاسع التي أسر في مدينة المنصورة، وتم فك أسره بفدية عام ١٢٥٠.

الحملة الصليبية الأولى:

وتبدأ الحملة الصليبية الأولى تحت قيادة بطرس الناسك ومعه خمسة عشر ألف متوجهاً إلى القسطنطينية عام١٠٩٦ ثم تتابعت الحملات الأخرى إلى إنطاكية وبيت المقدس حتى سقطت القدس في أيديهم (١٠٩٩) وحدثت مذابح ومجازر راح فيها العشرات من النساء والأطفال والشيوخ من سكان المدينة بل وصل عدد القتلى لـــ(٦٠) ألف من أبناء القدس.

وسيطر الصليبيون على المدن الساحلية، فاحتلوا يافا ثم أرسوف وقيسارية، وعكـــا، وقاموا ببناء قلعة الشوبك عام ١١١٥ـــ وتمكنت هذه الحملة مـــن تحقيـــق أهـــدافها باحتلال جزء كبير من الشام وكان من نتائج هذه الحملة أيضا أن ظهرت بوضــــوح حالة الضعف والتفكك والانقسام في الشرق الإسلامي.

ومن هنا تكونت المملكة اللاتينية الصليبية في المشرق العربي وإمارات ثلاث أخرى هي (الرها .أنطاكيا .طرابلس) واستعادة الدولة البيزنطية معظم أسيا الصغرى[٤] إلا أن هذا لم يقلل من المقاومة العنيفة التي لقيتها هذه الجيوش على يد المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي الذي جهز الجيوش، واستطاع إعادة العديد من البلدان التي احتلها الصليبيون في ظل حماس بدء يظهر على الجيوش الإسلامية والرغبة في استعادة أراضيهم وعادت للمسلمين إمارة الرها، وفشلت الجيوش الصليبية في احتلال حلب وحماة، والموصل، إلا أن عماد الدين زنكي لم يستمر في المقاومة طويلاً، وقتل وتولى من بعده ابنه نور الدين زنكي الذي اتخذ حلب عاصمة له، ووقف أمام القوات الصليبية ودفعهم إلى التراجع وأوقف المد الصليبي داخل الأراضي الإسلامية الأمر الذي دفع البابا إلى المطالبة بأن تبدأ الحرب الصليبية الثانية.

وكان من نتائج الحرب الصليبية الأولى بالنسبة لأوربا أن اخترقت القوات الصليبية القسطنطينية وهزموا السلاجقة الأتراك عند "دورويليموم" عام١٠٩٧م واستولوا على أنطا كية ثم دخلت القدس عام ١٠٩٩.

الحملة الصليبية الثانية :

أثار سقوط القدس واحتلال الصليبيين لسواحل الشام وإقامة الإمارات الصليبية في الشرق مخاوف المسلمين جميعا، إلا انة في تلك الأثناء كان الزحف الصليبي للحملة الثانية قد تحرك بقيادة لويس السابع عشر ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا لإنقاذ الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وهب بارونات فرنسا وألمانيا يتبعون ملوكهم، وبدأ الزحف عام ١١٤٧م، حيث وصلوا ساحل صور وعكا والتقوا في بيت المقدس وعزموا على المضي قدماً تجاه دمشق.وقد أثار سقوط القدس والمذابح التي يقوم بها الصليبيون في البلدان التي يحتلونها مشاعر المسلمين، حتى أن الآلاف من أهالي بغداد هاجمت قصر الخليفة العباسي لإعلان الجهاد، وأخيراً تحرك المسلمون واستطاع نور الدين زنكي أن يسيطر على الشام ومصر، ويوحد إماراتها وكان الصليبيون يخشونه، ويعلمون عنة أنة يملك فراسة عسكرية عالية وخاصة بعد أن هاجم أنطاكية عام١١٤٩م وهزم أميرها، واستطاع تحرير الكثير من المدن التي كانت تحت أيديهم.

وفى عام ١١٦٩م أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لمساعدة الخليفة العباسي المعتضد وتمكن أسد الدين شيركوه من إخماد الفتنة وتسلم الوزارة، وبوفاته تسلم صلاح الدين الوزارة وأنهى الخلافة الفاطمية وأخذ نجمه في الصعود بعد أن ضم بلاد الشام ومصر معاً في دولة واحدة امتدت من النيل إلى الفرات وأحاط بالصليبيين لتبدأ مرحلة جديدة من مقاومة الغزو الصليبي لم يكن يتوقعها قادة الحملة الصليبية، حيث أتم صلاح الدين فتح طبرية، وجنين، وحاصر بيروت وعكا وفتحهما ثم حلب، وعندما عزم الفرنجة بالكرك

والشويك من التوجه إلى المدينة لنبش قبر الرسول رجع سريعاً وطردهم من دمشق.(٥)

وكانت هذه الانتصارات مقدمة للتقدم نحو بيت المقدس ليتوج إنجازاته بفتحها، وحاول أن يدخلها سلماً، وحاصرها حتى استسلم الصليبيون وطلبوا الصلح وخرجوا من القدس.

الحملة الصليبية الثالثة:

انطلقت الصيحات من داخل الكنائس في أوربا تطالب بالقضاء على صلاح الدين الأيوبي واسترجاع بيت المقدس، وأمام هذا الضغط من قبل الكنيسة استجاب ملوك أوربا بهدف نجدة الصليبيين في الشام ومعهم (١٠٠) ألف جندي صليبي بقيادة كلاً من ملك ألمانيا الذي غرق في الطريق قبل بدء الحملة، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا إلى جانب عدد كبير من الأمراء من بينهم فريدريك برباروسا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة الألمانية.

وانتهت هذه الحملة بصلح الرملة مع صلاح الدين الذي يقضى بترك شريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا للصليبيين مع السماح لهم بالحج لبيت المقدس الذي ظل في أيدي المسلمين وبذلك تكون معظم المكاسب التي حققها صلاح الدين فيما عدا استعادته لبيت المقدس قد ضاعت بسبب تنافس الأمراء الأيوبيين على تولي الحكم بعد صلاح الدين، وبالتالي فقد كان من مقدمات الحملة الصليبية الرابعة وفاة القائد الإسلامي صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع بمعركة حطين أن يثبت للصليبيين كيف تكون إدارة المعارك والسماحة والعدل والرحمة في غزو البلدان وفي عقد الاتفاقيات والمعاهدات.

الحملة الصليبية الرابعة:

وقد خرجت عن مسارها وهدفها ولم تصل إلى الشرق، وإنما انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤ وإقامة دولة لاتينية فيها لمدة خمسين عاماً.

الحملة الصليبية الخامسة:

وكان هدفها مصر، حيث نزلت القوات الصليبية دمياط في عـــام ١٢١٩، ولكنهـــا فشلت ورحلت عام ١٢٢١، إلا أننا لا نستطيع أن ننفى أنها لم تحقـــق أهـــدافها أو بعض أهدافها، فقد حاصرت الحملة دمياط واستمر الحصار أكثر من سبعة عشـــر شهرا، في الوقت نفسه اشتدت مخاوف السلطان الكامل من سيطرة الحملة الصليبية على دمياط فوافق على التنازل عن بيت المقدس بحدودها القديمة غربي نهر الأردن مقابل جلاء الحملة عن دمياط، إلا أن الكاردينال "بيلاجوس دي" رفض ذلك واستمر في تقدمة نحو القاهرة ، إلا أنة فوجيء بالقرب من المنصورة بمقاومـــة الأهـــالي للحملة وقاموا بفتح السدود على جنود الحملة مما دفع قائد الحملة لأن يأمر قواتـــه بالعودة إلى دمياط ومنها إلى عكا عام ١٢٢١ .

الحملة الصليبية السادسة:

وقد قادها إمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة فريدريك الثاني، حيث أبحـــر لسواحل الشام ولكنه سرعان ما عاد بزعم أنه لم يتحمل دوار البحر، في حـــين أن أسطوله وجنوده كانوا قد وصلوا بالفعل إلى سواحل الشـــام، وقـــد غضـــب البابـــا "هونوريوس الثالث" وأمر بحرمانه من دخول الكنيسة، إلا أنه عاد واضعا إشـــارة الصليب على صدره، وأعلن أنة خارج في حملة صليبية جديدة قصـــد بهـــا بيـــت المقدس ونظراً للصراع الذي كان بين السلطان الكامل الأيوبي وشقيقه الناصر والى دمشق، سارع بالتفاوض مع فر يدريك وتنازل له عن بيت المقدس.(٦)

الغريب أن البابا رفض نتائج هذه الحملة مؤكداً أن فرسان الصليب ذهبوا لبلاد الشام لحرب المسلمين وابادتهم وليس للتفاوض معهم، واتهم البابا فر يدريك بالزندقة

والإلحاد وطالب بمصادرة كل أملاكه في ايطاليا بعد أن حرمه من دخول الكنيسة قبل ذلك، واشتهر في أوروبا بلقب الزنديق الأعظم نظرا لجانب المرونة التي أبداها في مفاوضاته مع المسلمين.

ولم يمض وقت طويل حتى استطاع السلطان الكامل الأيوبي وبمعاونة جيش من الأتراك الخوارزميين إعادة بيت المقدس، وكل البلدان التي سبق وأن تنازل عنها لفر يدريك عام٦٤٧ هـ .

الحملة الصليبية السابعة :

قادها "لويس التاسع" ملك فرنسا والملقب بلويس التقى بهدف استرجاع بيت المقدس والانتقام من المسلمين، ووضع إشارة الصليب على صدره معلنا بداية حملة صليبية جديدة، وأعد جيشه من أفضل الفرسان، ونزل إلى دمياط واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة من الأهالي وجيش الصالح أيوب، وعندما أراد التقدم ناحية المنصورة ومنها إلى القاهرة أمر قواته بالتقدم بعيدا عن فرع النيل حتى لا يلقى نفس مصير "جان بريين" قائد الحملة الخامسة(٧) واستطاع الأهالي من أبناء المنصورة التصدي للحملة الصليبية عند بلدة شرم ساح، وفى تلك الأثناء توفى الملك الصالح أيوب واستدعت زوجته شجرة الدر ابنة توران شاة من العراق، وتولت شجرة الدر مهام المعركة والتي انتهت بهزيمة الحملة الصليبية وتم أسر أكثر من ثلاثين ألفاً من الجيش الفرنسي بما فيهم لويس التاسع الذي تم أسرة في بيت ابن لقمان بالمنصورة إلى أن فك أسرة في مايو ١٢٥٠.

وبعد رحيل لويس التاسع عن مصر نزل إلى عكا وظل بها أربعة سنوات استعد خلالها للقيام بحملة أخيرة لإعادة بيت المقدس للمسيحيين، وقبيل الحملة طلب لويس التاسع من البابا "أينوسنت الرابع" مزيد من الدعم نظرا لقوة الجيش الاسلامى ولم يهتم البابا بطلب لويس التاسع نظرا لحدة الصراع الذي كان دائرا بين البابا وبين الملك "كونراد" ملك الإمبراطورية الرومانية، الأمر الذي دفع لويس لأن يعود بجيشه إلى فرنسا معلنا نهاية الحروب الصليبية على العالم الاسلامى.(٨)

الحملة الصليبية الثامنة :

يبدو أن سلسلة الهزائم التي منى بها لويس التاسع في حملاته السابقة لم تمنعه من التخلي عن حلمة القديم بغزو العالم الاسلامى، وتحرير بيت القدس من أيدي المسلمين، فقام بحملة صليبية جديدة ولكن هذه المرة كانت إلى تونس ١٢٧٠ أيده فيها شقيقة شارل أنجو ملك صقلية، ولقي الجيش الصليبي مقاومة عنيفة من أهالي تونس، وفشل لويس التاسع في إحراز أية انتصارات في تونس، وحاصرها أملا في الاستسلام، إلا أنة مرض بالحمى ومات في تونس وعادت الحملة الصليبية الثامنة وهى تجر أذيال الخيبة ومعها رفاه قائدها.

والملاحظ أن الباباوات في أوربا على الرغم من كل هذا الفشل لم ينقطعوا عن تغذية فكرة العدوان المسلح على بلاد المسلمين، وقد حدثت غارة شديدة على الإسكندرية تحت ستار الصليب عام ١٣٦٥ حتى بعد ظهور العثمانيين كدولة عظمى - بجانب المماليك في مصر والشام - توجهت حملة صليبية هدفها القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، ولكنها هزمت عام ١٣٩٦ـ كما وانهزم الصليبيون مرة أخرى عام ١٤٤٤ـ عند فارنا على سواحل البحر الأسود، ونشط فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس وأقاموا بها دولة إفرنجية، وظلت الفكرة الصليبية موجودة حتى حملات القسيس هنرى الملاح البرتغالي على شواطىء المغرب فيما بعد، أما في الشرق فقد تم تصفية الوجود الصليبي في عهد السلطان الأشرف خليل بعد استيلائه على عكا ١٢٩١ـ أما رودس وقبرص فقد حررها السلطان الأشرف شعبان والسلطان سيف الدولة عام ١٤٢٦ـ وقد ظلت الجزيرتان تابعتين لمصر المملوكية حتى منتصف القرن الخامس عشر وإن كان الوجود الصليبي في الشام قد انتهى في نهاية القرن الـ(١٣)

نتائج الحروب الصليبية على الإسلام :

كانت الحروب الصليبية صدمة لكلا الفريقين المتصارعين، وربما كانت استفادة أوربا منها أكبر من استفادة العالم الإسلامي فقد رفعت الحروب الصليبية والانتصارات الأولى سلطان البابوية في القرن الثالث عشر إلى درجة عالية في عهد (أنوسنت الثالث) حيث رسخت فكرة السلطة المطلقة التي يجب أن تكون للبابوية، وأن من حق البابا اختيار الملوك والأباطرة.

ويمكن القول بأن الحروب الصليبية كانت سبباً مباشراً في الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية في أوربا، حيث لم يمضى قرن من الزمان حتى أطل فجر عصر النهضة الأوربية فقد كانت أوربا أثناء الحروب الصليبية تعانى في الداخل صراعاً بين السلطات الزمنية والبابوية، وقد شغلت كثيراً بصراع الإمبراطور الألماني"فر يدريك باربروسا" والبابا، حتى انتهك الجيش الألماني حرمة كنيسة القديس بطرس، ولاذ البابا اسكندر بالفرار غير أن مقاومة مدينة ميلان القوية وتصديها للجيش الإمبراطوري دفعت الخصوم للتفاوض عام١١١٧، ويصفون فيما بينهم من خلافات باسم المسيح.(٩)

ومن هنا يمكن القول أن تجربة الدولة الدينية المسيحية في أوربا كانت نتجة حصول تناقض بين رجال الأكليروس رأس الهرم في الدولة الدينية المسيحية وبين طبقتين في المجتمع المسيحي الأوربي وهما:

الأولى: هي المذهبيات المسيحية غير الحاكمة .

الثانية: الطبقة النخبوية السياسية والإقطاعية والفكرية.

وقد كان احتكار الاكليروس للسلطة الزمنية والروحية معاً باسم الحق الإلهي المقدس، من شأنه أن يحدث الكثير من المذابح والمجازر التي أنزلتها محاكم التفتيش بحق معارضيها من المذاهب المسيحية غير الحاكمة من جهة، والتحكم في مصالح طبقة الإقطاع والحجر الفكري على رجال العلم والفكر من جهة أخرى.

وكانت من نتائج التناقض في سبيل الوقوف في وجه السلطة الدينية للكنيسة أن توجه الفكر الأوربي إلى إعلاء الفكرة القومية كرباط جامع لمجمل طبقات الشعب السياسية والدينية، فكانت العلمانية أي الفصل بين الديني والسياسي هي المبدأ السائد في أوربا[١٠] وإن كان هذا لا يلغي بالضرورة العامل الديني عند الغرب، الذي يؤمن غالبيته بالمسيحية وبمذاهبها المتعددة، في ظل وجود أقلية مسلمة تعانى الاضطهاد من قبل الأغلبية غير المسلمة، وإن كان هذا لا ينفى أيضاً أن المسيحية تعرضت في بداية ظهورها للاضطهاد والعنف ولكن لم يكن الإسلام طرفاً في هذه المذابح أو مساعدا عليها.

أما المجتمع العربي – الإسلامي فقد عانى هو الآخر من التناحر المذهبي بين مختلف الفرق الإسلامية من جهة ومن الصراع على تسليم مقاليد الخلافة بين الإثنيات القومية من جهة أخرى، ففي الوقت الذي كان فيه مذهب من المذاهب الإسلامية يحصل على غطاء شرعي من قبل سلطة الخليفة، كان هذا الغطاء مشروطاً بما يسبغ على الخليفة من شريعة دينية بسلطته، وبما يستطيع فقهاء المذهب أن يخدموا في سياسة الدولة في النواحي الاقتصادية أو غيرها، وبمجرد أن يتمكن هذا المذهب من أن يوطد أقدامه حتى يدخل في حالة من الصراع مع المذاهب الدينية الإسلامية المنافسة له.

وغالباً ما استخدمت الإثنيات القومية، المذاهب الدينية سلماً لتحقيق مأربها، فالفرس في صراعهم مع الأمويين وفى تقوية مواقعهم داخل السلطة العباسية، وتأسيسهم للدولة الصفوية في إيران، تقربوا من المذهب الشعبي واعتنقوه وهكذا فعلت الدولة العثمانية عندما اعتنقت المذهب السني لمواجهة النظام الصفوى الشيعي. [١١]

إلا أن الثابت تاريخياً أن الدولة العثمانية – باعتبارها إمبراطورية مسلمة – استطاعت أن تنشر الإسلام في أماكن لم يكن الإسلام قد وصل إليها في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، بل وفى عهد بنى أمية والدولة العباسية، وتعامل الغرب مع الأتراك العثمانيين – الأقليات الإسلامية في البلقان وأسيا الوسطي

وشمال القفقاس بصورة لم تحدث من قبل في تاريخ الصراعات الدينية والسياسية، وعادت من جديد فكرة الحروب الصليبية مع إعلان الحرب في البوسنة والهرسك وكوسوفا (١٩٩٠-١٩٩٨) حيث أعلن قادة الصرب صراحة أنهم يقومون بحرب صليبية لتصفية الإسلام من أوربا والقضاء على كل من ينتمي إلى دين النبي محمد صلى الله علية وسلم، وعاد الرئيس الأمريكي بوش ليؤكد هذا المعنى صراحة دون تردد من أن الحرب التي ستقوم بها الولايات المتحدة على أفغانستان هي حرب صليبية

والسؤال المطروح الآن هل يمكن أن تكون طريقة التفكير اليونانية الرومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى، لا تزال هي المسيطرة على الفكر الغربي في العصر الحديث ؟"

إضافة إلى هذا الشعور الغربي الذي ينظر للآخر من أعلى، أوجد على مدى العصور الماضية شعور بالكراهية تجاه الآخر المسلم بصفة خاصة، والنظر إليه من منظور معادى للغرب والحضارة الغربية، كما يشير إلى ذلك الدكتور محمد أسد حيث أعطت تجربة الحروب الصليبية أوروبا وعيها الثقافي وكذلك وحدتها، ليس فقط لأن الحروب الصليبية كانت تعني إراقة الدماء؛ إذ إن كثيرًا من الحروب قد أُثيرت بين الأمم ثم تناستها فيما بعد، وأن كثيرًا من العداوات والأحقاد قد انقلبت إلى صداقات بعد أن ظُن في حينها أنها غير قابلة للزوال.

ولا شك في أن الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية لم يقتصر على أعمال عنف وصراع استُعملت فيه الأسلحة، بل كان – أولا وقبل كل شيء– أذى عقليا نتج عنه تسمم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيرًا خطئا متعمدًا؛ لأنه إذا كان للدعوة لحملة صليبية أن تحتفظ بصحتها؛ فقد كان من الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو للمسيح، وأن يصور دينه بأكلح العبارات، وفي أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوروبي، وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الإسلام إنما كان دينًا يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية.

وهكذا لم يكن من قبيل الاتفاق أن ينظم نشيد رولاند- أحد قادة جيش شارلمان- الذي يصف انتصار المسيحية على المسلمين الوثنيين في فرنسا الجنوبية، ليس في إبان تلك المعارك بل بعدها بثلاثة قرون؛ يعني قبل الحملة الصليبية الأولى بقليل، ليصبح فوراً ضرباً من النشيد الوطني لأوروبا. وقد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربي القديم ضد الإسلام قائمًا، بطريقة لا شعورية، في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة المواطن الغربي.

ولكن يلاحظ أنه وفى ظل هذا الجو المشحون بالمتناقضات، تعرضت الأقليات المسلمة في الولايات المتحدة، وفى أوربا، لحملة اضطهاد واسعة عبر استفزاز مشاعر المسلمين لأكثر من (٨٠٠٠) هجوم عنيف في معظم الولايات الأمريكية استهدفت مصالحهم والأنشطة التجارية التي يقومون بها، والمدارس والمراكز التي يديرونها، واستبعاد معظمهم من الوظائف الحساسة في أمريكا، بما في ذلك الجيش ومجالات البحث العلمي.

كما عاد إلى الأذهان أطروحة المفكر الأمريكي هانتجتون والتي أشار فيها إلى أن حضارة الإسلام هي الحضارة المنافسة للنظام العالمي الجديد بعد انهيار المنظومة الشيوعية، وبالتالي فقد رأت المسيحية الغربية في العالم الإسلامي (أغلبيات - وأقليات) خطراً يهددها قبل النظر إليه كمشكلة حقيقية بزمن طويل؛ حيث أن سقولة هانتجتون قد تزامنت مع الزعم الأوربي بأن عقد التسعينيات من القرن العشرين هي عقد سقوط الأيديولوجيات وتفاقم الصراعات الدينية والعرقية وحركات الإسلام السياسي في البلدان العربية والإسلامية مع أن سقوط الفكرة الشيوعية لا يعنى من وجهة نظر البعض سقوط كل الأفكار السائدة والتي ظهرت في تلك الفترة، ولكن الشئ الذي أفرزته هذه الحقبة ليست سقوط الأيديولوجيات بالمعنى الدارج بدليل أنها ما تزال إلى الآن في الصين وبعض الدول الآسيوية، وإنما حقبة تجديدها وطرحها بصياغات أكثر قدرة على تحقيق طموحات إنسانية عليا.

واستطاعت بالتالي الولايات المتحدة الأمريكية وبعد تدخلاتها في الصراعات السياسية والحروب في أوربا وخاصة في البوسنة والهرسك وكوسوفا وكذلك في

الصومال والسودان والعراق والقرن الأفريقي أن تثبت لأوربا أنها عاجزة عن حل مشكلاتها الداخلية، وأصبحت بالتالي تتصرف من منطلق أن نظامها الرأسمالي هو الذي يجب أن يسود العالم، ومن هنا فرضت سيطرتها وهيمنتها حتى على أصدقائها في حلف الأطلنطي أيضا، لذلك لم يكن مُستغرباً، أن يعلن ساسة أوربا وأمريكا وكبار مفكريهم أن عدوهم الأول بعد الشيوعية، وحلف وارسو هو "الإسلام"، الذي يجب العمل على توجيه ضربة سريعة ومباشرة له، حيث عبرت عن ذلك صراحة مارجريت تاتشر رئيس وزراء بريطانيا الأسبق وجباني ديميلكيس وزير خارجية إيطاليا السابق في قولهم "إن الإسلام هو أكبر تحديات السياسة الغربية في القرن الحادي والعشرين".

ومع أن الشعب الأمريكي ينادى بحقوق الإنسان، ويزعم أنه يكفل حرية التدين لأصحاب المعتقدات والمذاهب الأخرى- لأنه نظام علماني- ولا علاقة له بالنصوص الدينية، فإنه من الملاحظ أنه يعد من أكثر الشعوب نشاطاً في الدعوة لمذهبه الديني حتى في النظم السياسية المختلفة، حيث لم يكن مسموحاً لأصحاب المذهب الكاثوليكي أن يرشحوا أنفسهم في انتخابات الرئاسة الأمريكية، وذلك نظراً للتعصب الديني المسيحي الذي ما يزال موجوداً داخل الولايات المتحدة، وإن لم يكن ظاهراً، إلا أن عدم ظهوره لا يمنع أن يكون موجوداً، ويقوم بدور فعال في السياسة الأمريكية أيضاً تجاه الأقليات المسلمة هناك.

والدليل على ذلك أن أول ما فكر فيه الرئيس الأمريكي "جورج بوش" بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ هو إعلان الحرب الصليبية على أفغانستان ، والدول العربية وغير العربية والإسلامية التي ترعى الإرهاب في العالم، هذا في الوقت الذي لم تستطع فيه المنظمات والجمعيات العربية والإسلامية أن تخلق اتجاهاً مؤثراً على الرأي العام الأمريكي، يمكن أن تتساوى به مع التنظيمات اليهودية الأمريكية الأخرى.

هوامش الفصل الثالث

١	حسين مؤنس	أطلس تاريخ الإسلام (الزهــراء للأعــلام العربــي ١٩٨٦) ص٢٦٣:٢٦٧
٢	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق و الغرب (القاهرة، مركز الأهــرام للتأليف والترجمة ١٩٩٢) ص ٤٣
٣	محمد نصر مهنا	انتشار الإسلام في آسيا (الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث ١٩٩٨) ص ٣٤٧
٤	ــــــــــــ	انتشار الإسلام في آسيا، المرجع السابق، ص ٣٥٠
٥	ــــــــــــ	انتشار الإســــلام في آســيا ، المرجع الســابق ، ص ٣٥٢: ٣٥٨
٦	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ص ٤٥
٧	حسين مؤنس	أطلس تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٤
٨	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشــرق والغرب ، مرجع سابق ص ٤٦
٩	ــــــــــــ	الصراع الكبير بين الشــرق والغرب، مرجع سابق ص ٥٨
١٠	سميرة مختار	جهاد الشيعة (بيروت، دار الجيل ١٩٧٨) ص ٧٥
١١	كارل بروكلمان	تــاريخ الشعوب الإسلاميــة ، ترجمة نبيه فارس (بيــروت، دار العلم للملايين ١٩٨٢) ص ١٩٧، ١٩٨

الفصل الرابع :

اضطهاد المسيحية في الغرب
و تقسيم العالم الإسلامي

تمهيد :

قد يكون في حكم المؤكد أن ما حدث بالنسبة للنصرانية هو أمر مختلف تماماً عما حدث في الإسلام، ذلك أن النصرانية في حقيقتها جاءت دعوة إلى بني إسرائيل خاصة وجاء في القرآن الكريم في وصف عيسي بن مريم قوله " ورسولاً إلى بنى إسرائيل إني قد جئتكم بأية من ربكم "

كما جاء في الآية السادسة من سورة الصف قوله تعالى " وإذ قال عيسي بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد " ومع تأكيد القرآن على أن عيسى بن مريم هو رسول من عند الله إلا أن الأناجيلَ المتداولة ويقرأها ملايين المسيحيين تؤيد هذا، حيث جاء فيها حكاية عن المسيح "إنما بعثت لخراف بنى إسرائيل الضالة "

ومن ثم فلم تظهر النصرانية في التاريخ دينا ودولة ونظام حياة كما ظهر الإسلام، وإنما ظهرت كدين يعنى بالقضايا الروحية والأخلاقية، وقد تركت المجال مفتوحا للقانون الروماني يحكم حياة النصارى المدنية، وبالتالي لم يكن الدين في النصرانية إلا عنصراً واحداً في جملة عناصر تسير حياة النصارى وتوجهها(١).

ومن هنا لم يعرف التاريخ أمة نصرانية واحدة ضمت شعوبا مختلفة وإنما عرف أمماً متعددة يدين أهلها بالنصرانية في جزء من سلوكهم، ففي العصور الوسطي كان للكنيسة سلطان واسع النطاق محدود الرحاب روحياً بحكم وظيفتها وسياسياً بسبب ضعف الأباطرة فسيطرت على التعليم في المدارس، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها الكنيسة من قبل ومن لم يذعن لها تحيق به اللعنة، وكانت الهرطقة أعظم خطيئة تصدر عن الكنيسة عقابها نار جهنم، إلى جانب ما تنزله به السلطات الدينية من عذاب، كما توسعت الكنيسة في فرض سياسة الاضطهاد في عهد القديس (أوغسطين) منذ أوائل القرن الخامس الميلادي وازداد نفوذ الكنيسة، ومضت تعمل جاهدة لقمع أنصار الهرطقة، وتتعقب من يدعون لها، وبعد وفاة هذا القديس رفضت الرقابة على المطبوعات وصودرت

الممتلكات الخاصة والكتب وهدمت المنازل والبيوت، واستخدمت الكنيسة مبدأ الطرد والنفي وأنشأت محاكم التفتيش لمطاردة المارقين والمتطرفين وتعذيبهم إلى حد إحراقهم أحياءاً.

وقد ارتكبت كل هذه المذابح باسم دين أهم ما يميزه دعوته إلى المحبة "أحبوا أعدائكم، باركوا لأعينكم، أحسنوا إلى مبغضكم " يقابل هذا المعنى آية في القرآن الكريم تقول "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ". (٢)

لقد كانت محاكم التفتيش فى مطاردتها للمارقين والخارجين عن الكنيسة وسلطانها، تغريهم بالتوبة، والعدول عن هذا العصيان، فإن لم يستجيبوا وأصروا أصدرت أحكامها بمروقهم، وتتولى السلطات الزمنية تعذيبهم أو إعدامهم أو إحراقهم في محارق تقام في ميادين عامة وفي المدن الكبرى وكان ينظم لها الاحتفالات حتى تشهدها مختلف الطوائف والأجناس والأحبار والملوك أحياناً، وكانت هذه الاحتفالات أشبه بالأعياد يطرب لها الناس ولا يجدون في مناظرها ما يدعوا إلى الضيق أو الاشمئزاز أو الشفقة على الذين تحرق أجسادهم وهم أحياء.(٣)

المسيحية المفترى عليها :

عانت المسيحية في عهد (هرقل) وقبل الفتح الإسلامي لها من الاضطهاد حيث كانت تتحكم فيه رغبة توحيد المذاهب المسيحية لتصبح جميعها في مذهب واحد، وأقر هذا المذهب مجمع خلقيدونية وتولى هذه المهمة بطرقة الدين في الإسكندرية (قيرس) الذي أخفق في إقناع أقباط مصر بالمذهب الجديد، ومارست قوات الشرطة عنفوانها ضد الرافضين لهذا المذهب وتعرضوا للقتل والإبادة، ومع ذلك لم يستطع توحيد المذاهب عندما أعلن مارتين لوثر على باب الكنيسة في ألمانيا بطلان الصكوك التي كانت تبيعها الكنيسة للناس لتغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، وأشار البابا على رجاله بأن يردوه عن معصيته وإقناعه بأن ما يقوم به يعرضه للعقاب من الرب يسوع المسيح في الآخرة، فلم يزده ذلك إلا إصراراً، وامتدت

ثورته إلى البابوية نفسها، فأعلن أنها بدعة لم يعهدها الرسل الأوائل وطالب بإخضاع الكنيسة للسلطات الدنيوية، فبادر البابا بإصدار قرار الحرمان ضده، ولكن "مارتن لوثر" أحرق القرار على الملأ من الناس بل وأعلن مجمع (ورمس) أنه طريد الكنيسة والقانون، وأباح البابا إهدار دمه وحذر المؤمنين من إتباعه ومن قراءة كتبه وأتهمه بالجنون.

أما في فرنسا فقد ظهر كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) الذي تحول هو الأخر عن الكاثوليكية ويعد من رجالات الإصلاح الكنسي ولم يعترف بسلطة البابا، وتجمع من حوله الكثيرين وأطلقوا على أنفسهم (الهوجونوت) واستطاعت قوات الحرس الملكي من أن تنقض على بيوتهم وقامت بذبحهم في المساء، فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجرى فيها دماء أكثر من عشرين ألفا من الرافضين لسلطة البابا.

ويذكر أن تاريخ المسيحية قد سجل أول مظاهر الاضطهاد في عام (٦٤) ميلادية في عهد "نيرون" الذي قيل عنه أنه أمر بإحراق روما حتى يستمتع بمرآها وهي تحترق واشتعلت النيران في المدينة وأتت على من فيها في (٦) أيام كاملة، وأتهم نيرون المسيحيون بأنهم وراء هذه النيران فهاج الشعب، وتكبد المسيحيون من جراء هذا الاتهام الكثير من الأذى حيث قامت قوات نيرون بإلقاء بعضهم للوحوش الجائعة والبعض الأخر طليت أجسامهم بالقار والشمع ثم أشعل النيران فيهم أحياء. وأقام حفلاً للألعاب في بستان قصره، حيث كان هؤلاء الضحايا هم المصابيح التي أضاءت المكان بعد غروب الشمس.

ونيرون هو أحد الطغاة الذين عرف عنهم الغلظة والشدة والشذوذ حتى أنة قتل زوجته، وأغرق السفينة التي تحمل أمه، فإذا نجت الأم أمر بها فذبحت على أيدي أعوانه بقرار منه. (٤)

وما كان يقوم به نيرون كان يقوم به كذلك كل حكام أوربا في هذه الفترة وكان وراء كل هذا الخراب والدمار القديس (أوغسطين) الذي صاغ مبدأ الاضطهاد

لهداية الأجيال التالية من المسيحيين، وقد أقام حكمة على آيات من الكتاب المقدس حيث يقول المسيح في إنجيل متى وفى الإصحاح العاشر الآية ٣٤:٣٦" أجبروهم على اعتناق دينكم، ولا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً، فإني جئت لأفرق الإنسان من أبيه، والابنة عن أمها، والكنه عن حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته".

ومن أجل ذلك قام أوغسطين بمعاقبه الملحدين بالنفي والجلد والخرق وفرض الإتاوات في بعض الأحيان ووضع دستوراً لمواجهة أي جماعات الحادية، ومضت الكنيسة في تطبيقه بأشد ما تكون عليه المعاملة من غلظة وعنف.

وكان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما قد انفردت من بين سائر الكنائس بأن مؤسسها هو الرسول(بطرس) أقرب الرسل منزلة للسيد المسيح، وكانت روما هى عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ومن هنا كانت هناك أسبقية لكنيسة روما عن كنائس الغرب وتحقق لها السيادة بموجب منشور أذاعة (فلانتين الثالث) بتحريض من البابا (ليو الأكبر) وأصبحت منذ ذلك التاريخ كنيسة روما هي مركز السلطة الدينية في أوربا.

ولا شك أن المسيحية في جوهرها كانت منذ انطلاقها الأولى دعوة إنسانية تقوم على مساعدة الفقراء والمحرومين ونشر العدالة والمساواة بين كل البشر من جهة، مثلما هي دعوة للتوحيد ومحاربة الوثنية من جهة أخرى ، إلا أن إشكاليتها تكمن أساساً في عدم قدرة المسيحية على تشكيل نسق أيديولوجي خاص بها منذ البداية، وهذا يعود لطبيعة الظروف الموضوعية والذاتية التي ولدت فيها الدعوة وهى ظروف تميزت بالأتى : (٥)

أولا: سيادة وسيطرة الإمبراطورية الرومانية الوثنية وما مارسته هذه الإمبراطورية من ظلم وتعسف طالت المسيح نفسه الذي راح ضحية وثنية الدولة كما تصور بعض القادة آنذاك.

ثانيا: سيادة وانتشار الديانة اليهودية في المنطقة التي ولد فيها المسيح ومحاربة اليهود منذ بداية الدعوة، والمسيحية لم تأت برأيهم إلا للخراف الضالة من اليهود، في الوقت الذي اعتبرت فيه بعض الأناجيل مثل "متى، ولوقا"بأن المسيح نفسه يعود بنسبه إلى داود عن طريق يوسف عليه السلام .

ثالثا: بعد انتشار المسيحية راح يدخل عليها الكثير من التعاليم الدينية الوثنية.

رابعا: اعتناق الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية فيما بعد وتسخيرها الكنيسة لمصلحتها السياسية – رابطة الدين – وبذلك عملت الإمبراطورية عبر هذا الربط على تشويه العقيدة المسيحية، وخاصة عندما أصبحت الكنيسة نفسها سلطة مطلقة بيد القوة الحاكمة الممثلة في النبلاء ورجال الإقطاع، وتحولت الكنيسة في إحدى مراحلها المهمة من حياة الدول الأوربية إلى مؤسسة إقطاعية تمارس القهر والظلم باسم الدين، كما حدث في محاكم التفتيش وبيع صكوك الغفران ، ومن ثم يمكن القول بأن المسيحية كانت في عهد بطرس مرتبطة باليهودية بسبب احتفاظها بالكثير من عناصر الديانة اليهودية نفسها حيث ورثت عنها التوحيد والتزمت والاعتقاد بالبعث والنشور، مثلما ظلت المجامع اليهودية نفسها أهم الأماكن التي تبث منها الدعوة الجديدة.

كما أن بقاء اليهود حتى عام (٧٠م) أهم الجماعات التي تبث فيهم الدعوة ساعد على انتقال الكثير من عبادات اليهود وطقوسهم حتى ملابسهم إلى المسيحية، في الوقت الذي أخذت فيه المسيحية من اليهود أيضاً أساليب إدارة وتنصيب القساوسة في تولى شئون الكنيسة وأخذت عنها بعض الأعياد كعيد الفصح وعيد العنصرة، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتواريخها على مدار الأزمان.

بيد أن توجه ومسيرة الديانة المسيحية أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن اليهودية مع الرسول (بولس) وهو الذي راح يبشر بدين جديد لم يجد اليهود أمامهم سوى محاربته ومحاولة القضاء عليه فاتهموه بالجنون والشعوذة ومن هنا بدأت أولى

معالم انفصال المسيحية عن اليهودية عند (بولس) الذي أوضح من خلال دعوته لأهالي أثينا، أسس هذه الدعوة في قوله بأن هناك إلهاً واحداً للجميع، خلق السموات والأرض وهو منزه عن كل شيء مادي ملموس، ولا يجسد برمز أو هيكل ". وفى كلمته إشارة واضحة إلى نبذ الديانات الوثنية التي كانت سائدة عند اليونانيين، مثلما أشار إلى وجود إله جديد بخلاف (يهوه) إله اليهود.

وبولس هو الذى ربط فى رسائله إلى الجماعات المسيحية في روما كورنتس بين خطيئة أدم وموت المسيح عليه السلام كما يزعمون، وهذا الرجل هو الذي أنشأ بالفعل عقيدة الخلاص وقال أن أدم نزل على الأرض ملعونا وأن اللعنة لزمته ولزمت أبناءه أجمعين حتى أراد الله أن يخلصه من اللعنة فقرر أن يعالج خطيئة أدم بأن يهبط إلى الأرض- أي الله- في صورة عيسى بن مريم ويتخذ جسداً من لحم ودم، ولما قبض عليه اليهود وحاكموه وسال دمه كان في ذلك خلاص أبناء أدم من خطيئة أبيهم، وأن على كل من يريد تخليص نفسه من خطيئته ولعنة الله لابد من الإيمان بالمسيح المخلص.

وتبدأ أولى مراحل الدخول في المسيحية بالتعميد، ويكون عادة على يد أحد رجالات الكنيسة الكبار من القساوسة والرهبان، حيث تحمل الأم طفلها إلى الكنيسة عقب ميلاده ويقوم القس بنثر ماء التعميد المقدس عليه حيث يعتقدون أنه وبدون التعميد يظل الإنسان ملعونا وعندما يبلغ الطفل العاشرة من العمر عليه أن يعلن انضمامه إلى المسيحية، ويكون ذلك أيضا على يد أحد القساوسة وبحضور الأب والأم معا، ويتم تثبيته في المسيحية بأن يأكل قطعة من الخبز يضعها القسيس في فمه، إذ أن المعتقد السائد أن قطعة الخبز هذه ترمز إلى جسد المسيح القتيل وهو عندهم الله ذاته، ثم يشرب الصبي كأساً من النبيذ وهو يرمز إلى دم المسيح، فإذا فعل الصبي ذلك فقد تم التثبيت وصار بمجرد ذلك مسيحيا بعد أن أكل الصبي لحم المسيح – قطعة الخبز – وشرب دمه – كأس النبيذ، وبالتالي لا يكون الخلاص من الخطيئة إلى بالمراحل السابقة.

وكان بولس رجلا متعصبا وعنيفا فقد غضب على مرقص فانفصل هذا عنه وذهب إلى مصر وهناك كتب إنجيله باللاتينية، كما غضب على برنابا فتركه وعاش في البرية وكتب هو الأخر إنجيله وهاجم فيه كلا من بولس وبطرس وشن على تعاليمهما هجوماً عنيفا، وقد أدت هذه الفوضى إلى تعدد الأناجيل واحتار أتباع الكنيسة على أي مذهب يؤمنون، ولكن المجامع المسكونية استبعدتها فيما عدا أربعة أناجيل فقط هي (متى ، ويوحنا ،ومرقص ، وبولس) وكان أول الأناجيل التي صدر تحذير بعدم تداولها من المجمع المسكوني كان انجيل برنابا.

وإذا كان بولس قد ابتعد في تعاليم المسيحية عن اليهودية إلا أن بطرس قد وضع نظام الكنيسة العجيب، فأصبحت الكنيسة بموجب تعاليم بطرس جسد المسيح، بل يعتبر كلاهما مؤسسا الكنيسة السياسية في المسيحية.

فبطرس يقول في رسالته لأهل كورنتس:" أنتم جسد المسيح، وأعضاء من عضو، وقد وضع الله في الكنيسة أناساً أولاً، ورسلاً ثانياً، وأنبياء ثالثاً " تؤكد على مرحلة جديدة للمسيحية في أوربا. (٦)

وقد توفيا بطرس وبولس مؤسساً الكنيسة المسيحية في يوم واحد، وظهرت في أعقاب ذلك فكرة بعث الحضارة الرومانية اللاتينية بعد ربطها بالمسيحية الكاثوليكية بين شعوب غير الرومانية، وجعلهم يتعصبون للإمبراطورية الرومانية المقدسة، أمر قد صنعه الباباوات بحكمة واقتدار، وحتى أواخر القرن الرابع الميلادي كانت الإمبراطورية الرومانية لازالت على وثنيتها وخلال قرن واحد ظهر القديس أوغسطين بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية يبشر بنهاية العالم لأنه ليس بعد الإمبراطورية الرومانية إلا المسيح الدجال.

وقد حاول شارلمان النهوض بالمسيحية فأمر بتعلم القراءة والكتابة والعودة إلى الكتاب المقدس، مؤكدا أن فيه صلاح البشرية بل والعالم كله وبعد وفاة شارلمان عاد الظلام يخيم على أوربا قرنين كاملين،وتعرضت البابوية للتدهور خلال هذين القرنين حيث لم تكن البابوية منزهة عن الشبهات وظلت أوربا مسرحا للشهوات

الجامحة، والأطماع والخرافات، فكان الحماس الديني تعصبا جاهلا، ودخلت الكنيسة في صراع مع السلطة الزمنية ملوكا وأباطرة، مما أفقد البابوية الكثير من الهيبة خلال هذا الصراع.

الكنيسة والسياسة في أوربا :

رغم استمرار حركة التبشير أقنع الباباوات الشعوب المسيحية بأن المسلمين وثنيون، معتدون، وأشاعوا الكثير من الصفات عنهم مثل الهراطقة، والمتطرفون والملحدون، وفى القرن الحادى عشر استطاع الباباوات خلق رأى عام أوربي ينادى بالجهاد المقدس ضد الوثنيين المسلمين، وإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وتمكنت الباباوية في روما من إقامة تنظيم مستقل عن الإمبراطورية القائمة في القسطنطينية تدعمها مجموعة من الأفكار التي تصون الكنيسة من تدخل القوى العلمانية، وذلك بخلاف الكنيسة الشرقية الخاضعة للإمبراطور، وكذلك الكنيسة الروسية التي اعتنقت المسيحية على يد الكنيسة اليونانية، وسادت فيها نفس تقاليد الكنسية البيزنطية.

أما في الغرب فقد حدثت صراعات بين الباباوية وبين السلطة الزمنية دفعت هذه الصراعات كلا الطرفين الكنيسة والدولة إلى تبرير مزاعم التقدم والاستعلاء التي كان يدعيها كل طرف في مواجهة الأخر،

وفى عام ١٤٥٣ـ عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بفتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني، وما أحدثه هذا الأمر من صدى في كل أوربا، حيث عبر محمد الثاني إلى الساحل الايطالى في (إترانتو) معلنا عزمه فتح روما ولكن وفاته حالت دون ذلك ولم ينس الأوربيون أن الباباوات هم الذين أضعفوا القسطنطينية وخربوها أثناء الحملة الصليبية الرابعة بتوجيه من البابا (أنوسنت الثالث) واحتلوها (٥٠) عاماً ويعتقد البعض أن سقوط القسطنطينية دفع الغرب لظهور فكرتين هامتين.(٧)

الأولى: تذكير أوربا بالتهديد الإسلامي والذي ما زالت بقاياه موجودة في مملكة بنى الأحمر في غرناطة.

الثاني: أن السلطة الدينية فشلت في إدارة الصراع ضد أعداء الكنيسة في أوقات الصراع مع العلمانية (الإصلاحيين) وكذلك في الحروب ضد المسلمين.

وكانت كل الأمور الدينية والدنيوية في أيدي الكنيسة متمثلة في البابا والقساوسة والرهبان وذلك على عكس الكنيسة في الإمبراطورية الشرقية التي كانت تخضع للإمبراطور الذي يقيم في القسطنطينية وأدى استقلال باباوات روما لتمكنهم من إقامة تنظيم مستقل تدعمه مجموعة من الأفكار اللاهوتية التي تحمى الكنيسة من تدخل القوي الأخرى زمنية أم علمانية.

وفي عهد البابا (أنوسنت الثالث) بلغت البابوية أقصى قوتها حتى أنه قال: أنه لا خلاص لإنسان في العالم ما لم يخضع للبابا فأنا قيصر، وأنا الإمبراطور الحقيقي صاحب السيادة على جميع الأمراء في الأرض" وظل حال الكنيسة هكذا تدور في صراعات حتى أدى ذلك إلى إضعافها في الشرق والغرب معا، وإذا كان الإسلام قد حل بدلا منها في الشرق، أي أصبحت له الغلبة والسيطرة في حياة الناس السياسية والروحية، فإن الكنيسة الغربية عموما عاشت حالات من الضعف والانهيار حتى نهاية النصف الأول من القرن الـ (١٨) وخسرت المسيحية معظم أراضيها نتيجة هذا الضعف.(٨)

وعلى الجانب الأخر، فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يخسر الأرض التي ظهر بها، حتى عندما هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة عاد إليها ليتمركز مع موقع النشأة في مكة ثم ينتشر منها إلى جميع الجهات، فحقق بذلك نموا ذاتيا متكاملا.

وهذا بالطبع لم يحدث إلا مع أديان معينة فقد نشأ الإسلام مع إبراهيم في موقع من العراق، ثم هاجر به إلى فلسطين ثم إلى الأرض الحرام (مكة) ثم ضاعت تعاليمه ومعالمه مع الزمن إلا بيت الله الحرام بمكة.

كما نشأت اليهودية بمصر مع موسي وهارون فلما طردت من مصر، استقرت في فلسطين، ولم تعد مطلقا إلى مصر، بل وتشتت في أصقاع الأرض بعد ذلــك، أمــا النصرانية التي نشأت ببلدة (الناصرة) بفلسطين وفشلت في إقامة كيان لهــا بهــذه الأرض، بل وصلب الحواريون عليها يهوذا عندما ظهر أمامهم شــبيها بالمســيح، ونبذتهم أرض فلسطين إلى جنوب أوربا وإلى مصر، إلى أن استطاعوا في إقنــاع أحد أباطرة الرومان في اتخاذ النصرانية دينا لدولته حتى يتسع ملكه، واعتمد علــى رجال الدين في بسط سلطانه وأصبح الدين آنذاك في خدمة السياسة.(٩)

وعلى الرغم من أن الانفصال النهائي بين الكنيسة اليونانيــة الشــرقية، واللاتينيــة الغربية عام (١٠٥٤م) إلا أن تاريخ الكنيسة المسيحية عموماً منــذ القــرن الرابــع الميلادي تحديدا، أي منذ تحولها إلى أيديولوجيا للدولة بعد تبنى الرومــان الديانــة المسيحية دينا لها عاد هذا التاريخ ليصبح في حقله الجغرافي والديني ظاهرة شرقية في الكثير من حلقاتها وتوجيهاتها الأساسية الكبرى وقد تجلى ذلك بشكل واضح في اتجاهاتها الانفصالية الأولى الثلاثة المســماة بـــ (الآريوســية – النســطورية – المنوفيسية)

أناجيل ومذاهب غير موحدة.

إن محاولة أنسنة يسوع هنا وتحويله إلى مخلص إنساني يــؤثر فــي النــاس كمــا يؤثرون فيه شكل موقفا سياسيا ودينيا وعقيدياً مباشراً مع النســاطرة الســوريين ، وكان يهدف إلى دعوة انفصالية استقلالية مبطنة عن جسد الإمبراطور مثلما كــان الموقف ذاته مشخصا عند الأريوسية في مصر.

فالمنوفيسية هو التيار الديني الثالث في الكنيسة الشرقية الذي يعرف بـــ(اليعاقبة) فقد لعب دوراً لا يستهان به في عملية الانشقاق ذاتها عندما أكد علــى وحــدة وجــود المسيح، فالمسيح عند المنوفسيون جوهر واحد، إلا أنه من جوهرين أو ربمــا هــو طبيعة واحدة من طبيعتين، هو جوهر الإله القديم، وجوهر الإنسان المحدث، تركب تركيباً كما تركبت النفس والبدن فصار جوهراً واحداً (أقنوماً واحداً) هو إنسان كله،

وإله كله حيث يقال: أن الإنسان صار الهاً فى الوقت الذي لا يمكن القول فيه بأن الإله صار إنساناً ".

والموقف المنوفيسى هو أيضاً بدوره كان موقفا استقلاليا سياسياً تجاه المركز البيزنطي كان من أبرز تجلياته انفصال الكنيسة السريانية في سوريا والقبطية في مصر عن الكنيسة الأم بعد عقد مجمع خلقدونيا عام (٤٥١) .[١٠]

وعلى الرغم من هذه الصراعات الدائرة في العقل الأوربي وخاصة الحكام ورجال الكنيسة إلا أن ذلك لم يثنيهم عن الصراع بين الإسلام والمسيحية بعد طرد المسلمين من أسبانيا، واكتشاف أمريكا وأستراليا، وطريق رأس الرجاء الصالح، والكشوف الجغرافية الأخرى، وظهور البرتغال كقوة بحرية كبرى، وتفجر الصراع على طرق التجارة، وتصدى الإمبراطورية العثمانية للاستعمار البرتغالي في الساحل الإفريقي والبحر الأحمر والخليج العربي، وسواحل الهند.

وكان موقف العثمانيين في شرق أوربا يمثل ضغطاً على أوربا حتى قرب نهاية القرن السابع عشر وتمكنت من القضاء على الاستعمار البرتغالي في الشرق إلا أن الأحوال الداخلية في الولايات الإسلامية بدأت تسوء في القرن السابع عشر، في الوقت الذي بدأت فيه بوادر النهضة تظهر في أوربا علوماً، وفنوناً في عصر الرينسانس.

الاستعمار الأوربي والتوسع الإسلامي :

بعد ظهور الثورة الصناعية في أوربا وتحول الاقتصاد القومي لحركات التصنيع، وظهور الحاجة لمزيد من الموارد تأصلت لدى معظم الدول الأوربية فكرة استغلال الشرق واستعمار أفريقيا والقضاء على النفوذ التجاري والسياسي للعالم الإسلامي وتمكنت إنجلترا من السيطرة على معظم شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر، وكذلك هولندا على اندونيسيا، وروسيا على ولايات آسيا الوسطي الإسلامية،

واتخذت معظم دول أوربا مواطن أقدام على سواحل إفريقيا الشرقية والغربية، وقد سادت في القرن التاسع عشر نظريتان استعماريتان في السياسة الدولية هما: (١١)

الأولى: وهى حق الدول الكبرى في التهام الدول الصغرى وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر.

الثانية: وهى إباحة تملك الأقاليم التي يسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية خارج القارة الأوربية ، حيث حاولت روسيا أن يكون لها مستعمرة إفريقية تحت شعار حماية المسيحية في الحبشة فأبحرت من ميناء (أودسا) الروسي في البحر الأسود باخرة عليها مجموعات عديدة من العسكريين، والأطفال والنساء ورجال الدين بقيادة راهب قوقازي ووسط شعور فياض من الحماس الديني أبحرت الباخرة متجهة إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس.

ولما بلغت الباخرة مصوع رفضت السلطات الإيطالية السماح لها بالرسو بها، فاستمرت مبحرة جنوبا حتى رست في ميناء مهجور تابع لمستعمرة (أوبوك) الفرنسية وقام الكاهن القوقازي وكان اسمه (أتشينوف) برفع العلم الروسي، ولكن ما لبثت السلطات الفرنسية أن أعادته مع العسكريين، وسمحت فرنسا بنزول الرهبان والقساوسة فقط إلى الحبشة وإنزال العلم الروسي من فوق الميناء.

كما تسابقت كلاً من روسيا، والنمساء والمجر، وفرنساء وبريطانيا، وإيطاليا، على اقتسام الولايات العثمانية في أوربا وآسيا وأفريقيا وكانت روسيا والنمسا من أسبق الدول في انتهاج السياسة العدائية ضد الدولة العثمانية(١٢) فروسيا تريد النفاذ إلى مياه الدردنيل الدافئة، كما تريد التوسع البرى جنوبا وغربا، أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجي لها تقوم على منع أي دولة من تهديدها عن طريق نهر الدانوب (الأفلاق، والبغدان) رومانيا وفى جنوب النهر بلغاريا والصرب والبوسنة، وقد اتخذ الزحف الإستعمارى على أقاليم الدولة العثمانية طابعا دينيا تحت زعم حماية الأقليات المسيحية من رعايا الدولة العثمانية الإسلامية وكانت النزعة الدينية في روسيا أكبر من غيرها،

وفي عام ١٧٧٨ عندما اقتربت الجيوش الروسية من مشارف العاصمة وشاهد الجنود مآذن العاصمة بالعين المجردة وكان الجنود يتحرقون شوقاً لإعادة الصليب لكنيسة (آيا صوفيا) وعقدت الهدنة بعد قتال دام تسعة أشهر من الهزائم للدولة العثمانية المنهارة وقد ساعد على عقد الهدنة عدم رضاء بريطانيا عن اقتحام الروس للعاصمة الإسلامية اسطنبول وهددت بالحرب إن فعلت ذلك،وحركت بريطانيا أسطولها الضخم من الدردنيل فى مظاهرة عسكرية، وكانت روسيا قبل ذلك قد نجحت في ضم معظم أراضى القفقاس والتركستان وفيما بين عامي (١٨٦٠ – ١٨٦٨) استولت على تركستان الشرقية بما تضم من مدن إسلامية عريقة مثل طشقند وسمرقند وبخاري.

وفى عام ١٨٨٠ التقت الإمبراطوريات الثلاث (البريطانية، والروسية، والصينية) في هذه المناطق الإسلامية وقسمت إيران إلى منطقتي نفوذ (بريطاني- روسي) وفى قلب العالم الإسلامي اقتسمت بريطانيا وفرنسا الساحل الأفريقي مصر والسودان، واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١ وسيطرت بريطانيا على طنجة ومنطقة الريف تحت السيطرة الأسبانية، أما الجزء الأكبر فكان من نصيب فرنسا علاوة على امتلاكها الجزائر وتونس.(١٣)

وكان الإنجليز يحرصون على إبعاد المسلمين من كل الوظائف ذات المسئولية ويضعون مكانهم الهندوس أو السيخ واتخذوا سياسة معادية للإسلام علنا، حتى أن اللورد (ألن بورد) أعلن أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأكبر، وان السياسة البريطانية في الهند تقوم على تقريب العناصر الهندوسية للتغلب نهائيا على نفوذ المسلمين، حيث تمكن الإنجليز من وضع أيديهم على الأراضي التي كانت بحوزة المسلمين وأعطوا جباة الضرائب من الهندوكيين حق تملك الأراضي التي يستطيعون انتزاعها من أيدي المسلمين، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي دفعت المسلمين إلى التجمع في بلاد السند والبنجاب وكشمير والبنغال للسعي لإقامة دولة خاصة بهم، لأن العداوة التي غرسها وسعى إليها الإنجليز في قلوب الهندوس والسيخ ضد المسلمين كانت عنيفة الأثر.

أما مناطق النفوذ الاستعماري في أفريقيا بعد انهيار الدولة العثمانية الاسلامية في نهاية القرن التاسع عشرفكانت كما يلي:(١٤)

- منطقة النفوذ الفرنسي: وتشمل الشمال الأفريقي كله عدا ليبيا وكذا إفريقيا الغربية والمدارية والاستوائية والوسطي باستثناء ما أخذته إنجلترا وغيرها من البلاد الأوربية وجزيرة مدغشقر وجيبوتي في شرق القارة الإفريقية،أما في آسيا فكانت لها شبه جزيرة الهند الصينية كلها.

- منطقة النفوذ البريطاني: وتشمل أجزاء من إفريقيا الوسطي والشرقية، وناميبيا وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا، وجنوب إفريقيا ومصر والسودان، أما في آسيا فكانت الهند كلها درة التاج البريطاني ومستعمرة هونج كونج في الصين.

- منطقة النفوذ الألماني: وتشمل الكاميرون، التوجو، جنوب غرب إفريقيا تنجانيقا، رواندا، بور وندى في شرق القارة.

- منطقة النفوذ البلجيكي: وتشمل كل بلاد الكونغو (زائير)

- منطقة النفوذ البرتغالي: وتشمل أنجولا، موزمبيق، الرأس الأخضر في أفريقيا وجيوب صغيرة على سواحل الهند، والهند الصينية في آسيا.

- منطقة النفوذ الأسباني: وتشمل منطقة الريف المغربية، والصحراء الأسبانية وغينيا، علاوة على الفلبين في آسيا سنة ١٨٩٨.

- منطقة النفوذ الإيطالي: وتشمل أرتيريا، الصومال، ليبيا، ثم إثيوبيا.

- منطقة النفوذ الهولندي: والملاحظ أنه لم يكن لها مستعمرات في أفريقيا ولكن استعمرت أند ونسيا في آسيا.

- **منطقة النفوذ الروسي**: وتشمل بلاد سيبيريا حتى المحيط الهادي، ثم بلاد آسيا الوسطي الإسلامية، التركستان وما حولها، والحقيقة أن الاستعمار جاء نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية بين عالم قوى وعالم ضعيف.

الجامعة الإسلامية... وبقايا الرجل المريض:

رأى السلطان عبد الحميد في الجامعة الإسلامية سياجاً يحمى الدولة من الأخطار التي كانت تحيط بها من كل جانب، أمام أطماع روسيا والنمسا والمجر، وبريطانيا، في الوقت الذي سادت، فكرة طرد العثمانيين من أوربا وتأييد الشعوب البلقانية المسيحية للتحرر من الحكم الإسلامي ،ورأى السلطان عبد الحميد أن يعيد لمنصب الخلافة هيبته عن طريق إعتراف الدولة الأوروبية بزعامته الروحية على كافة مسلمي العالم لذلك حرص على أن يقرن أسمه بالألقاب الدينية مثل أمير المؤمنين وخادم الحرمين، وغير ذلك من الألقاب مستهدفاً عودة الطاعة والولاء لعرشه من العناصر الإسلامية غير التركية وغير العثمانيين من رعايا الدول الأخرى.

وأدخل اللغة العربية في مناهج الدراسة وفي المدارس الدينية الأمر الذي لم يحدث من قبل، وبدأ يمارس سلطاته في تعيين الموظفين الدينيين في الولايات العثمانية، وكان يختار بنفسه القضاة والمدرسين وعلماء الدين ، وأوفد البعثات الدينية لمسلمي البوسنة وبلغاريا، وبلاد القرم ، وقد أدرك السلطان عبد الحميد أن العرب هم هدف التوسع الاستعماري في هذه المرحلة، فأقام بالعديد من الإصلاحات في المدن العربية وأهتم بالأماكن المقدسة مثل المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى(١٥)

والملاحظ كذلك أن فكرة الجامعة الإسلامية أقلقت الغرب، وخاصة إنجلترا وفرنسا خوفا من مسلمي الهند، وخشيت فرنسا على نفوذها في شمال إفريقيا، في الوقت ذاته انتصر العثمانيون على اليونان عام ١٨٩٧، وعلى نتائج هذا الانتصار، قامت مظاهرات عنيفة في الهند، واندونيسيا وتركستان ومدغشقر والجزائر تطالب بالتحرير من الحكم الأوربي المسيحي.

ولعل ألمانيا هي الدولة الأوربية الوحيدة التي لم يقلقها ما يحدث في الدولة العثمانية بعد إعلان الجامعة الإسلامية نظراً لعدم وجود مسلمين في المستعمرات التي تحت يديها.

ومن هنا كانت هناك صلات وعلاقات قوية بين ألمانيا والدولة العثمانية كان من ثمار هذه العلاقة زيارة القيصر (غليوم الثاني) السلطان العثماني عبد الحميد، ثم زيارة القدس حيث قام بوضع إكليل من الزهور على قبر القائد صلاح الدين الأيوبي ، أما المعتمد البريطاني في مصر وهو اللورد "كرومر"، فقد شن هجوما عنيفاً عام ١٩٠٦ على الجامعة الإسلامية مؤكداً أنها ترمى إلى تحدي الدولة المسيحية، وأنها حركة قائمة على بث البغضاء والتفرقة العرقية والدينية.، وأنها حركة تقوم على إحياء نظم ومبادىء وضعت منذ أكثر من ألف عام لإرشاد وتوجيه مجتمعات بدائية،

كما قامت فرنسا وإنجلترا بحملة تشنيع ضد السلطان عبد الحميد في الداخل والخارج، ونشطت الجواسيس حتى كان انقلاب أعضاء جمعية الإتحاد والترقي، وتم عزل السلطان عبد الحميد، وتولى السلطان محمد رشاد عام "١٩٠٩" وهى جمعية تستهدف المزيد من الإصلاحات الدستورية وعودة العرق التركي.

وفى عام ١٩٢٤ــ ألغى كمال الدين أتاتورك الخلافة الإسلامية، رغم معارضة كافة المسلمين في الداخل والخارج، فكان قراراً دكتاتورياً قتل بسببه الكثير من المعارضين، ففكرة التتريك والترويج للأصول الطورانية للأتراك في السنوات التالية للانقلاب كان تمهيداً لحركة التغريب الكاملة التي دعا إليها أتاتورك.[١٦]

صحيح أن العثمانيين استطاعوا اختراق أوربا الشرقية من ناحية الغرب، وإثبات وجودهم في البحر المتوسط، وطرد البرتغاليين من البحر الأحمر، ولكن هزيمتهم في الخليج أمام البرتغال كان مؤشراً لحدث ذي دلالات أكبر من حجمه كهزيمة عسكرية فحسب، فالبرتغاليين بتفوقهم في استخدام الآلة العسكرية (السفينة الحربية والبارود) وفى منطقة إستراتيجية تربط بين قارات ثلاث (آسيا، إفريقيا، أوربا)

كان يدشنون إستراتيجية السيطرة على العالم في العصر الحديث عبر السيطرة على الممرات في محيطاته الكبرى.

كما أن أوربا التوسعية لم تكن واحدة، أو موحدة في هذه الإستراتيجية بل كانت صراعات ممالكها ودولها على أشدها في محاولات السيطرة هذه، إلا أن الديناميكية الأوربية كانت هجومية وعنيفة تجاه الخارج الأمر الذي جعل من الصراع الأوربي – الأوربي حالة صراع من أجل السيطرة نفسها، ولا فرق بين برتغاليين وهولنديين وإنجليز وفرنسيين ولاحقاً روس وألمان وطليان أمريكان، إلا في مدى تطوير الآلة العسكرية وتحسين درجة استخدام آلية العنف في عملية المنافسة والسيطرة معاً.

فالصراع والحروب العثمانية – الإيرانية التي استمرت متقطعة نحو قرنين ونصف (١٥٠٠– ١٧٤٣) كانت تتزامن سياقاً تاريخيا عالمياً اتسم بتشكيل "نهضة أوربا" وانطلاقتها التجارية واستعداداتها التكوينية للثورة الصناعية الكبرى ، وكانت من أهم معالم التحول في هذا السياق العالمي التفوق الذي سجلته المجتمعات الأوربية في تقنية السلاح والسفن الحربية والتنظيم الإداري للدولة وأجهزتها،

وبعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح والعالم الأمريكي الجديد لم يعد للاقتصاد المتوسطي دوره السابق، وترك العالم الإسلامي خلال كل هذه الفترة اللاحقة ساحة تقاتل بين قوتية الأساسيتين وكان التقابل بينهما – في جزء كبير منه– في محاولة للخروج من أزمة الاقتصاد المتوسطي عبر السيطرة على الممرات والمرافيء المؤدية إلى أوربا التي تكرس في مدنها ذهب وفضة العالم الأمريكي الجديد، ولما استنزفت القوتان كان إقتصادهما على درجة من الضعف والجمود والتراجع أمام زحف السلعة الغربية، وكل هذا كان يؤسس لتكوين العلاقات غير المتكافئة بين الغرب والعالم الإسلامي ، وتعرضت مناطق العالم الإسلامي وفى وقت متواز لغزو الأوربيين فأصبحت شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) حكومة فعلية في البنغال وامتدت تدريجيا إلى شبه الجزيرة الهندية حيث حلت سلطتها مكان سلطة إمبراطور دلهي المغولي ،أما الحكومة الهولندية فقد استعادت ممتلكاتها وحقوق الشركة

الهولندية للهند (١٨٠٠) وسيطرت على" جاوه" منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وفى عام ١٨٣٠ـ غزت فرنسا الجزائر، وبعد عشرين عاماً من الحروب امتدت سيطرتها فيها وفتحت الباب واسعاً أمام الاستعمار الأوربي وخلال الحقبة ذاتها أخضعت روسيا الأراضي الإسلامية القديمة في القفقاس وآسيا الوسطي مشجعة على توطين جماعات كبيرة من السكان غير المسلمين، وبين عامي (١٨٦٥- ١٨٧٣) وضعت روسيا القيصرية نهاية لاستقلال إمارة خوقند في آسيا الوسطي، وأقامت حمايتها على إمارتين أخريين هما (خيبوه ،وبخاري) .(١٧)

وفى عام ١٨٨١ـ وضعت فرنسا يدها على تونس ومارست فيها سلطتها الفعلية بصيغة الحماية، وفى العام التالي ١٨٨٢ـ احتل البريطانيون مصر، وأقاموا حكم وصاية مصرية – إنجليزية على السودان واحتفظت بريطانيا فيه بمركز القيادة.

وفى نهاية القرن التاسع عشر سيطر الهولنديين على الممالك المحلية في سومطرة، وأسسوا إمبراطورية واسعة في الأرخبيل الأندونيسى، أما في ماليزيا المجاورة فلقد أصبحت السلطنتان المسلمتان فيها منذ ١٨٨٠ تحت الحماية البريطانية، وفى عامي ١٩١١- ١٩١٢ غزت إيطاليا طرابلس الغرب، أما فرنسا فقد فرضت حمايتها على معظم أجزاء المغرب، بينما أخذت أسبانيا على عاتقها ما تبقى من المملكة، وكما كان بالنسبة لتونس، أحلت البلدان الحامية إدارتها الخاصة في المغرب وحكمت البلاد فعلياً.

بيد أن سيطرة البريطانيين على الهند قادتهم لأن يكون لهم الأولوية في التوسع في الخليج كمنطقة نفوذ، ومراقبة عدن وحضرموت وهذه السيطرة سمحت لبريطانيا أن يكون لها أيضاً موقع مميز في فارس الوسطي.

وكانت السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى حاشدة بالتحركات الأوربية والمعاهدات الاقتصادية مع الدولة العثمانية، وكان موضوع هذه التحركات

والمعاهدات يدور بشكل رئيسي حول الاستثمارات المالية وخاصة حول إمتيازات من سكك الحديد من مناطق العالم الإسلامي[١٨] وقد جسدت هذه المسألة الأخيرة محور العمل الدبلوماسي الأوربي، لدرجة أن هذا العمل الذي سيطلق عليه تقسيم السوق العثماني هو بحد ذاته وبالتحديد الاتفاق على تحديد مناطق نفوذ الدول الاستعمارية الكبرى.

كما أن عواقب الحزب والثورة البلشفية وأزمة الحكم في إيران في أواخر العهد (القاجارى) قادت جميعها إلى زوال (خيبوة) وبخاري ككيان متميز فتم إلحاقها بالاتحاد السوفيتي، هذا الشريط المتتابع من الإحتلالات الأوربية لمناطق من العالم الإسلامي كان يترافق أيضاً مع مشاريع مختلفة لاقتسام جغرافيته الاقتصادية والبشرية والسياسية كمناطق نفوذ أولاً، ودول تابعة ثانياً إذ لا يمكن فصل المشاريع السياسية التي قدمتها .الدول الأوربية كبدائل لحتمية انهيار الدولة العثمانية عن مجال مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية وحدود هذه المصالح في إطار توازنها فيما بينها

فما تقوم به الولايات المتحدة اليوم على مستوىالنظام العالمي هو كشف للحقيقة، وسقوط للزيف، فهو كشف لحقيقة القانون الذي يحكم العالم، وكشف لحقيقة النظام العالمي الجديد: وحقيقة الدول الغربية داعية حقوق الإنسان، والحرية، والمساواة، وانكشاف لحقيقة تقول أن هناك إنسانا ينتمي إلى حضارة مسيحية أو يهودية، أو حتى علمانية، وإنسان خارج هذه الحضارة- مسلم متطرف أحياناً، وإرهابي أحيانا، ومتخلف على الدوام ومعادى للسامية وهذا ما يدفعه إلى سلوكيات لا يرضى عنها العالم الغربي.

فالعالم اليوم يشهد ذروة الهجوم على الإسلام والمسلمين معاً بعد أن شهد العالم الإسلامي فصولا من تركيز الهجوم تارة على العروبة وطوراً على الإسلام، يتمثل هذا الهجوم في إطار الحملة الغربية السياسية الاقتصادية والعسكرية ضد كل ما يمت للإسلام والعروبة بصلة مستخدمين في ذلك كافة الإمكانيات المادية

والتكنولوجية لخدمة أغراضهم ولعل الطريف، أن هذه الحملة قلما تميز بين العرب والمسلم، سواء كان العربي غير مسلم، أو المسلم غير عربي، كما لا تميز أيضا بين حلفاء الغرب من العرب، والمسلمين وبين الآخرين.

هوامش الفصل الرابع

١	محمد حسين فرحات	الحضارة الإسلامية (السعودية، الندوة العالمية للشباب الاسلامى ١٩٨٦) ص ٣١١
٢	توفيق الطويل	قصة الاضطهاد الديني من المسيحية للإسلام (القاهرة ، الزهراء للأعلام العربي ١٩٩١) ص ١٥
٣	ــــــــــ	قصة الاضطهاد الديني، المرجع السابق ص ٤٠
٤	ــــــــــ	قصة الاضطهاد الديني، المرجع السابق ، ص ٤٨: ٧٠
٥	ــــــــــ	قصة الاضطهاد الديني، المرجع السابق ص ٧١
٦	عدنان عويد	التبشير بين الأصولية المسيحية وسلطة التغريب (بيروت مجلة النهج عدد يناير ٢٠٠٠) ص ١٤٦
٧	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب (القاهرة، مركز الأهرام للتأليف والترجمة، ١٩٩٢) ص ٢٨
٨	عدنان عويد	التبشير بين الأصولية وسلطة التغريب، مرجع سابق ص ١٤٧
٩	طه عبد العليم	جغرافية العالم الاسلامى (الأنجلو المصرية، ١٩٩١) ص ٦٦
١٠	عدنان عويد	التبشير بين الأصولية المسيحية، مرجع سابق ص ١٥٠
١١	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ص ١٢٢
١٢	ــــــــــ	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، المرجع السابق ص ٤٤
١٣	ــــــــــ	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، المرجع السابق ص ١١٩
١٤	رأفت غنيمى الشيخ	تاريخ مصر الحديث والمعاصر (الزقازيق ، مطابع جامعة الزقازيق ١٩٨٠) ١٢:٧
١٥	عبد الحميد شرف	الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مرجع سابق ص ١٦٨
١٦	رأفت الشيخ	التاريخ الحديث والمعاصر، مرجع سابق ص ٢٠٠:٢٠٥
١٧	وجية كوثرانى	تكوين الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامى (مالطا، مستقبل العالم الاسلامى، العدد الأول ١٩٩١) ص ١٤
١٨	ــــــــــ	تكوين الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامى، المرجع السابق ص ١٥٣: ٢٠

الفصل الخامس :

صورة الإسلام في الغرب

قبل وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١

تمهيد :

من الملفات المفتوحة والساخنة في الغرب الآن ملف الإسلام وعلاقته بالغرب ومستقبله وديناميكيته الماضية والراهنة والمستقبلي، وتولى دوائر القرار ومراكز الدراسات الإستراتيجية والسياسية حيزاً كبيراً من اهتماماتها للإسلام وكل ما يرتبط به من فكر وثقافة وحضارة وحركات وسلوكيات وسياسة واجتماع، وكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد وقد ازدادت الاهتمامات بالإسلام بعد الأحداث التي عصفت بالولايات المتحدة والمعروفة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

وما زال أصداء هذه الأحداث وما تبعها من ردود أفعال مختلفة ومتباينة ترمى بظلالها على السياسة الأمريكية، مثيرة عدداً من التحديات التي ستكون في أغلب الظن بؤرة اهتمام العلاقات الدولية في السنوات القادمة، تلك التحديات التي تتراوح من الحرب على الإرهاب إلى الدور الأمريكي في عملية السلام في الشرق الأوسط، إلى تضبيع الدبلوماسية، ولكن السؤال هل تغيرت الصورة بالنسبة للإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عن سابقتها من وجهة نظر الغرب.

والثابت أنه وبمجرد أن أعلنت الآلة الإعلامية الأمريكية عن أسماء عربية وملامح الخاطفين ومسئولي التفجيرات، حتى بدأت وسائل الإعلام الغربية في ممارسة مهمتها المفضلة من إعادة إنتاج خطاب إعلامي ذي لهجة تحريضية بغيضة ضد كل ما يمت للحضارة والثقافة الإسلامية بصلة.

وهو خطاب تصور الكثيرون أنه ربما انتهى بلا رجعة منذ زمن طويل، فبدأت الكتابات التي تناولت الحدث تتحدث بصراحة عن التميز بين النحن والآخر، وعن الغرب المتحضر والعالم الديمقراطي وعن الآخر المتخلف الرجعي، الدموي، الإرهابي، أو قوى الظلام ضد قوى الخير بل ووصل الأمر إلى الحد الذي استخدم فيه الرئيس الأمريكي بوش لفظ (crusade)

وذلك في معرض تصريحاته عن النية المبيتة للولايات المتحدة في مواجهة هذه التهديدات والقلق الذي عايشته بعد الأحداث وما تزال، ومعنى اللفظة كما أشرنا في السابق (الحروب الصليبية) ولاسيما في هذا الإطار،حيث العدو هنا هى جماعات

إسلامية متطرفة غير أن ما أثار الجدل بالفعل، هو ذلك الاستعداد الذي بدت عليه وسائل الإعلام الغربية في توجيه الاتهامات للمسلمين، هذا الاستعداد ألقى بشكوك كثيرة حول جدوى الجهود التي بذلت طيلة السنوات الأخيرة لنشر ما يسمى "الحوار بين الحضارات" وقيم التسامح بين الأديان وقبول الأخر، والتعددية الثقافية، كلها تبدو الآن في ظل موجة العداء الشديد للإسلام وكأنها فقاعات أو بالونات انتهت مدة صلاحيتها، كما أثبتت الأحداث هشاشه تلك المبادىء التي طالما تغنت بها معظم دول الغرب المتحضر، على الأقل لدى الغرب المتشكك دائماً في كل ما هو إسلامي، حتى الذين يشكلون معهم النسيج القومي من أبناء جلدتهم والمعروفون بالأقليات المسلمة في الغرب ولعب الإعلام الدور المهم في تشويه صورة الإسلام عند الغرب.

والثابت أن الإعلام بوسائله المتنوعة من صحافة، وإذاعة، وتليفزيون يؤثر بصورة كبيرة في توجيه رأى الفرد والجماعة ، أو بمعنى أشمل توجيه الرأي العام عموما، وقد يصبح وسيط في عملية التغيير، فهو الذي يخلق وعياً لدى المجتمع بمعوقات التقدم فيه، وهو الذي يشرع بتغيير الوضع القائم إن كانت هناك ضرورة وحاجة لذلك، الأمر الذي جعل المنتجات الإعلامية والثقافية وسيلة من وسائل الهيمنة على فكر ومعتقدات الشعوب.

كما تبرر أهمية وسائل الإعلام الحديثة في تكوين وتشكيل الصورة الذهنية عند الجمهور، وذلك بسبب انتشارها الواسع وامتدادها الأفقي والرأسي عن طريق ثورة الأقمار الصناعية والتكنولوجيات المتقدمة، هذا بالإضافة إلى كونها وسيلة اتصال مهمة بين الشعوب، وأداة من أدوات التفاهم والمعرفة بين الأمم، وقد يصبح لهذا الدور أهميته في العلاقات الدولية الراهنة حيث ظاهرة انعدام التوازن العام الذي يسود المجتمع الدولي، والحرب التي يشنها الغرب ضد العالم الإسلامي منذ تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حيث أدت هيمنة الإعلام الغربي على كل الأنظمة الإعلامية الأخرى إلى قيام معظم دول العالم بإعادة النظر في أوليات الإنتاج الإعلامي للسيطرة على أساليب الهيمنة السياسية وأنماط الاستلاب السياسي.

إن واقع الإعلام العربي والإسلامي يؤكد أنه ما يزال يعانى من التدهور والضعف والفشل في أن يحقق أية نجاحات على المستوى الأفقي، أو على المستوى الدولي، وبالتالي فإن التطور الإعلامي والتقنية الحديثة لا تؤدى كنتيجة حصرية إلى تطور ظروف البث وأثار الاستقبال فقط، وإنما الأمر يتعلق أيضاً بفجوة كبيرة ورهان سياسي كبير، فالإشكالية لم تعد تقنية أو ثورة اتصالات وفضائيات بل قضية سلطة، وهيمنة.

فالعديد من المؤسسات الصحفية الأمريكية هي في أساسها عبارة عن مجموعة احتكارات كبرى في مجال الإعلام، وأن (١٠%) من تدفق المعلومات في العالم تقود مسيرتها وكالات الأنباء العالمية وخاصة وكالات الأنباء الأمريكية، وهذا ما يؤكد أن الدول الغربية والإسلامية لا تنتج أخبارها ومعلوماتها بمفردها إلا بقدر ضئيل بجانب عدم تكافؤ الثقافات من حيث توزيع المعلومات وسبل المعرفة، ففي الوقت الذي توجد فيه بيئة إعلامية متقدمة ثقافياً وتكنولوجياً وتعمل على رفاهية الفرد، هناك بيئات إعلامية أخرى في دول العالم النامي تحاول مجاهدة ملء فراغ جمهورها ببرامج قد لا تتفق وثقافتهم ولا تقدم لهم الطرح الجيد لمختلف القضايا، وهذا ما يجرنا إلى حقيقة النظام العالمي الجديد التي تتمثل في مبدأ الأمن القومي أي حماية مصالح الدولة الداخلية والخارجية ويعكس المبدأ نفسه على وسائل الإعلام والثقافة المتعددة، فالدول الكبرى تنظر إلى القنوات الفضائية مثلاً وشبكات الإنترنت كأحد الإنجازات الكبرى التي تحقق استراتيجيتها الثقافية والسياسية، وبصفة خاصة تدعم فكرها الاقتصادي والسياسي حتى أصبحت الثقافة والإعلام من الأدوات الحديثة لغزو واختراق الشعوب وطمس الثقافات المعادية.

وقبل أن نوضح الصورة التي عليها الإسلام في الغرب الآن وما كان عليها في السنوات بل والقرون السابقة، يجب أن نتوقف قليلاً عند الاتجاهات التي تمخض عنها الفكر الغربي أو المدارس التي تقوم حالياً بتشريح الإسلام من كافة أجزاءه.وأبرز هذه المدارس هي: [١]

المدرسة الأمنية :

وهذه المدرسة ترتبط بصورة واضحة بدوائر الأمن القومي، ومكافحة الإرهاب، وتقوم هذه المدرسة بتشريح كامل ودقيق وتفصيلي للحركات الإسلامية وتحديداً تلك التي لها قواعد وجذور وأصول في الغرب، مثل الجماعة الإسلامية المصرية وحزب الله اللبناني، وحركة حماس والجهاد الإسلامي الفلسطينيين وحزب الدعوة العراقي، وأبرز هذه الجماعات وأخطرها على الولايات المتحدة والغرب الجماعة المعروفة بجماعة أسامة بن لادن أو (تنظيم القاعدة) بجانب عشرات التنظيمات الإسلامية التي لها قواعد في الغرب حيث تتحرك هذه التنظيمات في إطار الحرية المسموح بها في دول أوربا، ومعظم البلدان الغربية.

وتستهدف هذه الأجهزة من تشريح حركات الإسلام السياسي الحفاظ على الأمن القومي، ومنع تكرار ما يحدث في العالم العربي والإسلامي على أراض الغرب، حيث تظهر دوائر التعاون بين الأجهزة الأمنية العربية للحصول على معلومات عن الأشخاص والتنظيمات الإسلامية والأرشيف الأمني العربي دائماً مفتوح للغربيين والمخابرات الأمريكية وخصوصاً فيما يتعلق بالخصوم الإسلاميين.

المدرسة الثانية :

وهي تلك التي ترتبط بوزارات الهجرة وشركات السياحة، وراغبى السفر للخارج، حيث تقوم هذه المراكز بتشريح ثقافة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وليس الغرض منها ما كانت تقوم به المدرسة الأمنية بل تقوم هذه المدرسة على فهم أوضح، ونقل صورة من قريب عن الإسلام ومحاولة دمجهم بشتى الطرق والوسائل في بنية الثقافة والحضارة الغربية.

المدرسة الثالثة:

وهذه المدرسة تعتمد في أساسها على العمل العلمي والأكاديمي حيث تقوم على مجموعة من المستشرقين والباحثين في قضايا العالم العربي والإسلامي، ومجموعة

من المعاهد والكليات التي تعنى بالحضارة الإسلامية والحوار الإسلامي – المسيحي. حيث تتشعب هذه المدرسة لثلاث فرق، الأولى تقوم على الإنصاف في الطرح، وان ما يحدث من جماعة من المسلمين ليس معناه أن هذا السلوك عام ومن أسس الفكر الإسلامي. وفريق يصب جل حقده في الإسلام، ويحاول بكل ما يستطيع من معان وألفاظ أن يشوه ما بقى من صورة الإسلام والمسلمين في الغرب أما الفريق الأخر فهو الذي يعتمد على تفسير الأحداث بشكل عقلاني وبأسلوب علماني غير متحيز لأي من الفريقين السابقين.

المدرسة الرابعة :

وهى تقوم على جهد مبذول لمراكز الدراسات والبحوث الخاصة، والتي تقوم بتسويق إنتاجها البحثي لحساب وزارات الخارجية، ودوائر صنع القرارات وتقوم هذه المراكز بتوظيف الباحثين المتخصصين في مختلف العلوم ومن جنسيات عديدة، لإعداد بحوث ودراسات لها طابع معين وفى تخصصات أكثر دقة، وتستهدف الربح بغض النظر عن الجهات التي تتعامل معها هذه المراكز أو إمكانية الاستفادة من المعلومات المقدمة، ونتائج هذه الدراسات.

المدرسة الخامسة :

وهذه المدرسة تقوم على إثارة النزاعات الدينية والعرقية، وتقوم بتمويل مشاريعها جهات خاصة أو بعض رجال الأعمال أو رجال الدين من يهود ومسيحيين بهدف إشعال الفتنة بين الأديان وإثارة القلق حول بعض ما تتضمنه هذه الأديان من أفكار ونصوص مقدسة وإجتهادات معاصرة لمفكرين ومثقفين من العرب والمسلمين وأبرز النشاطات التي تقوم بها هذه المدرسة رسم سياسات التنصير للمسلمين في أفريقيا والدول ذات الأغلبية غير المسلمة.

ومن هنا فقد لفتت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ومحاولة البعض اتهام الإسلام بالإرهاب والعنف والتطرف، نظر الكثيرين في الغرب إلى ضرورة دراسة الإسلام

بشكل مفصل، والتعرف عليه، وهذا ما يفسر نفاذ نسخ القرآن المترجمة من المكتبات في كثير من الدول الأوربية، وكذلك نفاذ الكتب والبحوث التي تتحدث عن الإسلام من معارض الكتاب التي أقيمت في بعض البلدان الأوربية عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

ويشير ذلك إلى أن أوربا انفتحت على الإسلام بعد هذه الأحداث ويمكن أن يؤدى ذلك إلى تصحيح الكثير من الصور المغلوطة عن الإسلام، ومبادئة السمحة التي تميزه عن الأديان السابقة عليه. كما أعقب ذلك إثارة قضية تزايد عدد المسلمين بعد هذه الأحداث وإقبال معتنقي الديانات الأخرى للدخول في الإسلام طواعية.

كما أفسح الإعلام الأوربي بل والأمريكي أيضا لبعض القيادات الإسلامية ليتحدثوا عن رؤيتهم فيما حدث بأمريكا، وأتاحت لهم تواجداً إعلاميا واسعا لم يكن متاحا من قبل، كما جاءت الأحداث لترمى بظلالها على العلاقة بين المؤسسات الإسلامية والحكومات الغربية في إطار اهتمام الأخيرة بنفي أن تكون الحرب ضد أفغانستان أو العراق هي حرب ضد الإسلام وإنما ضد التنظيمات الإرهابية، ولعل زيارة الرئيس الأمريكي المتكررة إلى المركز الإسلامي بواشنطن يعد المثال الواضح على تنامي هذه العلاقة.

كما يوجد عدد كبير من المستشرقين الجدد يحملون توجهات سياسية وأيديولوجية معادية للإسلام عامة أمثال: برنارد لويس، ودانيال بايبس، ومارتن كرامر، ويوسف بودانسكى، وصامويل هانتجتون، على الجانب الأخر هناك عدد من المنصفين فى أرائهم وإن كانوا لا يؤمنون بالإسلام إلا أنهم يخضعون كل الأحداث للعقل والتفسير أمثال سوزان سونتانج، وهى أمريكية، تقول:

" لا يجوز إطلاق صفة الجبن على هؤلاء الذين يضحون بحياتهم في سبيل قضية يؤمنون بها، والشجاعة مفهوم محايد من الناحية الأخلاقية فالشجاع قد يعمل خيرا، أو يعمل شرا " ومع تداخل البعدين العربي – والإسلامي في إطار ما يسمى بالحملة

الدولية لمكافحة الإرهاب تحملت البلدان العربية نتائج الغضب الأمريكي على جبهتين.

الأولى: باعتبارها إسلامية تدين بالإسلام المدفوع من جهة الغرب–عدوانا – بالإرهاب.

الثانية: باعتبارها دولا عربية خرج من تحت عباءتها الإرهابيون الذين أنزلوا الأذى بالغرب، وهى من ثم مطالبة بالتطهير الخطيئتين.

وفي خضم السياق الدولي للتطهير من الإرهاب سرعان ما فتح الباب على مصراعية لتصفية الحسابات السياسية، وطبقا لتقارير الأمم المتحدة عن مكافحة العنصرية والتميز العنصري وكراهية الأجانب فقد استهدفت هذه الأفعال والممارسات المسلمين والعرب وغيرهم من المواطنين من بلدان الشرق الأوسط في عدد من الدول، وتحديداً (أمريكا) وكذلك استراليا، والمانيا، وبلجيكا، والسويد، وفرنسا، وبريطانيا، وهولندا، والفلبين، وكشمير، والصين، والبرتغال) وسرعان ما وجدت البلدان العربية والإسلامية نفسها تحت شفرة الإجراءات الأمريكية فهي مطالبة بالانخراط في حملة دولية لمكافحة الإرهاب الذي تختلف جذريا في تعريفه، والمساس بمؤسسات وطنية مثل حزب الله في لبنان. ومنظمات المقاومة المشروعة ضد الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، وهى مطالبة أيضا تحت هذه المزاعم نفسها – بالانخراط في حرب لا تعرف مداها، ولا مستهدفاتها النهائية، ويتبنى مواقف معينة بغض النظر عن مدى اقتناعها بها .[٢]

فالصين تدعى أن المظاهرات في (تركستان الشرقية) أو ما تعرف بـ (سيكنيانج) هو عمل من أعمال الإرهاب الإسلامي، أما روسيا فقد أعلنت صراحة عبر تهديداتها لجورجيا بأنها قد تدخل معها في حرب وشيكة إذا ما استمرت جورجيا في دعم بعض الفصائل الإسلامية في الشيشان، في حين استغلت إسرائيل هي الأخرى لهذا العداء المعلن وطالبت باعتبار حركة حماس والجهاد الإسلامي، وفتح، حركات إرهابية إسلامية تهدد أمن واستقرار إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط.

وعلى الجانب الإفريقي أعلنت إثيوبيا أنها تنوى ضرب الصومال نظراً لوجود بعض الجماعات الإسلامية التي تدعم المسلمين في أرتيريا ضد التوغل الأثيوبى في بعض موانيها أو عبر حدودها.

أما الجانب العربي فقد انهمك هو الأخر في تبرئة ساحته أمام المجتمع الدولي من رعايا الإرهاب أو دعمه، وحسب التصنيف والرؤيا الأمريكية هناك دول ترعى الإرهاب، وهناك أخرى تؤويه، وثالثة تمارس سياسات تفرخ الإرهاب، ورابعة لا تبذل أية جهد لمكافحة الإرهاب وتطالب أمريكا بإجراء تعديلات جذرية في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتصل في بعض الحالات إلى تغيير نظم حكم بعينها، كما تتدرج الوسائل أيضا من مجرد ضغوط سياسية واقتصادية، إلى التهديد باستخدام القوة، مثلما حدث في أفغانستان والعراق، والتهديدات المعلنة لكوريا الشمالية وإيران وسوريا باعتبار أن هذه الدول مصنفة أمريكياً بـ(محور الشر).

كما طالبت الإدارة الأمريكية البلدان بإجراءات حاسمة لتصفية ما يعرف بـ(بؤر الإرهاب) حيث طالبت اليمن بالقضاء على عناصر أصولية لها علاقة مباشرة بتنظيم القاعدة، وحدثت مصادمات دامية بين القبائل والسلطة في اليمن أسفرت عن مقتل المئات من الطرفين في إطار إبراز حسن النية من جانب حكومة اليمن للقضاء على ما طالبت به الولايات المتحدة.

كما طالبت لبنان بتسليم عناصر بارزة بحزب الله الشيعي الموالى لإيران، والتشديد على سوريا لقطع علاقتها مع حزب الله وتصفية وجوده من الأرض السورية، مع ضرورة قيام حكومة الصومال بتسليم بعض العناصر الإسلامية التي سبق وأن عارضت التدخل الأمريكي العسكري في الصومال في مطلع التسعينيات، أما مصر والسعودية التي تعتبرها الإدارة الأمريكية من الدول الصديقة للولايات المتحدة فقد أدت أحداث سبتمبر إلى وجود توتر في هذه العلاقات بسبب أن معظم منفذي الهجوم الإنتحارى على مركز التجارة العالمي في واشنطن ونيويورك من السعودية

ومصر، وتعرضت الدولتان لهجوم عنيف من قبل وسائل الإعلام الأمريكية يدفعها لوبي صهيوني منظم على مستوى عال وطالبت بتغيير النظم السياسية في مصر والسعودية اللتين كانتا السبب في تفريخ هذه الجماعات الإرهابية، ولكنها تشعبت وشملت العراق لأنه نظام إرهابي، أو لأنه يمتلك أسلحة دمار شامل يخفيها داخل أراضيه . (٣).

حيث أشارت مجمل حملات الهجوم على السعودية إلى أنه ليس صحيحا أن كل المسلمين إنتحاريون ، بل الصحيح أن كل الوهابيين انتحاريين، وأن السعودية هي الينبوع الأساسي للإرهاب ودعمه، فهي التي أوجدت حكومة طالبان في أفغانستان، وهي التي قامت على تمويل تنظيم القاعدة، بجانب مئات المراكز الإسلامية المنتشرة في مختلف دول العالم وتقوم على نشر الفكر الوهابي وتتلقى أموالاً من المنظمات الإسلامية في السعودية وإنفاقها في أنشطة غير معروفة.(٤)

بل لقد أعلنت الولايات المتحدة أن على البلدان العربية أن تطرح مضامين جديدة غير التي تؤمن بها، الأمر الذي دفع الغرب لأن يطالب بالإصلاح الديني في الإسلام، فرئيس الوزراء البريطاني تونى بلير أشار صراحة في الخطاب الذي القاه في مقر عمدة لندن بعد أحداث سبتمبر وأذاعته الفضائيات العربية والعالمية – إلى ضرورة قيام العرب والمسلمين بإصلاح عقيدتهم ، وهو ما أطلق عليه **Mainstream slam** أي الإسلام العادي، أو الإسلام الرئيسي، بل أن صاحب نظرية نهاية التاريخ (فوكوياما) قد أعلن ذلك صراحة أن(٥) : " الإسلام منتج للإرهاب ، ومنتج لأسامة بن لادن " وأيده في المفهوم الكاتب الأمريكي الشهير (توماس فريدمان) الذي قال "أن الإسلام دين إرهابي ، ولا يصلح للعصر الحالي ، ولابد من تغييره "

والملاحظ وكما هو واضح من الطرح السابق، أن الغرب غير راض عن الإسلام الحالي، ولا مبادئه، ولا نصوصه المقدسة، ويطالب بصناعة إسلام جديد، يخلو من نصوص كره اليهود والمسيحيون والجهاد، والقتال، والتضييق على حقوق المرأة،

والانفتاح على الثقافة الغربية، كما كانت هناك دعوات من مراكز أبحاث أمريكية ورجال دين كبار في الولايات المتحدة بتصفية الوجود الإسلامي من الغرب، بل وصل التعدي على الإسلام إلى الحد الذي أشار فيه البعض إلى تفوق المسيحية واليهوذية على الإسلام، والحط من شأنه وبلغت المقارنة ذروتها عندما تقدمت مؤسسات أمريكية رسمية بطلبات لبعض البلدان العربية والإسلامية بما يجب تدريسه للطلاب بالمدارس والجامعات، وما يتعين تعليمه أو عدم تعليمه من الدين الإسلامي وعدد الساعات المقررة في الأسبوع للإسلام مع الحد من ظاهرة انتشار المساجد بالمدارس. والمصانع التابعة للدولة.(٦)

بالمقابل انشغلت النخبة السياسية والدينية العربية والإسلامية بمهمة جديدة وهي " تحسين صورة الإسلام " وهذا معناه إما أن الإسلام سيء وإما أنه حسن، وأن مناقشة هذا الموضوع في حد ذاته قد يدفع البعض للشك في الدين، والتصديق بما يطرحه الغرب من أفكار تستهدف إجمالا العمل على وقف المد الإسلامي حتى في بلدان العالم الإسلامي ذاتها.

حيث أن من الأمور التي تحدو بكثير من الدعاة الإسلاميين أن يعتقدوا أن الغرب قد أصبح قريباً جداً من الإسلام، هي رؤيتهم أن الغرب قد أصبح على شفا الكارثة الأخلاقية والاجتماعية، وأنه قد وصل القاع، ولا بد أن يبحث عن مخرج ولا مخرج له إلا بالإسلام، وكذلك رؤيتهم تحول كثير من مفكري الغرب إلى الإسلام، ومحاولاتهم تقديم الإسلام ليكون بديلاً لنظام الحياة السائد في الغرب، ومن هؤلاء المفكرين العظام الذين قاموا بتقديم الإسلام للغرب، الدكتور رجاء جارودى والدكتور.مراد هوفمان -سفير ألمانيا في الرباط- والذي كتب كتابه المثير (الإسلام هو الحل البديل)، وقد أثار هذا الكتاب زوبعة كبيرة في ألمانيا والغرب، ويقول د.مراد: "إنني أعتقد أن حركة تجديد الإسلام ستأتي في القرن الحادي والعشرين من أوروبا".

فالصورة المعروضة الآن في الفكر الغربي هي: (٧)

أولا: أن يعترف الإسلام صراحة بالمسيحية واليهودية، وأنهما ديانتين يلزم إحترامهما حتى في نصوص القرآن الكريم.

ثانياً: أن يعاد النظر في النصوص التي تدفع إلى الجهاد والعنف ضد الكفار والمشركين، وإضافة قيم جديدة تحسن من صورة الغرب عند المسلمين

ثالثًا: أن يعيد الإسلام صياغة نفسه ليقبل التعددية والحداثة والتطوير، وطرح كل ما هو جديد بصورة تحمل معنى القداسة:

رابعاً: أن يعيد المسلمون تفسير ماضيهم، وإعادة كتابة التاريخ من جديد، وحذف ما يشير إلى سوء العلاقات التي كانت بين المسلمين والمسيحيين، بما في ذلك الحروب الصليبية التي كانت على العالم الإسلامي، واعتذار المسلمين عن توغلهم في الأراضي المسيحية في فترات الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية بل والإمبراطورية العثمانية التي كان لها الدور الرائد في نشر الإسلام في مختلف دول العالم في العصر الحديث.

الإسلام المعدل أمريكياً :

إن إحدى أهم موضوعات الحوار -الإسلامي- الأوربي تتعلق بمستقبل الإسلام في أوربا على خليفة ما سبق ذكره بهذا الشأن وعلى خليفة العودة البطيئة والمحدودة إلى الدين الذي لم يختفي من الثقافة الأوربية رغم العلمانية الشديدة لهذه الأخيرة.

ويذكر (جاك استرو) وزير الخارجية البريطاني في المحاضرة التي ألقاها في معهد أكسفورد للدراسات الإسلامية في أوائل فبراير ٢٠٠٢ "أن البلدان الغربية ليست علمانية بالقدر الذي يبدو لنا ظاهرياً، فقوانيننا وأنظمة تفكيرنا لها جذور عميقة في التقاليد المسيحية واليهودية ."(٨)

ورغم أن المؤسسة الغربية في الولايات المتحدة وبريطانيا قد حرصت على تجنب الخلط بين الإسلام والإرهاب أو بين المسلمين والإرهابيين عبر العديد من التصريحات والأقوال والأفعال والتي تمثلت في زيارة الرئيس الأمريكي لمؤسسات المسلمين في أمريكا ومناشدة الرأي العام الامتناع عن الإساءة للمسلمين الأمريكان من أصول عربية وغير أوربية فإن مدركات ووعى قطاعات كبيرة لا يستهان بها على الجانبين اقتصرت رؤيتها للأحداث وتداعياتها على أنها شكل من أشكال الصراع بين الإسلام والغرب وبين الحضارة الغربية والحضارة العربية والإسلامية.(٩)

ويقول بات روبرت سون المرشح السابق للرئاسة الأمريكية أن الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) كان متطرفاً ولصاً وقاطع طريق، وأن المسلمين لا يختلفون كثيراً عن النازية أما الكتاب المقدس عند المسلمين والمعروف بالقرآن الكريم فهو مجموعة من الأفكار اليهودية سرقها محمد.

أما "صامويل هانتجتون" في "صدام الحضارات" فيرى أن الصراعات الحضارية سوف تتمحور حول ثماني حضارات هي: الحضارة الغربية الأمريكية، الأرثوذكسية السلافية، الإسلامية، الكنفوشيوسية، الهندوسية، اليابانية وربما الإفريقية، ويشير هانتجتون إلى أن التصادم سيتفاوت فى حدته بين مختلف الحضارات، إلا أن التصادم بين الحضارة الإسلامية وباقى الحضارات سوف يتم بالعنف والدموية وهو بذلك يكرس الخوف المرضى من الإسلام (الإسلاموفيا) والذى لا يفرق بين الإسلام والعنف، لذلك فهو يخلص إلى أن للإسلام حدوداً دموية، وبالتالى كان أول من أعلن عن صدق تنبؤاته، وتصوراته المستقبلية.(١٠)

إلا أن الواقع يؤكد أن عمل هانتجتون مستشارا للرئاسة وللبيت الأبيض منحته الفرصة للإطلاع على مزيد من المعلومات المخابراتية التي تنوى الولايات المتحدة القيام بها والتهديدات التي من المحتمل أن تواجه أمريكا في المرحلة المقبلة، وهذا ما جعل تصوراته تحمل شيئا من الحقيقة.

كما أكد ألفريد شيرمان المستشار السابق لمارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة في مقال نشر له في نوفمبر ١٩٩٣ تحت عنوان "الزحف الإسلامي الجديد على أوربا حيث قال: " يوجد تهديد إسلامي حيال أوربا المسيحية، وهو يتطور ببطء وما زال قابلا للمراقبة، لكن سياسات البلدان الغربية هي مسئولة عن تصاعده نتيجة الشروط الملائمة التي توفرها وتساعدها على اتساعه الاستعماري المتدرج لأوربا الوسطي، والغربية من طرف المسلمين ناتج من الحيرة الاجتماعية والروحية السائدة في أوربا، وانهيار القيم المسيحية والغربية.

ويذهب البروفيسور" ريتشارد بوليت "الأستاذ بجامعة كولومبيا إلى أن الأمريكيين تقبلوا بسرعة فكرة أن الثقافة الإسلامية فيها عنف وتطرف، ولذلك فلا يمكن قبولها أو التعامل معها، وقد يؤدى ذلك التشدد الأمريكي إلى ظهور نوع جديد من معاداة السامية يستند إلى الإسلام بدون دليل أو برهان.(١١)

وعلى ما يبدو أن هانتجتون ليس وحده الذي بحث عن " العدو" للغرب ووجده في الإسلام، وقد تحدث عن ذلك بوضوح الكاتب البريطاني (باتريك سيل) في مقال بعنوان التحالف الأمريكي – الروسي ضد الإسلام" نشرته صحيفة الحياة في ٢٠٠١/١/١٨ وحذر فيه من أفكار وزير الدفاع الأمريكي (رامسفيلد) وقال أن الغرب اعتاد الاختباء وراء عباءة(الأصولية الإسلامية) بينما يقصد في الحقيقة الإسلام نفسه، لذلك يتعمد الغربيين الخلط بين الإسلام والإرهاب لأن مفهوم الأصولية الإسلامية عندهم هو الإسلام نفسه ومنذ سنوات يجتهد مجموعة من المحللين الإستراتيجيين في مراكز البحوث الأمريكية والأوربية لمنح المصداقية للطرح الذي يعتبر أن الإسلام وامتداده الجغرافي الكبير والذي يصورونه على شكل (هلال الأزمات) هو التهديد الحقيقي للغرب أمنياً وقيمياً، وبالتالي فتركيز الانتباه على المجال الجغرافي للإسلام والمسيحية ليس من باب الإعتباط، فداخل حدود هذين المجالين الإستراتيجيين سيتحدد مستقبل التوازنات العالمية الكبرى.

أما الفيلسوف الفرنسي(ماكسيم رود ينسون) فيرى أن المسيحية الغربية تنظر إلى العالم الإسلامي على أنه خطر أكثر من اعتباره مشكلة، وقبل ذلك ردد هذا الرأي المؤرخ البريطاني الراحل (ألبرت حوراني) الذي قال أن الإسلام منذ ظهوره وهو يمثل مشكلة لأوربا، فالأوربيون ينظرون إلى الإسلام بمزيج من الخوف والدهشة ولذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا محمد (صلى الله علية وسلم) على أنه نبي حقيقي.

بل أن البعض من المفكرين والمحللين الغربيين قالوا بأن الإسلام بالنسبة للغـرب الشيوعية الجديدة حيث قال (ويلى كلايس) الأمين العام للخلف الأطلسي (سابقاً) أمام أعضاء الحلف بخصوص الأصولية الإسلامية " أن الأصولية لا تقل خطورة عما عليه الشيوعية رجاء لا تهونوا من شأن هذا الخطر.[١٢]

وبالتالي فأنة وعقب كل حادث إرهابي تظهر في سلوك الأمريكيين أثار الصورة الذهنية التي غرستها وسائل الإعلام والسينما في أذهانهم، فيتعرض العرب والمسلمون في أمريكا لمضايقات وإهانات، كما يتعرض لسيل من النكات، ويكون العربي أو المسلم هو المتهم الجاهز لكل جريمة، وحتى عندما يظهر المتهم الحقيقي لا تهتم الصحف الأمريكية حتى بالإشارة إلى الخطأ الذي وقعت فيه، وتظل الصورة كما هي.

وعندما وقع الانفجار في مدينة (أوكلاهوما) في ١٩٩٥/٤/١٩م وراح ضحية هذا الحادث أكثر من (١٧٠) مواطنا أمريكيا وإصابة المئات من أطفال ونساء، أسرعت الصحف على اتهام المسلمين بأنهم وراء الحادث، بل صرح البعض من شهود العيان بأنهم رءوا شخصا عربيا يهم بالفرار بعد وقوع الانفجار، والقصد أنه هو المدبر لها، وذكرت (C.N.N) الإخبارية الأمريكية أن مرتكبي العملية من منظمة حماس، ثم الجهاد الإسلامي المصرية ، ثم الجماعة الإسلامية بباكستان، ثم حزب الله الإيراني وبعد الحادث بيومين نشرت صحيفة (نيويورك بوست) كاريكاتيرا لتمثال الحرية، وهو محاط بثلاثة من المسلمين ذوات اللحى، ويرتدون العمائم ،

وبعد تحقيقات ثبت في النهاية أن مرتكبي الحادث ليسوا مسلمين ولكن ماذا بعد أن اكتملت الصورة.

وفي عام ١٩٩٢ أحدث أحد التقارير السرية الذي تم تسريبه من الإدارة الأمريكية ضجة كبرى في الدوائر الإستراتيجية العالمية يتعلق الأمر بوثيقة أعدها مجموعة من الخبراء برئاسة (دافيد جيرميا) نائب رئيس هيئة الأركان، وهى تعرض فى دراسة دقيقة لسيناريوهات الصراعات الممكنة بعد انتهاء الحرب الباردة، حيث تصور البنتاجون سبعة سيناريوهات لأزمات خارجية محتملة قد تجر الولايات المتحدة إلى الحرب خلال السنوات العشر القادمة. وهى كالتالي:

١. تهديد مصدره العراق لامتلاكه أسلحة دمار شامل تهديد إسرائيل.

٢. اندلاع الحرب بين الكوريتين (الشمالية والجنوبية) وامتلاك كوريا الشمالية للسلاح النووي، وبيعه لدول عدوة لأمريكا.

٣. نشوب حرب محتملة بين كوريا الشمالية والولايات المتحدة.

٤. نشوء توترات واضطرابات في دول البلطيق وآسيا الوسطي.

٥. حرب بين فصائل الجيش الفلبينى مباشرة بعد الحضور العسكري الأمريكي في الفلبين أو حدوث تآمر ضد المصالح الأمريكية في بنما بشكل يهدد حرية الملاحة في القناة.

٦. تهديد قادم من روسيا التي ستحاول القيام بعمليات عسكرية في أوربا لتحقيق أهداف توسعية.

٧. تهديد قادم من تنظيمات إسلامية ترفض التواجد الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط وآسيا الوسطي، وخاصة الجماعة الإسلامية في مصر وتنظيم القاعدة.

وفى رؤية عقلانية يرى (روبرت كابلان) أن القيم الغربية نابعة من العلمانية، بينما القيم الإسلامية نابعة من الدين، والاختلاف قد يؤدى إلى حروب ومصادمات، كما حدث في أفريقيا، وجنوب شرق آسيا ومنطقة البلقان، والقفقاس، ويضاف إلى ذلك أن آثار الصراعات القديمة بين الإسلام والغرب كالحروب الصليبية ما زالت مؤثرة في الحاضر المعاصر كما ظهر ذلك واضحا في يوغوسلافيا السابقة والحرب على مسلمي البلقان.

وفى النهاية يصل أصحاب هذا الفكر من هانتجتون إلى برنارد لويس إلى روبرت كابلان إلى أن الغرب سوف يواجه بهجوم إسلامي انطلاقا من الادعاء بأن الإسلام كدين يعادى ويرفض القيم الغربية. ومن الممكن أن يتوحد العالم الإسلامي في غضبته ضد العولمة ويحاول تحقيق حلمه الخاص بتفوق الإسلام،وسيبقى الإسلام حاجزاً بين المسلمين وبقية العالم ، كما سيبقى عاجزاً عن القيام بدور في المجتمع الدولي ، وغير قادر على إقرار نظام حكم جديد. (١٣)

وقالت "جين كيربا تريك" مندوبة الولايات المتحدة (السابقة) في الأمم المتحدة " أن العدو القادم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الأصولية الإسلامية " غير أن هذا الإعلان ظل على طاولة البحث والتداول إلى أن أعلن الحلف الأطلسي (الناتو) في بيان صدر له في ١٩٩٢/٢/٢١ بأن الأصولية الإسلامية هى العدو القادم للحلف، حيث أن الإسلام يملك مقومات سياسية شبيهه بالشيوعية، ويسعى لمناهضة المشروع الإمبريالي.

أما "بول مارى دولا غورس" رئيس تحرير مجلة الدفاع الوطني الفرنسية وأحد كبار رجال السياسة في باريس فيقول عن العداء القديم بين الإسلام والغرب "ينطلق الأوربيون في تعاملهم مع الظاهرة الإسلامية عموماً من خلفيات ثقافية وتاريخية، وفى العموم يخشى الفرنسيون بل وأوربا كلها من الظاهرة الإسلامية ويعتبرونها تمثل تهديداً خطيراً على المسيحية في الغرب.

وكتب "جراهام فولر" مقالاً في ٢٠٠٢/٩/١٠ قال فيه " إن التوتر بين العالم الإسلامي والغرب لم يكن أسوأ مما وصل إليه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأن أسامة بن لادن نجح في أحداث مواجهه بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة على الرغم من أن الأثر البعيد لهجمات ١١ سبتمبر ما زال غير واضح سواء بالنسبة للولايات المتحدة أم بالنسبة للشرق الأوسط.

وفى إطار ذلك تمارس الولايات المتحدة ضغوطاً قوية على غالبية الدول الإسلامية وبخاصة الدول العربية، بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام طالبان في أفغانستان وبنظام حزب البعث بالعراق بجانب تدعيم ممارسات الحكومات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، وإضافة إلى ذلك استفادة قادة روسيا والصين والهند والفلبين من الحرب على الإرهاب للانقضاض على الأقليات المسلمة على أراضيها وأصبحت علاقات روسيا والهند مع واشنطن أقوى مما كانت عليه في السنوات السابقة، فالأمريكيون يحملون المسلمون جميعاً مسئولية ما حدث في ١١ سبتمبر، وبالتالي كان العقاب جماعي -دول ومنظمات وهيئات وأفراد - أغلبيات أقليات مسلمة، فالكل عند الإدارة الأمريكية متهم طالما يحمل في هويته لفظ (مسلم) .

وعلى الجانب الأخر يعرف الإعلام الثقافي على أنة إيصال صور الثقافة وتجلياتها وكيفية تجسدها إلى الأخر، فعندما أقدمت حكومة طالبان بأفغانستان بهدم تراث تاريخي إنساني متمثل في التماثيل البوذية الرائعة في (بانيان) بحجة أن الدين الإسلامي يحرم التماثيل، ويدعو القفز من هذه الحادثة المحددة والفريدة في التاريخ إلى إدانة الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية بأسرها، استجابة للصورة المغروسة في الخيال الغربي للإسلام والثقافة الإسلامية.

ونقلت الأقمار الصناعية وشبكات التليفزيون العالمية مراراً وتكراراً صور تفجير التماثيل إمعاناً في تجسيد وتمثيل صورة (الجريمة) التي ارتكبها المسلمون ضد التراث البشرى، ومن هذا التجسيد جاء التأثير الأساسي للواقعة في ذهن المشاهد، وبالمقابل كان الرد العربي على هذه الجريمة موجهاً، وجاء الرد في صور فتاوى

وحوارات ومداخلات مع مشايخ تلقوا تعليمهم الديني في الأزهر، والسعودية تؤكد في مجملها أن هذه الفعلة ليست من الإسلام في شيء، وظهرت مئات المقالات في الصحف وعبر البث الفضائي للقنوات العربية لتثبت أن الإسلام بريء من تصرفات حكومة طالبان الدينية. (١٤)

ويعتبر المواطن الغربي الصراعات الدامية في شتى البلدان الإسلامية تأكيداً على الرؤية القديمة المغلوطة القائلة بأن طبيعة الإسلام تدعو للعنف، في حين نجد دعاية الرهبان البوذيين الحماسية تقدم البوذية في سرى لانكا فى صورة الديانة السلمية، تلك الصورة التى لا يمكن التشويش عليها فى الإعلام الغربى بسهولة.

وكذلك لا تتهم المسيحية أخلاقياً بسبب الصراع الدامى فى ايرلندا الشمالية، إلا أن حوادث الإرهاب والعنف والعمليات العسكرية لفرق الكوماندز الإسلامية تعبر عن الصورة التي صنعها الغرب عن الإسلام منذ مئات السنين ومن ثم يتم سريعاً الربط بين انتهاكات حقوق الإنسان في البلدان الإسلامية وبين الديانة والحضارة الإسلامية. (١٥)

على صعيد آخر فإن مسئولية العرب والمسلمين عما آلت إليه العلاقات مع الغرب لا يمكن إنكارها، وأية محاولة لا تعدو أن تكون نوعاً من إزاحة أو إسقاط المسئولية على الآخرين، وفى إطار المسئولية العربية عن تدهور هذه العلاقات وجد الغرب نفسه في إشتباكات مع عدد كبير من القضايا التي تخض المسلمين والعالم الإسلامي من بينها قضايا البوسنة والهرسك وكوسوفا وكشمير والشيشان والأقليات الإسلامية فى أوربا وأمريكا والعنف الإسلامي فى الفلبين وغيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى، خاصة مع انتهاء الحرب الباردة وتفكك الإتحاد السوفيتي السابق وظهور الجمهوريات الإسلامية الروسية التي كانت خاضعة له وما ترتب على ذلك من ظهور الحاجة إلى البعد الروحي والديني وقوة هذا الجانب في الحياة الدولية المعاصرة.

وآذنت نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين بصعود العامل الروحي والديني، وعلى نحو خاص الإسلامي كأحد العناصر المهمة في تشكيل خريطة العالم، التي بدأت تذخر بالخصوصيات الثقافية والدينية والحضارية رغم مظاهر العولمة القاسية على الصعيد الإقتصادى والثقافي وفى نفس الوقت رافق هذه التطورات احتمال تسرب أسلحة دمار شامل لعناصر أصولية متطرفة تنتمي للعالم الإسلامي(١٦) فعبارات الحروب الصليبية كما ذكرها بوش، وتعبيرات المفاضلة بين الحضارات واعتبار الحضارة الإسلامية حضارة متخلفة ورجعية كما جاء على لسان بيرلسكونى رئيس وزراء إيطاليا ونظرية نهاية التاريخ لفوكوياما، وصدام الحضارات لهنتجتون والتعامل المتعالى مع قضايا العولمة، كما ذكرها الفين توفلر فى نظريته تحول السلطة الذى أكد على أن من يملك المعلومات يملك العالم فى العصر القادم واعتبارالإسلام هو سبب تخلف الشرق الأوسط.

أما جاك أتالى فقد ذكر فى كتابه الألفية الجديدة أن على أوربا أن تأخذ موقفاً حازماً من أتباع دين محمد(صلى الله عليه وسلم) ، وحول الإسلام والغرب وذكر (فريد هاليداى) فى كتابه صدام الحضارات واقع أم خرافة ، أنه بعد الأحداث الأخيرة وقوة الولايات المتحدة والغرب ليس هناك ما يقلق الغرب من قوة العرب والمسلمين .، وفى مثلث الشؤم وقراضة وأباطرة وهما كتابان لنعوم تشومسكى يعرض لصورة العالم الجديد بدون عرب أو مسلمين، وتبع هذا النهج بيتر بارتز فى مؤلفه الحروب المقدسة، وجاء لوك فيراند فى العولمة وجون هورجان فى نهاية العالم، فليست كل هذه العبارات هفوات لسانيه أو شطحات فكرية أو مبالغات لفظية ولكنها تعبير عن جبل ثلجى فكرى يخفى نظره استعلائية وأطماع سياسية واقتصادية في العالم العربي والإسلامى. (١٧)

وقد تلاقت مقولة فوكوياما بوضع حد للحركة التاريخية للصدارة بحيث تنتهي بالغرب، ومقولة هانتجتون بحتمية الصراع بين الحضارات، ومقولة بريجنسكى الشهيرة بقوس الأزمات ومقولة برنارد لويس بأن الحضارة الغربيسة هي نتج اليهودية والمسيحية، على اعتبار أن الغرب لم يأخذ فكراً أو حضارة من الإسلام،

ومن هنا فقد تلاقت هذه المقولات لتشكل في مجموعها دعوة لتبنى عقيدة عسكرية تتخذ من الإسلام عدواً إستراتيجياً كما كانت الشيوعية في منتصف القرن الماضي، وتنادى بأن الحرب باتت ضرورة أخلاقية، مع أن البعبع الإسلامي هو صنيعه مؤسسات مخابراتية غربية كبيرة أحسنت الاستفادة من حماقات بعض المنتسبين إلى التيارات الإسلامية. (١٨)

والقضية من النهاية ليست أسامة بن لادن أو تنظيم القاعدة بقدر ما هي تسرب سياسي عسكري اقتصادي لبطن الإتحاد السوفيتي سابقاً، وتحقيق لوجود إستراتيجي غرب الصين والهند والقطط الآسيوية وشرق إيران، والخليج العربي وعلى مشارف المحيط الهندي.

وكان لهذه المراحل والخطوات التي اتبعتها الولايات المتحدة بداية من حرب أفغانستان ومروراً بسقوط نظام صدام حسين في العراق، والتهديدات المتواصلة لدول عربية وآسيوية بل أوربية أيضاً مثل كوريا الشمالية، وسوريا وإيران، والفلبين وحكومة السودان لها مدلولها السياسي والديني وبصرف النظر عمن قام بأحداث سبتمبر.

والملاحظ أن لهذه الأحداث أثاراً بالغة العمق على قضية وضع الأقليات والجاليات الإسلامية فى العالم، وكذلك قضية الديمقراطية وحقوق الإنسان والعولمة وهذا ما سنحاول طرحة برؤية جديدة في الفصول القادمة.

هوامش الفصل الخامس

١	يحيى أبو زكريا	الغرب والإسلام، ملفات ساخنة (إسلام أون لاين نت، شئون سياسية في ٢٠٠٢/١/٨)
٢	محسن عوض	إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان في ضوء تداعيات أحداث سبتمبر (معهد البحوث والدراسات العربية ،أكتوبر ٢٠٠٢) ص ٤٤
٣	ـــــــــــ	إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان، المرجع السابق ص ١٤٨
٤	جميل مطر	تداعيات أحداث سبتمبر على النظام العالمي، (معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠٠١ -٢٠٠٢ (٨) أكتوبر ٢٠٠٢) ص ٩٩
٥	محسن عوض	إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان، مرجع سابق ص ١٤٦
٦	جميل مطر	تداعيات أحداث ١١ سبتمبر على النظام العالمي، مرجع سابق ، ص ٩٩
٧	نصيف حتى	صورة العرب في الغرب (القاهرة، جامعة الدول العربية، شئون عربية، عدد (١١٠) صيف ٢٠٠٢) ص ٩٣
٨	عبد العليم محمد	الحضارات بين الصدام و الحوار (مجلة الديمقراطية ، السنة ٢٢ ، العدد (٥) يناير ٢٠٠٢) ص ١٠٩
٩	محمد سعدي	الجنوب في التفكير الاستراتيجي الامريكى (بيروت: المستقبل العربي، عدد أكتوبر ١٩٩٨) ص ٦٥
١٠	رجب البنا	الإسلام والغرب، (دار المعارف ٢٠٠٢) ص ٤١٠
١١	محمد سعدي	الجنوب في التفكير الاستراتيجي الأمريكى، مرجع سابق ص ٦٩
١٢	رجب البنا	الإسلام والغرب، مرجع سابق ص ٤٠٧
١٣	ريتا عوض	صورة العرب والإســلام في الغرب، كيف يعاد تشكيلها (مجلة شئون عربية، ربيع ٢٠٠٢) ص ١٢٠، ١٢١
١٤	كاى حافظ	الإسلام والغرب، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٢) ص٥١
١٥	عبد العليم محمد	الحضارات بين الصدام والحوارات، (الأهرام : مجلة الديمقراطية ، ص ١١٢
١٦	إسماعيل الشطي	تحديات استراتيجية بعد أحداث سبتمبر٢٠٠١ (بيروت: المستقبل العربي، عدد سبتمبر ٢٠٠٢) ص ٣٤
١٧	محيى الدين عميمور	حوار الحضارات، تواصل للصراع (مجلة شئون عربية ، عدد ربيع ٢٠٠٢) ص ١٣٤

الفصل السادس

قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية في العالم المعاصر

تمهيد :

يطوي تاريخ كل أقلية من الأقليات على عناصر فريدة خاصة بها، تتضمن العديد من الخصائص المشتركة، فإذا سلمنا بأن هناك أقليات، فلأننا نعتقد مُسبقاً بأن داخل الجماعة الكبرى جماعات لها – فعلاً – تقاليد و عادات خاصة تتميز بها عن الجماعة الأكبر.

والملاحظ أن قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية مطروحة بإلحاح شديد في هذه المرحلة التاريخية تحديدا وخاصة في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر بالولايات المتحدة وتأثير ذلك على الإسلام والمسلمين في مختلف دول العالم، وكذلك ما قد يحدثه سوء العلاقة بين الأغلبية والأقلية من عدم استقرار سياسي داخل الدولة مما يستدعى نشوب صراعات وحروب بين الطوائف والقوميات المختلفة .[١]

والواقع أن دراسة قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية تحتاج إلى العديد من الدراسات الميدانية؛ نظراً لأن طبيعة هذه المشكلات ليست واحدة في كل الدول التي تضم أقليات إسلامية بداخلها، كما تختلف هذه المشكلات من دولة إلى أخرى أومن قارة إلى غيرها [٢] ، وأن التعرف على طبيعة هذه المشكلات يتم عبر العديد من القنوات سواء الرسمية أو الشعبية، أو الدولية وذلك لما يمكن أن يشكله هذا التعرف أو الاتصال من أهمية كبيرة في التخفيف من معاناة هذه الأقليات في بلدان العالم المختلفة.

وقد أدى غياب المنهج الواضح في معالجة قضايا ومشكلات الأقليات إلى نتائج مهمة أبرزها :

١. تغلب الصراعات الثانوية بين هذه القوى على الصراعات الرئيسية على امتداد العقود الماضية، حيث تحول الصراع مع العدو الصربي

أو الهندوسي أو البوذي أو حتى العدو الصهيوني إلى مجرد شعار خطابي دون أي مضمون عملي.

٢. غلبة الخطاب السياسي الانفعالي على التحليل العلمي الموضوعي، وسيطرت العاطفة على كل المعالجات، مما أفقد القضية أهميتها

٣. الوقوع في ازدواجية الخطاب السياسي في العديد من القضايا والمشكلات المطروحة؛ فخطاب المنظمات والأحزاب في السلطة غير خطابها في المعارضة والمجتمعات المفتوحة

٤- تطرف ومبالغة في المواقف اللفظية والخطابية، يقابلها ضمور وانكفاء تدريجي في العمل الجدى بين الجماهير.

وفى هذا الإطار محاور مهمة تشتمل على رصد قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية في العالم المعاصر والتحديات والمعوقات التي تواجه الأقليات الإسلامية، ثم وضع الأقليات في الفكر الإسلامي والمواثيق الدولية.

أولاً. قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية:

١: القضايا والمشكلات الدينية
التي تواجة الأقليات الإسلامية في الغرب:

لعل الهدف الأساسي من وجود المسجد أو المركز الإسلامي في مجتمع الأقليات الإسلامية في أوربا أو غيرها، يتمثل في ربط الجماعة بالمؤسسة التي تقدم لها خدمات متنوعة في كافة مجالات الحياة، وكذلك ربط المؤسسة بالمجتمع وباحتياجاته[٣] ولكن ذلك أصبح في العالم المعاصر مصدراً للعديد من المشكلات، وتتحول المشكلات التي تتعلق بممارسة العبادة وأداء الشعائر إلى صراع حاد مع الأغلبية عند إغلاق مسجد أو هدمه أو تحويله إلى حظيرة للحيوانات، أو الادعاء بأن بأسفل المسجد هيكل لأحد الآلهة، أو بؤرة من بؤر الإرهاب، هذا بالإضافة إلى منع بعض الدول منح تراخيص للجاليات الإسلامية لإقامة مساجد حتى يؤدى فيها المسلمون شعائرهم الدينية مثل غيرهم.

فقد أحدث هدم المسجد (البابرى) بالهند كأحد النماذج الدالة على التطرف الهندوسي ضد الأقلية الإسلامية التي تعيش في وسط أغلبية بوذية، أزمة تصاعدت حدتها بين باكستان والهند من ناحية وبين الهندوس ومسلمي الهند من ناحية أخرى، أما في الاتحاد السوفيتي السابق فكانت المساجد لا تفتح إلا أمام السائحين العرب الذين يفدون على الجمهوريات الروسية لمشاهدة الآثار الإسلامية القديمة.

وفى إثيوبيا كان الرئيس الأثيوبى" هيلاسيلاسى " يمنع أداء الصلاة خوفاً من تنامي الصحوة الإسلامية هناك، حيث قام بإغلاق كل المساجد الموجودة في قرى ومدن إثيوبيا مع أن المسلمين كانوا يمثلون الأغلبية فيها آنذاك(٦٧%) إلا أنة ونظرا لبعض الضغوط الدولية على سياسته القمعية ضد المسلمين سمح لـ (٣٠٠) مسلم فقط بأداء مناسك الحج بمكة المكرمة كل عام.[٤]

وبعيدا عن أداء الشعائر الإسلامية قامت الهند بمنع طباعة القرآن الكريم أو تداوله تحت زعم أن النصوص القرآنية تهاجم العقيدة الهندوسية(٥) وكان تفادياً لحدوث أية مصادمات بين المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى، كانت العبادات في دول الكتلة الشرقية سواء بقراءة القرآن أو بأداء الشعائر يتم سراً، حتى لا يتعرض المسلمون للاضطهاد والإيذاء وكان ذلك واضحاً في بورما وبلغاريا، وروسيا، وألبانيا...).

ويعتبر المسلم أن الصلاة هي "عماد الدين " لذلك عندما رفضت كبرى إحدى الشركات المتخصصة فى صناعة السيارات في فرنسا منع المسلمين العاملين بالمصنع من أداء الصلاة امتنع العاملون عن مواصلة العمل، واضربوا عن الطعام وطالبوا بوقت لأداء فريضتهم وساندتهم المنظمات والاتحادات الطلابية الإسلامية بفرنسا حتى تحققت لهم مطالبهم، في الوقت الذي يخضع فيه مسجد باريس الكبير لإشراف الحكومة ويعين مجلس إدارته بقرار من رئيس الوزراء الفرنسي، إلا أن ممارسة العبادة شئ وتبعية المسجد إدارياً لجهة ما شئ آخر، حيث تقف السلطة – دائماً – لصالح الأغلبية لمنع المسلمين من إقامة شعائر دين.

وفي روسيا مثلاً ومنذ سنوات قليلة كان يسمح للمسلم بأداء بعض الفرائض وتمنع ممارسة الأخرى كالحج والزكاة وكانت فلسفة منعهم من أداء فريضة الحج عدم احتكاك المسلمين الروس بإخوانهم من الدول الإسلامية الأخرى، وبالتالي ينقلون صورة سيئة عن روسيا لبلادهم، الأمر الذي يؤثر على علاقة روسيا بالدول الإسلامية من الناحية السياسية، أما الزكاة فكان يتم منعها تحت زعم أن المسلمين لو أقاموا هذه الفريضة لأصبحوا الأكثر غنى وسلطاناً في البلدان الروسية، كما حذرت السلطة من صيام رمضان بزعم أنه مرهق للفرد عموماً، ونوع من التعذيب الذي لا مبرر له، هذا بالإضافة إلى كون المسلمين في هذا الشهر – كما يعتقدون – يقل إنتاجهم كعمال عن الشهور التي تسبقه.(٦)

٢: قضايا ومشكلات الأحوال الشخصية التي تواجه الأقليات الإسلامية:

إن الانتماء إلى الأقليات أو الجماعات الإثنية، لا يتم بأي حال من الأحوال بصورة إرادية، وإنما بشكل غير إرادي، حيث أن الإنسان يولد على الفطرة، ويأتي إلى الدنيا ليجد نفسه منتمياً إلى أسرة بذاتها دون أخرى وكذلك الحال بالنسبة إلى جماعته العضوية أو الإثنية التي ينتمي إليها كالدين، أو العرق، أو القومية. (٧)

ولعل الإسلام عندما ساد بلداناً كثيرةً في العالم وفتحها لم يمحوا القوانين التي كانت موجودة والتي تتعلق بالأديان، والمعتقدات الأخرى، بل قبلها بجانبه كمسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وفتح المجال واسعا أمام أهل الديانات الأخرى الاحتكام إلى أحكام الإسلام في أمر من أمورهم إن هم أرادوا ذلك، فالإسلام يفصل فيه وفق منهاجه وشريعته التي استهدفت إصلاح حال البشرية مسلمين وغير مسلمين.

أما الأقليات الإسلامية في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، فهم يتعرضون لصنوف عديدة من الضغوط لتبديل قوانين الأحوال الشخصية المرتبطة بعقيدتهم، بحجة أنها رجعية ومتخلفة وقديمة، وأن العالم كله يتجه في قيمه وقوانينه إلى العلمانية والبعد عن سيطرت الأديان ومن هذه الضغوط العمل على:(٨)

١. إضعاف سلطة الأبوية، وإسقاط القوامة عن الرجل مخالفة لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، والمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في كافة الحقوق الدينية.

٢. إقرار الزواج المدني والبُعد عن الزواج الإسلامي لأنه مقيد للحرية ويعطى للرجل الحق في كل شئ ويبخس حقوق المرأة ، وهذا منظور قاصر ينادى به الغرب ، والنهج العلماني الذي تقوم عليه معظم الدول الأوربية .

٣. إسقاط المانع الديني من زواج المسلمين من غيرهم من النساء غير المسلمات، والعكس وأن تصبح المجتمعات مفتوحة بعيداً عن القيود الدينية والعقائدية ونشر الإباحية والاختلاط.

٤. منح المرأة الحرية الكاملة في خلع زوجها إن هي أرادت ذلك، ولا مانع أن يكون بيدها العصمة مثلها في ذلك مثل الرجل وتمكينها من تطليق زوجها وقتما تشاء.

٥. منع تعدد الزوجات، حيث أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يسن هذا القانون، ويعتبره من سننه، ويرى الغرب أنه مثلما سمح الإسلام بتعدد الزوجات، فلا مانع من أن تعدد الزوجة - أيضاً - وتتزوج أكثر من رجل في نفس الوقت من باب المساواة في الحقوق أو المعاملة بالمثل.

٦. توزيع الميراث وفق القانون المدني، ولا علاقة للإسلام بقاعدة أن للرجل مثل حظ الأنثيين فهم يرون أن هذه القاعدة ضد حقوق الإنسان وضد نصوص المنظمات الدولية ، ومع أن الغرب فشل أن يفرض ذلك على مجتمع الأقليات المسلمة في الخارج إلا أن محاولاته لم تكن- دائماً -فاشلة.

وفي عام (١٩١٧) صدر المرسوم الروسي الخاص بتعديل قانون الأحوال الشخصية والذي يقضي بإحلال التوثيق المدني للزواج محل التوثيق الديني، وإغلاق كل المحاكم الشرعية وتحويلها إلى نوادي للخمر والرقص، وقضى المرسوم أيضاً - بإعدام أي أثر قانوني للعلاقة بين الزوجين أو بين الآباء والأبناء، حيث أن هذه الأمور من شأنها أن تزيد الروابط بين أفراد الأسرة المسلمة، وهذا ما كانت ترفضه الشيوعية والمذاهب الفكرية المعادية للإسلام كالعلمانية والبهائية والقاديانية. (٩)

ومع أن استقلال الجمهوريات الإسلامية عن الاتحاد السوفيتي السابق جاء مع مطلع التسعينيات من القرن العشرين لاغياً كل هذه القوانين والتشريعات المقيدة

للإسلام، إلا أن بعض المقاطعات في روسيا والصين – وما تزال – تفرض على المسلمين هذا القانون بالقوة أحيانا، وبالاضطهاد والعنف أحياناً أخرى.

٣: القضايا والمشكلات الاجتماعية التي تواجه الأقليات الإسلامية:

يُقصد بالمشكلات الاجتماعية، مجموعة المشكلات التي تواجه المسلم عندما يعيش في مجتمع غير مسلم، حيث لا تعد العقيدة مشكلة اجتماعية مؤثرة على وضع الأقليات الإسلامية. فالإسلام يستطيع أن يتعايش مع كافة الأديان والمذاهب المنافسة له، إذا تم الاتفاق على حد معين من التفاهم وحقوق الإنسان، وكفالة الحق للجميع في الاعتقاد والتدين، ولاشك أن الأقليات الإسلامية في العالم تتعرض لأشد أنواع الاضطهاد الديني الذي وصل إلى حد الإبادة والاغتصاب والقتل الجماعي بالآلاف، وتشريد الملايين الذين هاجروا من بلادهم وأصبحوا لاجئين في بلدان عديدة من العالم.

وبالتالي فإن الجوانب الاجتماعية في حياة الأقليات الإسلامية تحتاج إلى الدعم الحقيقي والمساندة الفعالة، كأن تقوم الأسرة بالتحري في المأكل والمشرب والعناية بالتربية والقدوة الحسنة، وإتاحة فرص التعليم أمام طلاب الأقليات المسلمة، وحق الأقليات في إقامة المدارس الإسلامية لأطفالهم الصغار لتأصل فيهم مبادئ التربية الإسلامية الصحيحة لديهم. (١١)

إلا أن الغرب قام بدور كبيرٍ في إثارة العديد من الجوانب الاجتماعية التي تخص المسلمين، واستطاع أن يخلق جيلاً من أبناء المسلمين من يحارب أصول العقيدة، بل والمناداة بالأخذ بالفكر الغربي، وأدخلوا في الإسلام عادات ليست منه ومارسها المسلمون على أنها قيم من الدين، كشرب الخمر، أو الاختلاط، أو أكل لحم الخنزير وتحريم لحوم البقر. (١٢)

وقد تتعدد المشاكل الاجتماعية التي تواجه الأقليات الإسلامية والتي قد يكون من مظاهرها:

- **ظاهرة الاختلاط بين الرجال والنساء في المجتمعات غير الإسلامية:**

حيث تسود جميع بلاد العالم غير الإسلامي نزعة التحرر من الضوابط الخلقية، فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة، وتحاول الكثير من هذه الأفكار المستحدثة تبنى هذا الاتجاه من باب أن هذا نوع من مجريات العصر وتطوراته الطبيعية(١٣) حتى أصبح من الصعوبة التعرف على أبناء الأقليات الإسلامية في الخارج عن غيرهم من أبناء غير المسلمين، وذلك نظراً لتزايد درجة التشابه والتقليد لأبناء غير المسلمين حتى في السلوكيات التي يرفضها الدين الإسلامي.

والواقع يشير إلى أن معالجة مثل هذه النوعية من المشكلات التي يعانى منها مجتمع الأقليات الإسلامية يجب عند تناولها الحذر الشديد، حتى لا يؤدى العلاج إلى ردود فعل عكسية تعود بالمشكلة إلى نقطة البداية، فالمجتمع الأوربي في إطاره العام خليط من أبناء شعوب عديدة يتعايش بعضهم مع البعض الآخر في المدارس والجامعات، ويمارسون مختلف الأنشطة الحياتية، وكل له ثقافته التي قد لا تظهر إلا عند القيام بممارسة هذه الثقافة، حتى في تفضيل ارتداء زى معين يخص من ينتمون إلى دين بذاته، وقد يكون من أصل عقيدتهم ومظهر من مظاهرها هذا بجانب نوع الطعام والشراب الذى يخضع عند المسلم لمعيار الحلال والحرام وفق أصول الحلال والحرام في الإسلام.(١٤)

وفي أستراليا على سبيل المثال، أدى اختلاط النساء مع الرجال أثناء عملهم في أحد المصانع الكبرى هناك إلى حدوث جرائم أخلاقية عديدة بين غير المسلمين، إلا أن تأثير ذلك من منطلق التعايش والاختلاط امتد إلى المسلمات اللاتي يعملن في هذا المصنع وأخطئن مثل غيرهن وكذلك الرجال من المسلمين وغير المسلمين. (١٥)

والثابت أن أبناء الأقليات الإسلامية يتعرضون لمغريات شتى، بما في ذلك تلقين الثقافة الجنسية في المدارس كمادة أساسية، مما قد يغرى البعض من الشباب المسلم بالانخراط في علاقات محرمة يعاقب عليها دينهم في الدنيا والآخرة وتفقدهم الكثير من هويتهم الإسلامية، وإزاء هذه السلوكيات التي يرفضها الدين الإسلامي تقوم المراكز الإسلامية بعقد الندوات والمحاضرات لأبناء الأقليات حول موقف الدين من بعض السلوكيات الاجتماعية الأوربية، إلا أن الواقع يؤكد أن بعض هذه المراكز لا تعدو كونها نوادي اجتماعية وترفيهية، قد تمارس فيها سلوكيات نهى عنها الدين الاسلامى من خلال نصوص قرآنية قاطعة، وقد لا تقوم هذه المراكز بالدعوة الإسلامية كما يجب، وقد يتم فيها تناول الخمور والاختلاط الذي يحذرون منه في محاضراتهم أمام شاشات التليفزيون، فالعديد من المسلمين الروس لم يكن لديهم أية معلومات من أن تناول الخمور وممارسة الزنا من الأمور التي نهى عنها الدين الاسلامى. (١٦)

- <u>ظاهرة رفض الزى الإسلامي في المجتمعات غير الإسلامية:</u>

يعد الزى الإسلامي بالنسبة للمرأة المسلمة مظهر من مظاهر الممارسة الشكلية للعقيدة، إذ أن مسألة الزى بالنسبة للفتاة مسألة مهمة، تؤثر في سلوكها وتحميها من كثير من المفاسد، وعادة ما تقل حدة الاختلاط إذا التزمت الفتاة بالزى الشرعي الذي أوصى به الدين الإسلامي (١٧) وقد يكون من الطبيعي رؤية النساء المحتجبات في إيران أو في مصر أو في السودان، أو حتى في باكستان أو في أفغانستان، ولكن قد لا يكون مقبولاً لدى الغرب رؤية هذا المظهر الإسلامي في أمريكا، أو في شوارع فرنسا أو حتى في تركيا التي يمثل الإسلام فيها (٩٠%) ويعتنقون العلمانية.

وفي فرنسا، أدى منع دخول الطالبات المحتجبات مدرسة (كراى) إلى هزة سياسية كبرى داخل الحكومات العربية والإسلامية، عندما أقدم (أرنسست شسينيير) مدير المدرسة بمنع الطالبات المسلمات اللاتي يرتدين الزى الإسلامي من دخول فصول الدراسة، تحت زعم أن هذا الزى يخالف التوجه العلماني الذي تنتهجه الحكومة

الفرنسية، ما دفع الرئيس الفرنسي (ميتران) – آنذاك – للتدخل في هذه القضـــية، كما أن زوجته أكدت على حرية ارتداء الطالبات المسلمات الزى الذي يتفـق مـع عقيدتهن ومع الهدف النسبي الذي ساد وقتها من هذه المشكلة إلا أن هــذا الحــادث كثيراً ما تكرر في فرنسا ولندن تحديداً. (١٨)

كما أدى هذا الموقف الأوربي– العلماني – من الزى الإسلامي إلى انقسام الهيئــات والجمعيات الإسلامية في فرنسا حول هوية الحجاب، هل يعني تغطية الجسم كلــه عدا الوجه الكفين، أم تغطية الجسم كله بما في ذلك الوجة والكفين، وهذا ما تمكــن بعض العلمانيين من بثه داخل الأقلية المسلمة في فرنسا وأصبحت المشــكلة بــين الشيوخ وأئمة المساجد بل وبين أبناء الأقليات أنفســهم حــول مواصــفات الــزى الاسلامى، وما هي الفتوى الحقيقية في هذا الشأن وخاصة وأن المسلمين في الغرب جاءوا من دول عربية وإسلامية مختلفة المذاهب والسياسات الحاكمة، إذ أن بعــض أمور الدين فى العالم العربي والاسلامى أحيانا تفسر في إطار سياسي ولــيس مــن منطلق النصوص الدينية، وان كان الرأي المرجح فــي هــذه المســألة –الــزى الإسلامي للمرأة– إظهار الوجه والكفين.

لكن سرعان ما تكرر الموقف ذاته في إحدى المدارس البريطانية بل وفى الجامعات أيضاً، حيث قامت الشرطة بمنع دخول الطالبات المحجبات المدارس والجامعات البريطانية، تحت زعم أنهن عملاء للجماعات الإسلامية المتطرفة، كما قامت مديرة إحدى مدارس (مانشيستر) بطرد طالبتين باكستانيتين لإصرار هما على الحضور إلى المدرسة بالزى الإسلامي "الحجاب" وتفاعلا مع الحدث قامت المظاهرات الإسلامية في لندن مطالبة بحق الطالبتين في دخول المدرسة وأمام الضغط الإسلامي الداخلي عن طريق الجمعيات والمؤسسات الإسلامية بلندن وإثارة القضية من خلال الصحافة العربية تمت الموافقة على عودة الطالبتين إلى الدراسة بعد فصلهما. (١٩)

• **إنتشار الجمعيات والمراكز الإسلامية في المجتمعات غير الإسلامية:**

تقوم الجمعيات في العالم عامة، والعالم الإسلامي خاصة بدور مهم في ممارسة الأنشطة المتعلقة بمختلف النواحي الاجتماعية، لما لها من تأثيرات مباشرة في الأنماط الاجتماعية والثقافية المختلفة، كما تؤدى الجمعيات والمراكز الإسلامية في مجتمع الأقليات أدواراً متميزة في المحافظة على الهوية الإسلامية للأقليات من الضياع أو التأثير عليها بأفكار هدامة.

وتأخذ هذه الجمعيات أشكالاً وأهدافاً عديدة منها الفكرية والسياسية والخيرية والاجتماعية. وقد تتبع هذه الجمعيات والمراكز الإسلامية تنظيمات دينية أو سياسية متعددة. (٢٠)

ومع أن الجمعيات والمراكز الإسلامية مجتمعه تعمل لخدمة الأقليات الإسلامية وتوعيتهم بأمور دينهم في المسائل الفقهية والأمور الحياتية، إلا أن كثيراً ما تدب بينهم الخلافات حتى داخل الجمعية الواحدة أو بين جمعية وأخرى، ويكون سبب الصراع أو الخلاف إما شخصي أو اختلاف في وجهات النظر حول موضوع ما من الموضوعان التي قد لا يدخل الدين طرفا فيها، كما يؤثر التوجه السياسي للدولة التي تنتمي إليها الجمعية على نشاط أفرادها وموقفها من الجمعيات الإسلامية الأخرى(٢١).

ومن هنا فان الخلاف بين دولة إسلامية وأخرى ينعكس بدوره على وضع الأقليات الإسلامية في الخارج، إذ أن بعض هذه الجمعيات تعتمد في تمويل أنشطتها على المساعدات والهبات من بعض أفرادها، أو من دول معينة، أما الجمعيات الأقل صراعاً فهي الجمعيات المهنية المتخصصة كالجمعية الطبية، أو الهندسية أو علماء التكنولوجيا والاجتماع المسلمين.(٢٢

وفي عام ١٩٩٤ أثارت الجمعية الطبية البريطانية موضوع الذبح على الطريقة الإسلامية، وكان حديث وسائل الإعلام العربية والعالمية لفترة زمنية طويلة، على

أساس أن العديد من الدول الأوربية تقوم بعلمية الذبح بطريقة غير إسلامية، وغير شرعية وتقوم بتصدر هذه اللحوم المذبوحة للشعوب الإسلامية وبلدان الشرق الأوسط، الأمر الذي أدى إلى رفض معظم الدول الإسلامية والعربية استيراد مثل هذه اللحوم وفق ما أعلنته الجمعية الطبية الإسلامية البريطانية – مع أنها جمعية غير حكومية – إلا بعد التأكد من ذبح الحيوانات على الشريعة الإسلامية عن طريق جمعيات طبية إسلامية معتمدة هناك .(٣٢)

وبجانب الدور المهني الذي تؤديه بعض المنظمات والجمعيات الإسلامية في الخارج تقوم هذه الجمعيات – أيضاً – بإقامة المساجد والمراكز والمدارس الإسلامية بمراحلها المختلفة، بالإضافة إلى إقامة الجامعات الإسلامية والتي يقبل عليها أبناء الجاليات الإسلامية بصورة متزايدة لتعلم أمور عقيدتهم ودينهم والعلوم الشرعية المختلفة. (٢٤)

- **ظاهرة مراسم الدفن في المجتمعات غير الإسلامية:**

على الرغم أن البعض قد يتصور ضآلة أهمية هذا العنصر في المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها مجتمع الأقليات الإسلامية، إلا أن الواقع يؤكد أن هذا العامل قد يؤدى إلى صراع ومصادمات عنيفة بين الأقلية المسلمة ونظيراتها، حيث تلتزم كل جمعية بدفن موتاها وفق العقيدة التي تؤمن بها، وقد رفضت بعض الحكومات السماح للأقليات المسلمة بدفن موتاهم على الطريقة الإسلامية، مثل الصين التي زعمت أن الأراضي الصينية ضيقة وغير متسعة لإقامة مقابر للمسلمين مع أن المسلمين في الصين يقاربون الـ (١٥٠) مليوناً حسب ما تشير أخر الإحصائيات.

والمعتاد عند المسلمين أن يلف جثمان المتوفى بالأكفان ويدفن بها من غير تابوت ، أما قانون الدفن الألماني فيلزم بالدفن في التوابيت ، لذا يلف المسلمون بألمانيا موتاهم بأكفان على الطريقة الإسلامية ثم يدفنون في توابيت وكانت مدينة أخن أول المدن الألمانية التي أباحت الدفن في غير توابيت ، في الوقت ذاته أصدرت دار

الفتوى بالمملكة العربية السعودية فتوى جواز دفن المسلم فى تـابوت إذا اقتضـت الحاجة ذلك.

وتختلف طريقة الدفن الإسلامية من مكان لأخر؛ نظراً لـدخول بعـض الأسـاطير والخرافات عليها، ففي استراليا كان المسلمون هناك يخالفون الإسلام فـي طريقـة الدفن فكانوا يذبحون خروفاً أمام قبر المتوفى، أو يشعلون ناراً دائمة تمتـد لأيـام عديدة أو يدفنون موتاهم في صناديق خشبية كما يفعل المسيحيون عند دفن موتاهم، حيث ما تزال مسألة دفن موتى المسلمين تسبب قلقاً شديداً في الصين والهند وتايلاند حيث تجبر الحكومات المسلمين على دفن موتاهم فـي المقـابر العامـة(٢٥)، إلا أن المشكلة هنا تكمن في أن الوضع الاقتصادي للمتوفى قد يحدد مكان وطريقة دفنـه وحسب مكانة المتوفى في المجتمع الذي يعيش فيه ، وهذا ما عليه الحـال بالنسـبة للأقليات الإسلامية في معظم الدول الإفريقية؛ ومن العادات الغريبة في دفن الموتى في ألمانيا ألا يدفن المتوفى إلا بعد يومين من وفاته، وبالتالي كان على المسـلمين هناك إتباع ذلك، باعتبار أن هذه العادة لها قوة القانون.

- **<u>الأطعمة والأشربة الحلال والحرام في المجتمعات غير الإسلامية:</u>**

تناولت العقيدة الإسلامية ما أحل للمسلم أكله وشرابه فقد يصبح ما هو حلال عنـد المسلمين، حرام على غيرهم، فالأطعمة في الإسلام حلال إلا ما تم تحريمه بـنص من القرآن والسنة. كما أن الإسلام يمنع أكل اللحوم (المُحللة) إلا بشرط أن يـذكر اسم الله عليها، ويتم ذبحها على الطريقة الإسلامية.

وفي أوربا تتم عملية الذبح إما بالصعق الكهربائي، أو بالضرب بشدة على الرأس، أو تغطيس رءوس الدجاج في ماء مكهرب أو الخنق كيماوياً وتحـدث بعـد ذلـك الوفاة، إلا أن الإسلام يرفض هذه الطرق مجتمعة لأن عملية الصعق من شـأنها أن تبقى الدماء في جسد الذبيحة وخاصة في الأنسجة والخلايا، وقد يحتوى هـذا الـدم على مواد سامة تنقل إلى الإنسان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مما قـد تصـيبه

بالأمراض الخطيرة، وهذه الطريقة لا تختلف كثيراً عن ضرب الحيوان بشدة فوق رأسه أو خنقه بالكيماويات.

وهذه الطرق والتي تتبعها الدول الأوربية في عمليات الذبح ليست إسلامية، وإن كانت تصلك على اللحوم الأوربية المجمدة والمستوردة من أوربا عبارة "ذبحت على الطريقة الإسلامية وهى عكس ذلك تماما"[٢٦] وأدى الكشف عن هذه القضية إلى قيام بعض المسلمين بإقامة مطاعم خاصة بهم، ونجحت التجربة في بلدان أوربية وآسيوية عديدة، إلا أنهم لم يستطيعوا الإقلاع عن تقديم الخمور لزبائنهم.

٤: القضايا والمشكلات الاقتصادية
التي تواجة الأقليات الإسلامية :

القاسم المشترك في الوضع الاقتصادي للأقليات الإسلامية في الخارج أنها تعاني من التخلف الاقتصادي، وقلة فرص العمل للجنسين، هذا فضلاً عن الفقر والجهل والمرض وتدنى الخدمات التي تقدم لهم من الحكومات غير الإسلامية، ويرجع سبب هذا الانحسار إلى السياسة الاستعمارية وسياسة الكنيسة التي ركزت خدماتها على طوائفها، وجعلت إدارة المؤسسات الاقتصادية في أيدي المسيحيين، في الوقت الذي حرمت فيه مناطق الأقليات الإسلامية من كل هذه الخدمات حتى وإن كانوا يمثلون الأغلبية في منطقتهم[٢٧] وإزاء تزايد حالات الفقر والجوع قام العديد من أبناء الأقليات الإسلامية باستبدال أسمائهم بأسماء أخرى مسيحية، للحصول على فرص عمل، وبالتالي أصبح بإمكان كل من يرغب في العمل في مصالح وهيئات الدولة عليه – فقط – أن يستبدل اسمه بآخر مسيحي، ولا مانع من أن يمارس بعض الطقوس المسيحية، ليثبت من خلالها إخلاصه وولائه الكامل للدين الجديد، وان كان هذا لا ينفى جانب التضييق على المسلمين في وظائفهم وقلة دخولهم، وتعطيل المشروعات التي يقومون على تنفيذها.

٥: القضايا والمشكلات السياسية

التي تواجه الأقليات الإسلامية:

تبتعد الكثير من الأقليات الإسلامية في العالم عن الاقتراب من السلطة، أو المشاركة في النواحي السياسية المتعلقة بالترشيح في الانتخابات أو بالتصويت داخل صناديق الاقتراع، نظراً لتشتتهم المذهبي والاكتفاء بحق المواطنة، بجانب بعض الحقوق الاجتماعية الأخرى[٢٨] فالتقرب من السلطة أو المشاركة السياسية فيها يؤدى إلى فتح حوارات ديمقراطية بين المسلمين وغير المسلمين من المفكرين والسياسيين، يمكن عن طريقها استصدار قوانين لصالح الأقلية، أو رفع الظلم عنها، كما أن حالة الانعزال السياسي التي تفرضها بعض الأقليات الإسلامية على نفسها ليس له ما يبرره في ظل مجتمعات مفتوحة تسمح بالرأي والرأي الأخر، وبتشكيل الأحزاب والتنظيمات السياسية المختلفة، وعلى الجانب الآخر قد تختلف هذه الصورة تماماً، حيث تسلب من الأقليات الإسلامية حقوقها السياسية في ظل مجتمعات ديمقراطية تعتنق المبادئ الديمقراطية، أو ديكتاتورية، أو معادية للإسلام.

وفي فرنسا ما تزال ترفض الحكومة منح عشرة مليون مسلم حقهم في ممارسة نشاطهم السياسي المفروض، وذلك بسبب العنصرية المسيطرة على نظام الحكم فيها[٢٩]، كما لا تحظى الأقليات الإسلامية بأدنى نسب التمثيل في الحكومات والمجالس النيابية والبرلمانية، مثلما يحظى أفراد الأديان الأخرى، وإن تمت مشاركتهم فيكون في نواحي سياسية معينة، ويكون دورهم هامشي ولا يؤخذ برأيهم في الأمور التي تخص الدولة، وإن كانوا من أهل البلد الأصليين [٣٠] ومن هنا يمكن القول أن الانعزال السياسي يعكس نتائج سلبية على وضع الأقلية المسلمة في الغرب حيث يؤدى ذلك إلى إضعاف صوتها في العديد من القضايا السياسية أو حتى غير السياسية وبالتالي قد تصدر القوانين لغير صالحها، الأمر الذي يؤدى في النهاية إلى مزيد من الظلم والاضطهاد الديني لأبناء الأقليات المسلمة في أوربا.

والنظام السياسي في تركيا – مع أن المسلمين يمثلون الأغلبية إلا أن التيار العلماني الحاكم – يرفض قيام أحزاب على أسس دينية، فتم إلغاء حزب الرفاة ثم حزب الفضيلة الإسلامي الذي أسسه "نجم الدين أربكان "رئيس وزراء تركيا الأسبق. وكذلك الحال بالنسبة لدولة طاجيكستان وكل الجمهوريات الإسلامية الروسية. حيث يتولى الحكم عناصر من الحزب الشيوعي السابق.(٣١)

ومن هنا يمكن القول إزاء هذه القضايا أن الأقليات الإسلامية في العالم – كبيرة كانت أم قليلة – فشل أعضاؤها في أن ينظموا أنفسهم سياسياً، وأصبحت السمة الغالبة بينهم الصراع والتشرذم والخلاف حتى أن التنظيمات الكبرى مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، أو رابطة العالم الإسلامي، أو الاتحادات الطلابية الإسلامية بأوربا والندوة العالمية للشباب الإسلامي كلها تنظيمات هامشية ليس لها أية تأثير في الواقع العملي والفعلي، وقد يدب الخلاف بين أعضائها على أهون الأمور كما لا تتمتع أي من هذه الهيئات بالفعالية السياسية المؤثرة على النظام السياسي الذي تعمل في إطاره لا على المستوى المحلي أوحتا على المستوى العالمي.

٦: القضايا والمشكلات القانونية
التي تواجه الأقليات الإسلامية:

لقد أدى التمييز العنصري ضد الأقليات الإسلامية في العالم وخاصة في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى تضخيم أي خطأ يقع من مسلم، على أنه سلوك أغلبية وعموم المسلمين، فالمساواة والإخاء والحرية مبادئ مثالية تضمها الدساتير والقوانين، وترددها القيادات السياسية في المحافل الدولية، إلا أنها خاوية المضمون، وعديمة الفائدة، حيث ما تزال توجد دولاً في أوربا ترفض الاعتراف بقانونية الدين الإسلامي على أرضها.(٣٢)

كما أن المسلم أمام المحاكم الأوربية قد لا يتساوى مع غيره من أبناء الديانات الأخرى، بل تضاعف له العقوبة إن كان متهماً في جريمة ما، فضلاً عن المعاملة السيئة التي يتعرض لها المسلم داخل السجون، ومنعه من أداء الصلاة في زنزانته،

وخاصة بعد أن تم الكشف عن وجود أكثر من (٢٥٠٠) سجين أمريكي كانوا قد أعلنوا إسلامهم في أحد السجون الأمريكية عن طريق مسلمين يحاكمون بتهم ليعلمون عنها شيء وعلموهم مبادىء الإسلام والدعوة للإسلام داخل السجون، كما أن قضايا الأقليات الإسلامية وحقوقهم التي يطالبون بها لا تجد صدى أمام المحاكم الأوربية أو الأمريكية كما أن الدستور الروسي مازال يضم مادة في دستوره تبيح تحويل المسجد إلى مصنع.[٣٣]

٧: القضايا والمشكلات الإعلامية

التي تواجه الأقليات الإسلامية:

تلعب وسائل الإعلام دوراً مهماً في تحقيق الأهداف البعيدة لاستراتيجية الهيمنة الغربية، وأخذ النظام الإعلامي في بعض البلاد الإسلامية بالأسلوب الغربي القائم على الإبهار والإثارة وتسلية جمهور المشاهدين لقتل الوقت وتهييش القضايا المهمة وكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، ففي عام (١٩٩٢) نشرت مجلة التايم الأمريكية وعلى غلافها الخارجي صورة فوتوغرافية لمئذنة مع يد إنسان يحمل رشاشا. وأعلاها عنوان رئيسي مثير على الغلاف الخارجي يقول "هل على الغرب أن يخاف من الإسلام"، وداخل المجلة عدد كبير من التقارير كتبها مراسلوها يتحدثون فيها عن انتشار الإسلام في أوربا للوصول إلى حقيقة مفادها "هل حقاً الإسلام مصدر التهديد الأول للغرب ؟؟ والإشارة إلى أن عداء الشيوعية للإسلام لم يستمر أكثر من سبعين عاماً، وسقطت دون أن تتدخل في سقوطها أي قوة خارجية، أما عداء الغرب للإسلام فهو صراع أزلي قارب على (١٣٠٠) عام تقريباً.[٣٤]

ويشتمل الدور الإعلامي في مجتمع الأقليات الإسلامية على الأتي: [٣٥]

الإعلام الوقائي:

ويتمثل في الدور المنتظر للإعلام العربي والإسلامي في صد الهجمات الإعلامية العنيفة على المسلمين، فالإعلام العربي متهم بالتبعية للإعلام الغربي، وأنه لا يعدو

كونه سوى إعلام ناقل، وغير واع غالباً بما ينقله، حيث قد ترجع مسألة التبعية الإعلامية العربية والإسلامية للغرب إلى كون الإعلام في هذه المجتمعات إعلام سلطوي يعنيه – كثيراً – أن ينصرف الناس عن الحديث في المسائل السياسية داخل إطار الدولة .[٣٦]

الإعلام البنائي:

ويكاد هذا النمط يتفق في أهدافه مع سابقه، فالإعلام البنائى يقوم على نشر الخبر الصادق الموضوعي، والاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين في الخارج ودعم الأنشطة الإسلامية التي تقوم بها الأقليات، وبالتالي يلزم تكامل النمطين، الإعلام البنائى الذي يقوم على العطاء الروحي والعقائدي والإعلام الوقائي المضاد الذي يدافع عن الإسلام و حماية الأقليات الإسلامية المتناثرة في العديد من دول العالم من التيارات والأفكار والمذاهب الهدامة، والتي قد تضر أكثر ما تنفع، وتفسد أكثر ما تصلح.

وإن كان الدور البنائى والوقائي لم يظهر أثرهما إلى الآن في الإعلام العربي أو الإسلامي، في الوقت الذي تفتقد فيه معظم الأقليات الإسلامية إلى الإعلام من صحافة، وقنوات إذاعية، ومحطات تليفزيونية، ووكالات أنباء عالمية، فصحافة الأقليات، من النوع الضعيف شكلاً ومضموناً، ولا تتمتع بمداومة الصدور، بل قد يتم إصدار المجلة أو الجريدة مرة أو مرتين في العام، ولا يزيد حجم المطبوع على ألفى نسخة، وتوزع غالباً باليد على المراكز الإسلامية .[٣٧]

كما أدى تدنى المستوى الاقتصادي للأقليات الإسلامية إلى صعوبة امتلاك محطات تليفزيونية أو إذاعية، والاكتفاء بتأجير فترات زمنية في المناسبات الإسلامية، كالأعياد والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبشهر رمضان، يقابل هذا الإعلام الضعيف والهزيل هجوم إعلامي غربي على كافة المحاور، والوسائل الاتصالية والتقنية الحديثة على الإسلام، يستهدف سحق هوية الأقليات المسلمة، وطمس شخصيتها وثقافتها، وإخضاعهم في كثير من الأحيان إلى الاضطهاد البدني

والفكري والسلوكي لدفعهم بكل قسوة إلى التخلي عن معتقداتهم وتقاليدهم وثقافتهم الإسلامية.[٣٨]

ومن ثم فإن الحفاظ على الهوية الإسلامية للأقليات المسلمة عقائدياً وسلوكياً وفكريا، يقتضى من الأنظمة الإعلامية العربية والإسلامية أن تلعب دوراً في هذا الشأن، بالإضافة إلى أن الأقليات الإسلامية في حاجة شديدة للإعلام والتواصل الثقافي مع أقرانهم من المسلمين، فالحاجة ماسة لإنشاء إذاعات إسلامية موجهة في مختلف بلدان العالم على غرار ما تقوم به الفاتيكان[٣٩]، وكذلك صحف إسلامية واسعة الانتشار وبلغات عديدة وقنوات تليفزيونية تبث تعاليم الإسلام الصحيح لمواجهة الهجمات والحملات الشرسة التي تقوم بها وسائل الإعلام الغربية من تنصير وتبشير.

٨: القضايا والمشكلات التعليمية والتربوية التي تواجه الأقليات الإسلامية

يستهدف مفهوم التربية والتعليم في الإسلام، تحقيق التوازن بين العقل والروح والجسد من ناحية، وتحقيق المفهوم الكامل لمعنى العبادة في الإسلام من ناحية أخرى، وهذا الهدف السابق يحتاج إلى أمرين هامين: [٤٠]

أولهما دراسة العلوم الإنسانية والإطلاع على مختلف الثقافات بهدف التعلم، والثاني التعليم الديني الذي يجب ألا ينفصل عن العلوم الكونية في المدارس والجامعات، وكل منهما مكمل للأخر، فقديماً حاولت روسيا " ترويس " المجتمعات الإسلامية التي كانت خاضعة لها، فلم تتمكن من ذلك، وقامت الصين هي الأخرى بمحاولة "تصنين" أقليم تركستان الشرقية ذات الأغلبية المسلمة، وفشلت كسابقتها، مع أن مشكلة التعليم بالنسبة لأبناء الأقليات تكمن في عدم وجود الكوادر ذات الكفاءة العالية الصالحة للعملية التعليمية، فمعظم الوافدين من الدول العربية للتدريس في مجتمع الأقليات لا يجيدون اللغة العربية أساساً.[٤١]

كما ظل الأمل يراود الحكومات السوفيتية فيه طويلاً حتى تسود الثقافة الروسية في دول الاتحاد كلها فتتوحد على لغة وثقافة واحدة، مما يعنى دمج الشعوب وإذابة القوميات فى قومية واحدة وهى "الروسية"، وإن كان هذا لا ينفي عدم تأثر بعض الشعوب المسلمة بالثقافة الغربية والذوبان فى اللغة القومية لهذه الدول، حتى أصبحت اللغة العربية لهؤلاء الأطفال الذين تربوا وتعلموا فى المدارس غير الإسلامية من اللغات القديمة[٤٢] إذ أن من أخطر المشكلات التربوية التي تواجه مجتمع الأقليات الإسلامية في الخارج هي أن المسلم لا يعيش في المجتمع الذي يرتضيه ويأمن فيه على إسلامه وعقيدتة، فهو مجتمع غير مسلم وبيئة لا تدين بالإسلام، فمهما تعددت وسائل التربية ومؤسساتها، فسوف يظل المجتمع هو الرحم الذي تتكون بداخله شخصية الفرد وهذا ما يضع عبئاً مضاعفاً على رب الأسرة، الذي عليه أن يبث القيم والأخلاق والسلوكيات الإسلامية الحميدة لأبنائه، كلما أتيحت الفرصة لذلك.

والمدرسة الغربية اليوم لا تنشيء إلا إنساناً مادياً نفعياً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يؤمن إلا بالحياة الدنيا فقط، ويتعلم كيف يستمتع بحياته إلى النهاية، وكيف يشرب كأسه إلى الثمالة، وكيف يكسب ما يقدر عليه باذلاً غاية الجهد والكدح، وينفق ما كسبه في هذه الحياة استمتاعاً ورفاهية ورضاً بالحياة الدنيا، هذا إلى استباحته كل حرام يستبيحه المجتمع، ويتعارف عليه الناس، واستعظامه أن تتدخل شريعة الله في شئونه الخاصة، أو يكون للرسل والمعلمين والمربين توجيههم العلوي، ورسالتهم التربوية..، فالفلسفة المادية الغربية اليوم تقوم على أن الإنسان سيد نفسه، ومصدر قراره، ومنبع أخلاقه، والحكم على تصرفاته، وما ارتضاه الناس فهو الشرعة وما رفضه الأغلبية فممنوع، ولا حد للتشريع ينتهي إليه، ولا غاية يقف عندها، وليس هناك ثوابت في الأخلاق والقيم، إنما الثابت الوحيد هو الحياة، والمتعة والنفع.

ومن هنا كان الاهتمام بإقامة المدارس في مجتمع الأقليات الإسلامية لتربية الطفل أولاً وتعليمه ثانياً المبادئ والأسس المنهجية التي تكفل له سبل الحماية داخل

المجتمع غير الإسلامي، الذي يتفاعل معه ليل نهار، بجانب الاهتمام بالعلوم الإنسانية والكونية التي تعمل على تخريج الكوادر العلمية والإسلامية المتميزة، أما المشكلة الثانية التي تواجه الأقليات الإسلامية في أوربا وأمريكا فهي تتمثل في التحدي اللغوي، القائم على محو اللغة العربية، إذ أنها تفكر الغرب دائما بالإسلام وبالحروب الصليبية التي دارت رحاها بين المسلمين والمسيحيين، وكانت الغلبة وقتها للإسلام، فالغرب يريد أن يفرض لغته على كل الأقليات التي تعيش معه على أرض واحدة، وتكون الخطوة التالية بعد اللغة فرض ثقافته بما في ذلك عقيدته التي يؤمن بها؛ لهذا عملت الجمعيات الإسلامية في الخارج على إقامة المدارس الإسلامية لتكون هي النواة الأولى للمحافظة على الهوية الإسلامية عند أطفال المسلمين في الخارج.

وعلى الجانب الأخر رفضت الصين إقامة أي مدارس إسلامية على أرضها، وكذلك الهند، الأمر الذي جعل المسلمين يقومون بتعليم أولادهم اللغة العربية وأصول عقيدتهم داخل منازلهم، وفى الأماكن المغلقة خوفاً من بطش السلطة، كما كانوا يفعلون في روسيا أثناء سيطرة الحزب الشيوعي قديماً، هذا في الوقت الذي وافقت فيه فرنسا على اعتبار اللغة العربية لغة ثانية في المدارس لمن أراد أن يتعلمها، بشرط أن تكون بعيدة عن أمور العقيدة، وكذلك السماح بإقامة المدارس الإسلامية، بعد أن كانت رافضة لإقامة مثل هذه المؤسسات منذ سنوات.

فاللغة العربية تمثل رابع لغة قومية في العالم وفق عدد المتحدثين بها، كما أنها ترتبط بلغات عديدة أخرى كاللغة الأردية والسواحيلية وكذلك تضم اللغة الهوساوية مفردات عربية تصل لـ (٤٠%) كما تشتمل لغة الفولاني في إفريقيا على ألفاظ عربية عديدة .

٩: القضايا والمشكلات الديموغرافية للأقليات الإسلامية في الغرب:

يشير تقرير منظمة المؤتمر الإسلامي حول مناطق تجمعات الأقليات الإسلامية في العالم إلى أن الأقليات الإسلامية يتواجدون في (٩١) دولة من دول العالم.[٤٣]، ويبلغ التعداد العام للمسلمين مليار ومائتي مليون نسمة (أغلبيات وأقليات) وهو ما يمثل (٢٣,٢%) من مجموع سكان العالم.[٤٤] بينما تصل نسبة الأقليات الإسلامية في العالم حوالي (٥٠٠) مليون نسمة، حيث تثير مسألة التزايد المطرد بالنسبة للمسلمين في العالم قلقاً شديداً للديانة المسيحية بطوائفها المتعددة (الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتينية..) كما يقلقهم - أيضاً - هجرة المسلمين المتزايدة من أوطانهم ليستقروا بأسرهم في أوربا وأمريكا، ويتحولون من أغلبية على أرضهم إلى أقليات في مكان أخر، وقد يكون لدى هذه الفئات المهاجرة ما يبرر هجرتها لتعيش في مجتمع الأقليات مثل:

١. اضطهاد المسلمين في الدول الشيوعية خصوصاً في دول شرق أوربا وتركستان الشرقية، وبلاد القرم والتتار في روسيا الأوربية.

٢. البحث عن سبل للرزق أفضل من هذه البلاد حيث أن الاستعمار لم يغادر الدول الإسلامية إلا بعد أن أصابها بالفقر وقضى على اقتصادها لعشرات السنوات القادمة.

٣. الرغبة في استكمال الدراسات العليا، واكتساب خبرات ومهارات جديدة عن المجتمعات الغربية، والاستفادة من التقدم الأوربي في مجالات التقنية الحديثة.

٤. إعلان الحرب على المسلمين؛ فيتحولوا من مواطنين إلى لاجئين مثل ما حدث لمسلمي البوسنة والهرسك، وكشمير، وبورما، والفلبين، وفلسطين، والشيشان، وأذربيجان، وأبخازيا وإثيوبيا، والصومال ...).

وإزاء هذا التزايد في أعداد المسلمين في الهند والصين والعديد من الدول الأوربية وضعت الحكومات ضوابط لمنع زيادة المواليد، وأنزلت على كل مسلم يخالف هذه الضوابط عقوبات بالسجن والغرامة، حيث قامت المظاهرات في شوارع فرنسا مع مطلع التسعينيات تطالب بطرد المسلمين وذلك بعد أن نشرت الصحف خبراً يؤكد أن تعداد المسلمين في فرنسا يبلغ عشرة ملايين مسلم، مما أزعج ذلك الطائفة الكاثوليكية بفرنسا، ورد بابا الفاتيكان على المتظاهرين بشأن تزايد نسبة الأقليات الإسلامية في فرنسا في بيان رسمي طمئن فيه المسيحيين في أوربا على مستقبل دينهم " وقال: طالما أن أطفال المسلمين في مدارسنا وتحت سيطرتنا، فهذا التزايد لصالح المسيحية وليس يضرها في شئ".(٤٥)

أما إحصائيات الأمم المتحدة بالنسبة للاجئين فتشير إلى أن المسلمين هم الأغلبية في عدد المتضررين من الحروب والكوارث الطبيعية كما أدى عدم التنسيق بين المنظمات الإسلامية المهتمة بالإغاثة والتعاون فيما بينها إلى ظهور هيئات غير حكومية ليست إسلامية تقوم بأعمال الإغاثة وهى في الواقع منظمات وهيئات مسيحية تعمل وفق مصالح وأهداف خبيثة الهدف منها القضاء على كل ما هو إسلامي أو يمت للإسلام بصلة.

كما بلغت درجة التجاهل من العالم الإسلامي بإخوانهم في منطقة البلقان إلى قيام بعض التجار والسماسرة الأوربيين بالمتاجرة بأبناء المسلمين في البوسنة والهرسك تحت زعم منظمات إنسانية لإغاثة اللاجئين حتى أن بعضهم قام بإهداء ثلاثة آلاف طفل بوسنوى لبابا الفاتيكان وذلك لخدمة الرب يسوع المسيح، وهذا ما يؤكد أن ارتفاع نسبة المواليد في أواسط المسلمين وتزايد معدلات الهجرة الإسلامية إلى أوربا، وكذلك تزايد نسبة اللاجئين من العوامل الديموغرافية المهمة التي تعنى بها مراكز البحوث والدراسات الأوربية، وتسبب قلقا في الأوساط المسيحية واضطهاداً دينياً واضحاً للحد من تزايد المسلمين أو من انتشارهم.

١٠ : القضايا والمشكلات المتعلقة بالدعوة في المجتمعات غير الإسلامية:

تحمل كلمة الدعوة خمسة معاني، كما وردت بالقرآن الكريم، فقد جاءت لتفيد معنى الاستغاثة والرجاء والسؤال، وبمعنى العبادة، وجاءت بمعنى النسب والإلحاق وبمعنى الترغيب في دين الله وأخيرا حملت معنى توجيه الناس إلى تبليغ دين الله والدعوة إليه [٤٦] حيث أن نشر الدعوة الإسلامية خارج الديار الإسلامية يعد من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، في الوقت الذي لم تعد هناك أنظمة إسلامية تشجع على مبدأ الدعوة لدين الله في الخارج، وأقتصر دور الأزهر في هذا الجانب على إرسال مبعوثين لإحياء بعض الليالي الرمضانية، أو أئمة ومقرئين يؤدون شعائر الإسلام دون أن يكون لهم أدنى مساهمة في الدعوة في مجتمع غالبيته تفتقد الجانب الروحي، وفى حاجة لمن يأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

أما الدعوة الإسلامية فتقوم اليوم في أوربا وأمريكا على أيدي بعض المنظمات والحركات الإسلامية كالصوفية والإخوان المسلمين والدعوة الإسلامية السودانية والتبليغ والدعوة..)، ولكي تقوم الدعوة الإسلامية بدورها المنشود في مجتمع الأقليات يجب أن يتوافر لها ثلاث عناصر رئيسية هي:

- <u>التخطيط القائم على الدراسة</u>: ويتمثل في الموضوعية وإعداد الدراسة الوافية حول البيئات التي تعيش بها الأقليات المسلمة والمشكلات التي يتعرضون إليها والمرتبطة بالنواحي العقائدية، مع الوضع في الاختبار رفض أوربا للدين الإسلامي منهجاً وسلوكاً.

- **<u>توفير الامكانيات المادية</u>**: وذلك لمناصرة الأقليات المسلمة وصد الهجمات التنصيرية ضد المسلمين في أماكن عديدة من العالم، وتوفير وسائل إعلام قوية تساند قضاياهم وتدافع عنهم وتتبنى مشكلاتهم.

- **التأهيل الشامل للدعاة**: حيث يشترط أن يكون الداعية عالماً بأمور الدين أولاً، ثم مثقفاً ثقافة شاملة، ولديه الدراية الكاملة بالبيئة التي سيدعو فيها للإسلام، بما في ذلك النظم السياسية والاقتصادية والنواحي الاجتماعية داخل المجتمع ذاته، ولعل المشكلة الأخطر تكمن في افتقاد العالم الإسلامي إلى وجود المؤسسة المرجعية الواحدة منذ سقوط الخلافة العثمانية (٤٧)

والملاحظ بعد استعراض المشكلات والمعوقات التي تصادف مجتمع الأقليات الإسلامية في العالم تصبح الحاجة ماسة لإيجاد دور فعال للخطاب الإعلامي العربي والاسلامي لمناصرة قضايا المسلمين عامة والأقليات خاصة وذلك من خلال القاعدة التي تقول " أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً وخاصة في ظل الحملة التي تشنها وسائل الإعلام الأوربية على الأقليات الإسلامية في العالم وتحميلها وزر ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

ثانياً: التحديات التي تواجه الأقليات الإسلامية

في المجتمعات الغربية :

تواجه الأقليات الإسلامية في الخارج تحديات كثيرة، ذات تأثير بالغ ومباشر على أمنها واستقرارها، وتتنوع ما بين مذاهب تستهدف تشويه الدين والعقيدة وأخرى تستهدف التأثير على سلوكيات المسلمين في مجتمع الأقليات الإسلامية، ومن هذه المذاهب والأفكار الهدامة (الماسونية ،والعلمانية، والشيوعية، والبهائية، والقاديانية، والحركات التبشيرية، واليهودية، والصهيونية، والبوذية، والهندوسية).

حيث تقوم بعض هذه الحركات بالسيطرة على وسائل الإعلام والثقافة في أي دولة كانت، والبعض الأخر على ترويج المخدرات وأفلام الجنس والرذيلة والدعوة إلى تحقير علماء الدين والحط من قدرهم، وتشجيع الفكر الهدام، كما تقوم هذه المذاهب والأفكار – أيضا – على الدعوة إلى التعليم العلماني اللاديني، وإبطال الشريعة الإسلامية والخروج عن ضوابط الأديان، واعتبار الدين الإسلامي من الأديان القديمة التي لم تعد تصلح للقرن القادم، وفى هذا الصدد يتم تناول هذه الأفكار والمذاهب من عدة زوايا تشتمل على نشأتها والأفكار التي تؤمن بها، ومدى تأثير هذه المذاهب على الوضع السياسي والاجتماعي للأقليات الإسلامية في العالم، للكشف عن حقيقة أهدافها، وإن كان بعض هذه المذاهب تدعى أنها تعمل للإسلام وللدعوة الإسلامية كالقاديانية على سبيل المثال:

١- الحركات التبشيرية :

تعود عمليات التبشير المسيحي إلى فترات زمنية متباعدة وخاصة بعد إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها والسيطرة على الأراضي الإسلامية في الشرق، فعمل – الغرب وخاصة فرنسا – وبدوافع التعصب الديني على شن حملات صليبية من نوع جديد، تمثلت في قوافل المبشرين وباباواتهم وذلك لغزو العالم الإسلامي ثقافياً بعد أن فشلوا في غزوه عسكرياً. (٤٨)

فالنصرانية اليوم لا تختلف كثيراً في مضمونها وأهدافها عن اليهودية قديماً وحديثاً، حيث تعاني هي الأخرى من تعقيد المفهوم، وصعوبة مخاطبة العقل والمنطق. وانعدام الأسس التي تقوم عليها العقيدة، فالنصراني حتى يصبح مؤمناً بالمسيحية، عليه أن يؤمن بعقيدة التثليث (الأب والابن والروح القدس).[٤٩]

كما أن المتطلبات الدينية للدخول في الإسلام أقل بكثير من طقوس التعميد عند المسيحيين حتى أن الأناجيل تعددت ولم يعد الكثير من المسيحيين يعتقدون في صدق أياً منها.

والملاحظ أن المسيحية كدين وعقيدة لم يعد لها وجود حقيقي، كدين سماوي فالكاثوليكية قامت على ما رسمه (بولس الرسول) الذي تنسب إليه المسيحية المنتشرة في العالم اليوم، بما في ذلك البروتستانتينية بمذاهبها المتعددة، وإن كانت في حقيقتها مذهباً واحداً فالباباوات يزعمون أنهم ورثة الأرض عن المسيح عليه السلام. [٥٠] إلا أنه من المؤكد أن النصرانية عندما فشلت في تحقيق أغراضها في موطنها الحالي – أوربا وأمريكا – وعجزت عن ضم أتباع جدد لها، أو حتى الاحتفاظ بما تحت يديها من مسيحيين، اتجهت نحو إفريقيا، مستغلة الظروف القاسية التي تعيشها القارة من فقر ومجاعة وتخلف، وتوحد المذهبان – اللذان على طرفي نقيض – على مبدأ واحد، وهو تنصير المسلمين في إفريقيا واستطاعت الحركات التبشيرية أن تحقق بعض النجاحات في أوساط المسلمين الأفارقة، وكان ارتداد العديد منهم عن الإسلام أمام المغريات المادية والعينية، وبعض الخدمات الصحية والاجتماعية.

كما يزداد نشاطهم في المناطق النائية والدول الفقيرة التي تحتاج إلى المعونات والمساعدات الإنسانية، لذلك فالزيارات التي يقوم بها (بابا الفاتيكان) لإفريقيا بين الحين والأخر يؤكد فيها على ضرورة مضاعفة النشاط التبشيري، وذلك للحيلولة دون انتشار مزيد من الإسلام في إفريقيا وقال في إحدى زيارته: "إنني لم آت إلى هنا رئيساً للكنيسة الكاثوليكية فحسب بل مبشراً – أيضاً – مثلكم". [٥١]

ويساند هذه الحركات التبشيرية، جهاز إعلامي ضخم متمثل في الإذاعات التنصيرية الكبرى الموجهة لسكان القارة الأفريقية مثل راديو الفاتيكان، الذي يبث برامجه بـــ(٣٤) لغة بمدد زمنية تزيد على (٢٥٠) ساعة يومياً [٥٢] مما يؤكد حتميه التأثير على المسلمين الأفارقة في عقيدتهم وكذلك إذاعة حول العالم من مونت كار لو التي لا تكف عن التبشير في أوساط الأقليات الإسلامية وبث فكرة المسيح المخلص ومنح ملايين النسخ من الأناجيل ذات الطباعة الفاخرة هدية لكل مسلم يتابع برامج هذه الإذاعة بصفة مستمرة، فالنصرانية على حد قول الكاتب (حيدر بامات): "لا تزال تواجه الإسلام بحقد وازدراء" .[٥٣]

ويمكن تحديد سبب العداوة بين الإسلام والمسيحية في ثلاثـــة مواقف كان لها تأثيراتها على العلاقة بين الطرفين هي:

- فتح الأندلس واستمرار الحكم الإسلامي بهـــا قرابـــة (٨٠٠) عـــام وانهيـــار الإمبراطورية المسيحية، ودخول آلاف المسيحيين تحت عباءة الإســـلام، والإيمـــان الكامل به، وهزيمـــة الصليبيين وذلك في موقعة حطين (١١٨٧م) ثم طردهم مـــن القدس، ومن كل بلاد الشام، الأمر الذي أدى إلى إبراز قوة العقيدة الإسلامية آنذاك، وكذلك فتح القسطنطينية وقضاء المسلمون الأتراك على الإمبراطورية البيزنطينيـــة والتي كان لها شأن عظيم وقتها، وتحويل معظم كنائسها لمساجد تقام فيها الصـــلاة والتعاليم الإسلامية.

كما يلاحظ أن الحركات التبشيرية تقوم على دعم مباشر مـــن " بابـــا الفاتيكـــان " ومجلس الكنائس العالمي الذي أقامته المخابرات الأمريكيـــة لمواجهـــة الشـــيوعية، والذي يحصل على منح تقدر بملايين الدولارات سنوياً من الكونجرس الأمريكـــي، الذي يسيطر على عملية صنع القرار بداخله المجموعة اليهودية [٥٤] ففي المـــؤتمر العام الثالث لمجلس الكنائس في " نيودلهي " أعلن بابا الفاتيكان " بـــولس الثـــاني " براءة اليهود من دم المسيح، وأصدر بياناً يحذر فيه الكنائس المنتشرة فى العالم من التعليم المعادى للدين اليهودي. [٥٥]

والملاحظ في هذه البراءة، أن اليهود كانوا متهمون منذ فجر التاريخ بقتل المسيح، حيث أصدر البابا " غريغورى " عام (١٥٨١م) حكم بإدانة اليهود في صلب المسيح عليه السلام، إلا أنه عند تأسيس مجلس الكنائس العالمي قام الكونجرس الأمريكي بمنحه الملايين من الدولارات سنويا لدعم عمليات التنصير في إفريقيا، مقابل أن يعلن " البابا " براءة اليهود أمام العالم من دم المسيح وكانت المسألة صفقة بين ديانتين وبالفعل أعلن "البابا بولس " براءة اليهود، غير أنه لم يعلن عن ذلك صراحة أثناء زيارته للقدس ولقاءه مع حاخامات اليهود ، تفاديا لحدوث الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين.

ويلاحظ أن هذه الأمور لا علاقة لها بالعقائد الدينية، أو باتهام اليهود بقتل المسيح من عدمه، وإنما القضية من بدايتها تخضع للأهواء والمصلحة الشخصية، فالمؤمن الكاثوليكي يعيش في صراع عنيف بين كونه كاثوليكي، وكونه إنساناً، فبصفته الإنسانية مطالب بالإيمان بالحرية والديمقراطية وحرية التعبير، أما داخل الكنيسة الكاثوليكية فهو مطالب بالطاعة العمياء للبابا ولقوانين الكنيسة، ومفروض على هذا الإنسان أن تكون آراؤه واتجاهاته تتمشى مع الكاثوليكية، حتى ولو كانت خاطئة، أو ضد فكره ومبادئه.

أما الإسلام فالذين يعتنقونه يعقدون قبل الإيمان به مقارنة بينه وبين المسيحية، فيجدون أن الإسلام أقرب للإنسانية والسماحة من المذاهب المسيحية مجتمعة، وإن كان المسيحيون أفضل تنظيماً من المسلمين في دعوتهم التبشيرية لمعتقداتهم.

حيث تقوم الحركات التبشيرية على خطط وبرامج معينة بفترات زمنية محددة، فالوسائل التي يستخدمها المبشرون في إفريقيا، ليست هي نفسها التي يستخدمونها في أسيا أو أستراليا، فكل بيئة ما يناسبها من الأدوات والوسائل، ولا تفرق الحركات التبشيرية بين (الأغلبيات المسلمة والأقليات) بل تنشط في كل مكان يتواجد فيه مسلمون ضعاف الهوية والعقيدة، كما يركزون بجانب دعوتهم الروحية على إقامة

المدارس والجامعات والمستشفيات ودور الأيتام، ورياض الأطفال، و حققوا نجاحاً في كل هذه النواحي السالف ذكرها بشكل ملحوظ.[٥٦]

وتقوم إستراتيجية التنصير في البلدان الإسلامية على الأتي:

١ - إحياء الفرعونية في مصر، والبربرية في المغرب العربي، والفينيقية في لبنان، لتفريغ الشعوب من هويتها الإسلامية، على مستوى الدول الإسلامية ذات الكثافة المسلمة العالية والسعي نحو تقليل عدد سكان البلدان الإسلامية، مقابل تشجيع غير المسلمين على الإنجاب والتناسل، بزعم أن التضخم السكاني هو الذي يساعد على تفاقم أزمة التنمية، وإشاعة الفاحشة والفساد الأخلاقي بين الأقليات المسلمة في الخارج .

٢ - مساعدة وتنشيط كل المذاهب والدعوات التي تعمل ضد الإسلام كالبهائية والقاديانية والماسونية، ونوادي الروتارى والليونز، والجمعيات النسائية ذات التوجهات العلمانية، ومحاربة أى صحوة إسلامية والتشويش عليها، وإثارة الفتن حولها .

٣ - العمل على محاربة اللغة العربية وتشجيع دراسة اللغات الأجنبية، واعتبار أن اللغة العربية من اللغات القديمة التي لم تعد صالحة للقرن القادم، وخاصة في عصر العولمة والإنترنت والثقافات المتعددة واضطهاد الأقليات المسلمة في الغرب.

٤ - العمل على إظهار تفوق العنصر الأوربي على المسلمين وإظهار المسلم بالتخلف والجهل والفقر والمرض ليظل كما هو على حالته دون تقدم ويشعر بالدونية داخله.

٥ - العمل على إيجاد جيل من المسلمين فاقد لهويته من أبناء الأقليات الإسلامية لمنع وجود صحوة إسلامية في أوربا أو في أمريكا، فالنبت الصغير هو مقصد

عمليات التنصير وهدف تركز عليه الكنائس في الشرق والغرب على حد سواء.

٦ - منع تدريس القرآن من المدارس في الغرب، وفرض دراسة الإنجيل على التلاميذ المسلمين، حتى لا يتذكرون أن لهم كتاباً يسمى (بالقرآن) وذلك إهدار لحق حرية التدين والعقيدة .

٧ - العمل على تشويه الإسلام والمسلمين، من خلال وسائل الإعلام ووصفهم بالإرهاب والتطرف والأصولية والعنف والدموية، لمنع دخول نصارى جدد في الإسلام .

٨ - تهجير المسيحيين إلى المناطق التي يكثر فيها المسلمون وإقامة المساكن لهم بالمجان، بالإضافة إلى توفير كافه متطلباتهم من الأطعمة والأشربة والرحلات وسبل الترفيه المختلفة، كما يحدث - حالياً - في جنوب الفيلبيين وتايلاند وسرى لانكا .

٩ - توزيع الكتاب المقدس على المسلمين بالمجان وبكميات ضخمة وبطبعات فخمة على المسلمين، بل وارسالة عبر البريد إلى المنازل في أي مكان في العالم.

ومن هذا كله يتضح أن أخطر قضية يعانى منها المسلمون في هذا العصر، تزايد حملات التنصير بين المجتمعات الإسلامية بجانب الجهل، بما يقع للأقليات الإسلامية من اضطهاد وعنف وإبادة من ناحية واللامبالاة التي انتشرت داخل المجتمعات الإسلامية من ناحية أخرى.

ومن هنا كان على الدعاة دور كبير في مواجهة حملات التنصير، ومخططاتهم ضد الإسلام و العمل على تعديل المناهج لتتفق ومضمون العقيدة الإسلامية، وإقامة المدارس الخاصة بأبناء المسلمين، ومساعدة الشعوب الإسلامية والإفريقية بما في ذلك الأقليات لمواجهة مخاطر المجاعة والكوارث الطبيعية، فالعالم الإسلامي غنى

بثرواته الطبيعية والمعدنية إن استغلت الاستغلال الأمثال وتم توظيفها واستثمارها بصورة صحيحة.

٢- المكائد اليهودية والصهيونية:

واليهودية كمصطلح عقائدي يعنى ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط من بنى إسرائيل، وينقسم اليهود فيما بينهم إلى سبعة فرق لكل منهما خصائصها ومميزاتها وأهدافها وهم: (٥٧)

الفريسيون: ويطلقون على أنفسهم "الأحبار" وهم متصوفة رهبا نيون ،أما الصدقيون فهم فرق اتخذت من إنكار البعث والحساب والمسيح منهجاً لها أما المتعصبون، فهم الأحبار أو الربانيين إلا أنهم يتخذون من العنف غرضاً لتحقيق أهدافهم ،والكتبة هم السادة الذين حرفوا الشريعة من خلال تدوينهم لها وأضافوا إليها الكثير من الآراء الشخصية ، أما القراءون فهم فرقة تنكر التلمود ولا يعترقون إلا بالعهد القديم ، والسامريون طائفة من المتهودين اعتنقوا اليهودية وهم ليسوا من بنى إسرائيل ، أما الفرقة السبئية فهي تنسب إلى عبد الله بن سبأ أحد أشهر المنافقين في التاريخ الإسلامي، دخل الإسلام وهو غير مؤمن به، وقيل أنه كان وراء مقتل عثمان بن عفان، وكذلك الأحاديث الموضوعة في كتب الأحاديث والفقه الإسلامي .

والثابت أن اليهود: أهل كتاب، وهم قوم موسى ومن أبناء يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام. وقد نزحوا إلى مصر بدعوة من سيدنا يوسف حيث تناسلوا هناك وتكاثروا، وهم جميعا من نسل الأسباط الاثنى عشر ليوسف وأخواته. (٥٨)

فاليهودية: كما يراها العديد من المؤرخين ليست هي الصهيونية، وإن كان البعض يقول بترادفها، إلا أن اليهودية كمفهوم مجرد دين سماوي مثله، مثل الإسلام والمسيحية، في حين تعتبر الصهيونية: حركة سياسية عنصرية متطرفة، تنادى بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بجانب فرض سيطرتهم الأيديولوجية والسياسية والتنظيمية على أكبر عدد ممكن من اليهود، ويعد " هرتزل " هو

المؤسس الحقيقي للصهيونية العالمية، لذلك لم يكن مستغرباً أن تقوم أوربا كلها بالبحث عن مثل هذا المكان، لإخراج اليهود من (الجيتو) اليهودي في المدن الأوربية وتجميعهم في وطن واحد، وإنهاء العقدة القديمة التي تقول "أن اليهود هم المسئولون عن صلب وقتل المسيح" [٥٩] حيث قد تسببت هذه العقدة في قيام المسيحيين بأكثر من مذبحة ضد اليهود وهم في طريقهم إلى القدس كما فرضوا عليهم العزلة، وأطلقوا على اليهود لفظ (الأقلية). [٦٠]

وعلى الرغم من أن اليهود والمسيحيين يتفقان في عداوتهما للإسلام، إلا أنهما غير متطابقين في كل الأحوال، فمع أن (العهد القديم) كتاب مشترك بين الديانتين، إلا أن الخلاف يكمن في ضياع الدين في الدولة بالنسبة لليهود، وضياع الدولة في الدين بالنسبة للمسيحيين، حيث أدى ضياع الدين في الدولة إلى تحويل اليهودية إلى طائفة متميزة عن غيرها، وأدى ضياع الدولة في الدين إلى سيادة التمييز والفوضى وزوال القانون وارتداد الحقيقة الدينية إلى فكرة روحية. ومنذ القرن السادس عشر تجاوزت اليهودية حدود العقيدة الدينية وأصبحت أمة ورمزاً للقومية، حتى الكتاب المقدس " العهد القديم " تحول منذ ذلك الحين من كتاب دين إلى كتاب سياسي يقوم على قاعدة العهد الإلهي بالأرض المقدسة للشعب اليهودي المختار.[٦١] ومن أبرز الفرق الصهيونية التي تقوم بدور مؤثر في مجتمع الأقليات الإسلامية ومحاولة القضاء على هويتهم، الإسلامية شهود يهواء، ويهود الدونمة.

أولا: شهود يهوا:

وهى منظمة عالمية، تؤمن بسرية التنظيم وعلنية الفكرة، حيث تمارس نشاطها ضد الأقليات الإسلامية في أمريكا بكل حرية، وتتخذ من حي بروكلين بالولايات المتحدة مقراً رئيساً لها[٦٢] ويمتلكون عشرات الصحف والمجلات الواسعة الانتشار والتي لا تكف عن مهاجمة الإسلام والتضييق على الأقليات المسلمة في مختلف الولايات الأمريكية ، وهذه المنظمة مع ادعائها بأنها فرقة مسيحية، إلا أن سلوكها يؤكد أنها جماعة يهودية عنصرية، وتتخذ من محاربة الإسلام هدفاً لها، ويعتقد أنصار هذه

الطائفة أن تكون إلهاً يدعى (يهوه) كما يجعلون من عيسى بن مريم رئيساً لمملكة (يهوه) وهم جماعة لا تؤمن بالجنة أو النار ولا بالآخرة، وقد أسس هذه الفرقة، أو المنظمة – إذ أطلق عليها هذا التعبير – " تشارلز راسل "، وإن كان البعض*يشير إلى كونها فرع من جهاز الموساد الإسرائيلي، حيث تعد دولة داخل دول العالم.

ثانيا: يهود الدونمة:

وهذه الطائفة تزامنت في الظهور مع سقوط الخلافة الإسلامية، وكان لها النصيب الأكبر في تكوين جماعة الاتحاد والترقي، التي نادت بالعلمانية في العالم الإسلامي، ويتوزع أعضاء هذه الجماعة في بلدان كثيرة من العالم، ويمارسون نشاطاً ملموساً في تركيا، حيث يتم اختيار الوزراء من بينهم، وذلك نظراً لسيطرتهم الكاملة على كافة وسائل الإعلام التركية.

وقد أسس هذه الجماعة " سباتاى زيفي " وهو يهودي من أصل أسباني، أما مبادئ هذه الطائفة فتقوم على محاربة الأقليات الإسلامية في أوربا وأمريكا بانضمامهم إلى الحركات التبشيرية، ويهاجمون الحجاب ويدعون إلى السفور والتعليم المختلط، كما أنهم لا يصومون، ولا يصلون، ولا يغتسلون من الجنابة فهم – حسب زعمهم – مطهرون بالفطرة وبالتالي لا يحتاجون إلى نظافة بدنية.

٣-الجماعة البهائية:

البهائية.. هي حركة استعمارية نشأت عام (١٢٦٠هـ – ١٨٤٤م) بدعم ورعاية من المستعمر الروسي والإنجليزي بهدف محاربة الإسلام، وتفتيت وحدة المسلمين في العالم، وقد أسس هذه الحركة المرزا "على محمد رضا الشيرازي " الذي اعتبر نفسه باب العلم بالحقيقة الإلهية، وخلفه المرزا " حسين على " الملقب بالبهاء، وتم تبديل مسمى الحركة من البابية إلى البهائية نسبه إليه، وتقوم أفكار هذه الحركة على أن " الباب " هو الذي خلق كل شئ بكلمته ويقولون بنبوه (بوذا وكنفوشيوس وبراهما وزراد يشت) ويحرمون الحجاب، ويحللون زواج المتعة، وينكرون أن

يكون محمد (صلى الله عليه وسلم)، هو آخر الأنبياء ويؤولـون القـرآن تـأويلات باطنية[٦٣] واستطاعت هذه الجماعة أن تبث أفكارها داخل الجمهوريات الإسـلامية الروسية وتحقق العديد من النجاحات هناك، في ظل تراجـع ملحـوظ للمؤسسـات الإسلامية في العالم الإسلامي زمن الشيوعية وبعد انهيارها.

٤-**الجماعة القاديانية**:

تعد من أشد الطوائف الهدامة عداوة للإسلام، وتعمل هذه الحركة بنشاط مكثف فـي وسط مجتمع الأقليات الإسلامية في أوربا، وأمريكا، وفرنسا وألمانيا، وقـد نشـأت هذه الحركة عام (١٩٠٠م) بدعم وتأييد من الاستعمار البريطاني داخل شبة القـارة الهندية، لوقف المد الإسلامي هناك حيث كان المسلمون يتزايدون بصورة ملحوظة، الأمر الذي أقلق المستعمر البريطاني، والطوائف الهندوسية على حد سواء.

قام بتأسيس هذه الحركة " مرزا غلام أحمد القاديـانى" (١٨٣٩ - ١٩٠٨م) الـذي اشتهر بإدمانه الخمور والمخدرات وله أكثر من (٥٠) كتاباً صبُ فيها كل سـمومه ضد الإسلام[٦٤]. وتكمن الرغبة عند القاديانيون في إنشاء كيان مستقل على (ربوة) بباكستان على غرار دولة الفاتيكان، وتحويل الكيان الإسلامي إلى كيـان سياسـي عالمي، ويصبح زعيم القاديانيون هو" بابا المسلمين"، ومن أجل الوصول إلى تحقيق هذه الفكرة أقاموا العديد من المدارس والمعاهد في غانا لتخريج دعـاه يروجـون لأفكارهم ودعوتهم الهدامة.

وقد أدى جهل المسلمين بدينهم في أفريقيا، إلى إقبال عدد كبير من أبناء المسـلمين في كل من نيجيريا، وغانا، وسيراليون، وكينيا على هذه الأفكار المعادية للإسـلام والتي اعتبروها من الإسلام، إذ أنهم لم يختلفوا كثيراً عن حملات التبشير في الهدف والمقصد.

كما قاموا بإنشاء جيش " قاديانى " خاص بهم أطلقوا عليه " كتائب الفرقان " تتمثـل مهمته الأساسية تحويل إقليم كشمير المتنازع عليه حالياً بين باكستان والهنـد إلـى

وطن قومي للقاديانية كما يسعون إلى الحصول على اعتراف دولي بهم من الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان وتفادياً للخطر الذي تمثله هذه الطائفة أصدر الأزهر الشريف بياناً حول المعتقدات التي تؤمن بها هذه الجماعة. وأعلن مجمع البحوث الإسلامية كفر هذه الجماعة، واعتبارها من الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي.

حيث تشتمل معتقداتهم وأفكارهم على بعض الجوانب، التي لا تتفق لا شكلاً، ولا مضموناً مع مبادئ الإسلام. فهم يعتقدون أن الغلام، هو المسيح الموعود، وأنه يوحى إليه مثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن طريق جبريل عليه السلام أيضاً، وإباحة ما حرمة الإسلام من خمور، ومخدرات ومسكرات ونساء واختلاط وإباحية.

فالمسلم عندهم كافر وخارج من الملة حتى يؤمن بالقاديانية، ويقولون بكفر من يتزوج من امرأة غير قاديانية، كما يعتقدون بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس خاتم الأنبياء، إذ أن حركة الوحي مستمرة حسب احتياجات العصور، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء وامتداد للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وألبسوا الصفات البشرية على الذات الإلهية فقالوا بأنه يصوم، ويأكل، ويشرب، وينام، ويصحو..) وقد أثرت هذه الطائفة على فكر الأقليات الإسلامية في الخارج مما استوجب ذلك إعداد دعاه لكشف هذه الأباطيل ونشر الدين الصحيح في هذه المجتمعات التي قد لا تعرف عن الإسلام إلا القليل عن الحلال والحرام في الدين.

٥- **الجماعة الماسونية:**

والماسونية منظمة يهودية ظهرت في أوربا ومنها انتقلت إلى معظم دول العالم، بما في ذلك بلدان العالم الإسلامي ذاتها[٦٥] حيث يربطها بعض الباحثين بنظام الكهانة في عهد الفراعنة ، وقد نقلها عالم الرياضات (فيثاغورث) إلى بلاده واصطبغت هناك بصبغة فلسفية، فهي مذهب سرى إذ لم تدون معالمها جميعاً حتى الآن وأكثر أمورها تجرى بطريقة شفهية وليست مكتوبة.

أما الدلالة اللغوية للفظ "الماسون" فهو مشتق من لفظه (فرماسون) حيث تتكون من شقين (فرانك) التي تعنى في اللغة الفرنسية (الصادق) وماسون التي تعنى (البني)، وتصبح الدلالة للفظ (ماسون) الباني الصادق، أو البناة الصادقون.

كما تقوم المنظمة الماسونية على استقطاب الشباب من جميع الأديان دون تمييز، ونشر الإباحية والإلحاد بينهم، كما لا تعترف بدين، ولا بإله يسيطر على هذا الكون، أما أفكارهم ومعتقداتهم فهي تستهدف الإسلام لكونه الدين الذي لا يقر تعدد الآلهة، أو نشر الرذيلة بين أفراد معتنقية، والعمل على تفتيت وحدة المسلمين (الأغلبية)، وإبعاد الأقليات الإسلامية عن ممارسة شعائر دينهم التعبدية، ومسايرة الحياة الأوربية، بكل ما تحمله من مضامين قد تختلف شكلاً ومضموناً مع مبادئ الدين الإسلامي الذي يؤمنون به، من إباحة الجنس الجماعي والعقم الاختياري، أما الأديان في الماسونية وحسب ما زعم قادتها لا تعدو كونها خرافات وأساطير، واتهموا الإسلام بأنه أكثر الأديان حشواً بالخرافات والبدع والقصص غير الصحيحة

والماسونيون، يتمتعون بنفوذ قوى داخل المنظمات الدولية والإنسانية ويحاولون السيطرة على وسائل الإعلام والسلطة في كل بلد يوفدون إليها، وتزداد خطورتهم على الأقليات الإسلامية التي تتمتع بقدر ضئيل من الثقافة الإسلامية وبالتالي يسهل عليهم استدراجهم في أفكارهم المنحرفة، والمعادية للإسلام شريعة وسلوكاً.

٦- **مذهب العلمانية**:

وتعنى العلمانية لغوياً، العالم أو الدنيا والعلماني هو خلاف الديني أو الكهنوتي وهو بالإنجليزية (secularism) بعكس (scientism) الذي يعنى العلمانية والمشتقـة مـن العلم، والعلمانية مفهوماً تعنى فصل الدين أو إبعاده عن الدولة وقيام الدولة على أسس دنيوية لا دينية، وقد ظهرت العلمانية في الغرب مع مطلع القرن الـ(١٧) نتيجة خلو المسيحية من أحكام تنظم حركة الدنيا، [٦٦] ونزع طابع القدسية عن الأفكار وطابع العصمة عن البشر.[٦٧]

والعلمانية دعوة إلى إقامة الحياة على غير دين، وتحرير العقل من الخرافة وإطلاق الروح العلمية والإبداع، وقد تطورت وزاد انتشارها عندما تحول رجال الدين إلى طواغيت ومستبدين تحت ستار (الأكليروس) والرهبانية والعشاء الرباني وبيع صكوك الغفران، كما تعد مفاهيم العلمانية والعلمية والعقلانية، مفاهيم لها مضمون واحد حيث يختلف المفهوم حسب ميدان البحث، ففي الفلسفة يستعمل العقلانية وفى أنظمة الحكم والسياسة يفضل العلمانية، أما في مجال الطبيعة فيستعمل مجال العلمية، حيث تقوم الأفكار العلمانية على فصل الدين عن السياسة، وإقامة الحياة على أساس مادي، والزعم بأن الإسلام استنفذ غرضه ، ولم يعد صالحاً في العصر الحديث، وأن الفقه الإسلامي القديم تم سرقته من القانون الروماني ، وينكر بعضهم وجود إله ، والبعض الآخر يرون أن الإله لا علاقة له بالإنسان.[٦٨]

والملاحظ أن هذه الأفكار أثرت تأثيراً مباشراً على مجتمع الأقليات الإسلامية في الخارج، وتأثيراً غير مباشر على المسلمين في مجتمعات الأغلبية، في ظل غياب الدعاة الإسلاميين، والإعلام الإسلامي الذي يعد الوسيلة الأفضل للرد على مثل هذه الدعوات الهدامة.

٧- **مذهب الوجودية:**

ظهرت مثل هذه الأفكار في أوربا رداً على تسلط الكنيسة في العصور الوسطي، وتمثل الوجودية أحد صور الصهيونية العديدة التي تعمل على هدم القيم الدينية وخاصة وأنها استوحت فكرتها من المذهب العلماني.

ويعد " سورين كير كجورد " هو مؤسس المدرسة الوجودية ثم خلفه " بول سارتر " في نشر المذهب، وينكر أصحاب هذا المذهب الله والرسل، والكتب السماوية ويعتبرونها عوائق تحول دون تقدم الإنسان وفاعليته في المجتمع، وأن الأديان لم تستطع حل المشكلات التي تواجه الإنسان على مر الأزمان.[٦٩] ويعتقد الوجوديون أن الإنسان هو أقدم الكائنات على الأرض وما قبله كان عدماً، وأن الحياة بلا معنى ولا هدف، وأن العالم وجد كي يموت فيه الإنسان، ويتركز أنصار هذا المذهب في

كل من فرنسا وأمريكا وألمانيا والنمسا والسويد، ويؤثرون بأفكارهم هذه على التواجد الإسلامي (الأقليات) في الغرب.

٨- **الأيديولوجية الشيوعية:**

الشيوعية مذهب فكرى يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شئ، وهى وليدة الماسونية واليهودية، وتقول بأن الإنسان هو وحده مصدر المعرفة، وليس الله[٧٠] فبعد الحرب العالمية الثانية امتدت الشيوعية لتشمل بلغاريا ويوغوسلافيا والمجر وألبانيا، وبولندا ودول البلطيق وألمانيا الشرقية وكوريا الشمالية والصين وتأثرت العديد من البلدان الإسلامية بهذا المذهب إلى الحد الذي تأسست فيه أحزاب سياسية تحمل نفس الأيديولوجية في العالم العربي مثل الحزب الشيوعي المصري لنشر الفكر الشيوعي في مجتمع الأغلبيات المسلمة.

وقد ظهرت الشيوعية في روسيا عام (١٩١٧) وسقطت عام (١٩٩١) فقديماً نشأت على يد " كارل ماركس " اليهودي الديانة، والألماني المولد، فأصوله تقول بأنه حفيد الحاخام اليهودي الشهير مردخاى ماركس ، وقد عاون " ماركس " في نشر مذهبه وأفكاره " أنجلز" و" لينين " كما قاد (لينين) الثورة البلشفية الدامية، أما ستالين فكان سكرتيراً للحزب الشيوعي ثم أعقب لينين في تولى الحزب، وأشتهر بالعنف والقسوة ضد المسلمين في دول الاتحاد السوفيتي السابق. [٧١]

فالزعيم الروسي " لينين " أعلن مع مطلع الثورة المساواة بين الأديان والشعوب الروسية، وحرية تطور الأقليات القومية والجماعات العرقية التي تعيش في منطقة القوقاز وروسيا، إلا أنه عاد بعد عشر سنوات وفى (١٩٢٧) ليقول " إننا نقوم بالدعوة ضد الدين، لأننا أقوى من أن ينال منا خصومنا عن طريق التشهير بإلحادنا، فلقد كنا نحرص في الماضي على عدم إعلان إلحادنا، لأننا لم نكن أقوياء، أما الآن فإننا نعلن بصراحة أننا ملحدون"، [٧٢] فالدين هو أفيون الشعوب وهو نوع من أجود أنواع الخمر، والبحث عن الله، لا فائدة منه لأنه لا إله !!.[٧٣]

وتقوم أصول المذهب الشيوعي على عدد من المبادئ أهمها:

إنكار وجود الله، وكل الغيبيات، والقول بأن المادة هي أساس كل شئ، ومحاربة الأديان واعتبارها أفيون ومخدر للشعوب، ولا جدوى من الإيمان فقد هدموا مساجد المسلمين في دول الاتحاد السوفيتي السابق وحولوها إلى حانات للرقص وتعاطى الخمور.

ومع ما قامت به الشيوعية والتي ظلت سبعين عاماً تحكم أغلبيات مسلمة على أرضها إلا أنها لم تستطيع (ترويس) المسلمين بالثقافة الروسية، وانهارت دون أن يتدخل في سقوطها حلف، أو دولة معادية لها، وإنما تنامي القوميات و الأقليات الإسلامية والمطالبة بالاستقلال كان أحد معاول الهدم للفكر الشيوعي.

٩- **النعرات القومية**:

الأصل فى الجماعة المسلمة أنها أمة واحدة، لا فرق فيها بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض ولا أسود ولا بين (أغلبيات وأقليات) فالمسلمون يشكلون أمة واحدة ومنهجها العقائدي واحد، وإن اختلفت الفرعيات والاجتهادات، لذلك عندما سيطر الاستعمار الغربي على الدول الإسلامية، أخذ في عمليات التغيير التي تضمن له بقاءه ونفوذه أولاً، ثم تحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانياً، فكانت سياسة تقسيم دول العالم الإسلامي وإعلاء وتشجيع النعرات القومية، حيث اعتزاز كل دولة بقوميتها كالطورانية في تركيا، والقومية في البلدان العربية مثل الناصرية، والبعثية والوحدة الشعبية في تونس..). [٧٤]

ومن هنا فالقومية تعد صلة اجتماعية، عاطفية تنشأ بين الأفراد عند اشتراكهم في جنس واحد أو في لغة واحدة وفيها يتم إعلاء رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين وبالتالي فإن القومية هي التي تجعل بعض المسلمين في الخارج يتنصلون من إسلامهم بزعم أن الدين تراث قديم وأن الرابطة القومية هي أشد وأقوى من رابطة الدين والعقيدة[٧٥] حيث ينتقل المسلمون إلى البلدان الغير إسلامية،

وكل منهم يحمل نزعته القومية، التي تظهر واضحة داخل مجتمع الأقليات، فيصيب هذا الكيان بالضعف والفتور، فهناك من يدينون بالولاء لدولة، وآخرون لحزب، أو لمذهب من المذاهب السياسية، فيصبح الدين عند هذه الإشكالية في مرتبة متأخرة عن القومية.

١٠- مذهب البوذيـــة:

إحدى المذاهب الوضعية التي انتشرت في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد، وتعد من المذاهب الأرضية، صاحب فكرتها " جوتاما بوذا "واسمه الأصلي الأمير " سيد هارتا" [٧٦]، وتضم مذهبين أحدهما شمالي والآخر جنوبي، أما الشمالي فهو سائد في الصين واليابان والتبت ونيبال وسومطرة، وكتبه المقدسة مكتوبة باللغة (السنسكريتية) في حين ينتشر المذهب الجنوبي في كل من بورما وسيلان وتايلاند.[٧٧]

وتنطلق البوذية من أفكار عامة، قد تكون هذه المبادئ من أصول العقائد السماوية فتحريم الزنا والسرقة، والقتل، والكذب، والخمور والمسكرات ...) وهي مبادئ عامة، وإن كانت موجودة بالأديان السماوية، ويعتقد البوذيون أن " بوذا " هو ابن الله، وهو المخلص للبشرية من مآسيها وآلامها وأنه يتحمل عنهم خطاياهم، وهذا المفهوم هو نفس ما يعتقده المسيحيون في المسيح ابن مريم عليه السلام.

والديانة البوذية مفتوحة على كل الأديان، دون تمييز للون أو لجنس عكس الديانة الهندوكية المتعصبة، حيث أدى انحصار الديانة البوذية في الهند إلى التشابه بينها وبين الهندوكية، والتي اشتملت على معظم مبادئ البوذية [٧٨] كما فقدت البوذية بساطتها وابتلعتها البرهمية فتحولت إلى طقوس وثنية تحمل معها الأصنام حتى ملأت تماثيل بوذا كل مكان حتى على أبواب مساجد المسلمين.

وتتعرض الأقليات الإسلامية في تايلاند والصين وبورما إلى اضطهادات عنيفة من البوذيين الذين يتعقبون المسلمون ويضيقون عليهم في كل شئ، تصل أحياناً إلى حد القتل واغتصاب المسلمات، والسجود لتمثال بوذا بالقوة. (٧٩)

١١- **مذهب الهندوسية:**

ديانة وثنية يؤمن بها معظم سكان الهند غير المسلمين، وتعد الديانة الوضعية الوحيدة التي لا يوجد لها مؤسس، وإن كانت تكونت على مر العصور والأزمان، حيث ترجع نشأتها إلى القرن الـ (١٥) قبل الميلاد، ويقدسون البقرة، ومن هذه النقطة تكمن عداوتهم مع المسلمين في الهند، حيث أن المسلمين يذبحون البقرة ويأكلونها والهندوس يسجدون لها ويعبدونها. (٨٠)

وكان نتيجة عدم وجود صيغة تفاهم بين الاثنين، أن قام الهندوس بحملات اضطهاد واسعة ضد المسلمين، حيث كانوا يخيرونهم بين أمرين، إما اعتناق الهندوسية، وإما مغادرة البلاد، الأمر الذي رفضه المسلمون وأوقع عليهم كثيراً من الأذى والاضطهاد حتى بعد تقسيم الهند إلى هندوستان وباكستان، حيث مازال الصراع بين المسلمين والهندوس قائم إلى اليوم في كشمير المسلمة بين الدولتين.

١٢- **مذهب السيخية:**

مجموعة دينية من الهنود، داعين إلى دين جديد، يخالفون فيه المسلمون والهندوس على حد سواء وأطلقوا عليه " السيخية " وذلك في القرن الـ (١٥) ومطلع القرن الـ (١٦) ويبلغ تعداد السيخ في الهند حوالي (١٢) مليون نسمة، وحوالي (٩٠%) من العدد الإجمالي يعيشون في مقاطعة البنجاب الهندية، وقد أسس هذه الجماعة رجل يدعى " غورو " وكان هندوسياً عند نشأته إلا أنه رأى الرب أثناء استحمامه في إحدى الجداول فاختفى لمدة ثلاثة أيام، بعدها خرج بعقيده جديدة " السيخية ".(٨١)

إلا أن الثابت بالتقارير المنشورة عبر منظمات حقوق الإنسان في العالم أن الأقليات الإسلامية في الهند وفى إقليم البنجاب، وجامو وكشمير يواجهون أشد أنواع

الاضطهاد الديني، حيث يتم الاعتداء على مقدساتهم وعلى مساجدهم كان آخرها (هدم المسجد البابرى) وإغلاق عشرات المساجد في وجه المصليين دون أن تتحرك دولة إسلامية أو زعيم إسلامي يعلن مقاطعة بلاده للهند لسوء معاملتها للأقليات الإسلامية على أرضها، كما يفعل اليهود والنصارى في صراعاتهم العقائدية.

ومن هذا كله نستطيع القول بأن الأقليات الإسلامية يصادفها مشكلات وتحديات عديدة، تؤثر على مسيرة الدعوة للإسلام أولاً، والمسلمين الذين يعتنقونه ثانياً، إذ يتغلف بعضها بالطابع العقائدي حيناً، وبالسياسي والاجتماعي حيناً أخر، فالقاديانية، والبهائية، والماسونية، والصهيونية، والهندوسية وغيرها، كلها أفكار ومذاهب هدامة تستهدف القضاء على هوية الأقليات المسلمة في وسط أغلبية غير مسلمة، ومن هنا يأتي التضييق على حقوق الأقليات الإسلامية وحدهم دون غيرهم.

هوامش الفصل السادس

١	سميرة بحـــــر	مدخل لدراسة الأقليات، مرجع سابق ، ص ٧٦
٢	جمال الدين محمود	الأقليات الإسلامية والمشكلات الثقافية والاجتماعية (مؤتمر الأقليات، الندوة العالمية للشباب الاسلامى ١٩٨٦)، ص ٤٧
٣	محمود مصطفى حلاوى	دور المسجد والمراكز الإسلاميـــــة فى مجتمع الأقليات المسلمة، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق، ص ٣٣١
٤	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص ٤٣، ٤٤
٥	عبد العزيز صقر	الدين والدولة في الواقـــع الغربي، مرجع سابق ص ٨٠
٦	عبد الرحمن النقيب	تأثير الثقافة السوفيتيـــــة على الأقلية المسلمة في الاتحاد السوفيتي مؤتمر الاقليات، مرجع سابق ، ص ٦٨
٧	عبد السلام البغدادي	الوحدة الوطنيـــة ومشكلات الأقليات، مرجع سابق ص ٨٩
٨	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص ٤٥
٩	عبد الرحمن النقيب	تأثير الثقافة السوفيتية على الأقلية المسلمة ، مؤتمر الأقليات، الندوة العالمية، مرجع سابق ، ص ٦٨
١٠	جمال الدين محمود	الأقليات الإسلامية والمشكلات الثقافية، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق ، ص ٥٣
١١	صابر طعيمة	محنة الأقليات الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٤
١٢	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق، ص ٧٠
١٣	جمال الدين محمود	الأقليات الإسلامية والمشكلات الثقافية، مرجع سابق ص ٥٥
١٤	ــــــــــــــــ	الأقليات الإسلامية و المشكلات الثقافية، مرجع سابق ، ص ٥٥
١٥	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص ٧٣
١٦	مجدي الداغـــر	المسلمون في الولايات المتحدة في حوار مع الشيخ محمد حسان، جريدة الأحرار عدد ١٩٩٨/٣/١٥
١٧	جمال الدين محمود	الأقليات الإسلامية والمشكلات الثقافية، مرجع سابق ص ٥٥
١٨	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص ٧٦
١٩	مجدي الداغر	مقابلة مع الدكتور يوسف القرضاوى حول وضع المسلمين في الخارج بالقاهرة في ١٩٩٦/٣/١٥
٢٠	محمد علي ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص ٧٧، ٧٨
٢١	محمد عبد الله السمان	محنة الأقليات المسلمة في العـــالم، مرجع سابق ص ١٩٢
٢٢	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلاميــــــة في العالم، مرجع سابق ، ص ١١٠

٢٣	عبد المجيد القطمة	المسلمون في بريطانيا، جريدة الزهراء في يوليو ، ١٩٩٤ص٦
٢٤	الهادي بخاري	خطط وبرامـــــج للأقليات المسلمة، مرجع سابق ص ٣٥٣
٢٥	إسحاق نيام ونجو	دفن الموتى في كينيا (اليونسكو: المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية عدد يونيو ١٩٩٩) ص ١٥٣
٢٦	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص٩٧
٢٧	الهادي بخاري	خطط وبرامج للأقليات الإسلامية، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق ، ص ٣٥٤
٢٨	ـــــــــــــــ	خطط وبرامج للأقليات الإسلامية، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق ، ص ٣٥٥
٢٩	محمود عبد الرازق	محنة الأقليات الإسلامية في أوربا (القاهرة، مطبعة أولاد عبد العال ١٩٩٦) ، ص ٢٨
٣٠	سيد يونس	التحديات التي تواجسه الأقليات الإسلامية في العالم (مجلة كلية الآداب بقنا، عدد ٤ ١٩٩٥) ص ٥٤٦
٣١	طلعت رميح	الوسط والإخوان(القاهرة : مركز يافا للدراسات، ١٩٩٧) ص ٢٢
٣٢	عبد المنعم النمر	إسلام لا شيوعية (القاهرة، دار غريب ١٩٧٦) ص ٧١
٣٣	محمد عباس	الخليفة الايويولوجية للأعــلام الغربي(بيروت، المستقبل العربي عدد سبتمبر ١٩٩٥) ص ٦٨
٣٤	ـــــــــــــــ	المسلمون في العالم (الامارات، منار الإسلام، عدد ديسمبر ١٩٩١) ص ٧٠
٣٥	بدر الماص	معوقات الاعلام الاسلامى (الكويت، مجلة الخيرية، يوليو١٩٩٧) ص ٣١
٣٦	عواطف عبد الرحمن	قضايا التبعية الإعلامية (الكويت عالم المعرفة، عدد يونيو ١٩٨٤ ص ١٣١
٣٧	محمد الرميحى	الخطاب الاعلامى الاسلامى (الكويت، مجلة الوعي الاسلامى عدد يناير ١٩٩٩) ص١٦,١٧
٣٨	حمد الطفيح	نحو منهج تربوى لأبناء الأقليات، مؤتمر الأقليات مرجع سابق ، ص ١٥٣
٣٩	فضل الله ويلموت	اللاجئون نظرة إسلامية، مؤتمر الأقليات مرجع سابق ، ص ٣٥٦
٤٠	حمد الطفيح	نحو منهج تربوي لأبناء الأقليات، مؤتمر الأقليات ، مرجع

		سابق، ص ١٥٥
٤١	سعيد إسماعيل	دور المؤسسات التعليمية في رفع المستوى الثقافي للأقليات الإسلامية، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق ١٣٠
٤٢	محمد على ضناوى	الأقليات الإسلامية في العالم، مرجع سابق ص٤٨
٤٣	________	مجلة هيئة الإغاثة الإسلامية ، بالرياض ، عدد ١٩٩٢/٣/٢٣ ص ١
٤٤	مصطفى كسبة	المسلمون في أوربا (مجلة الأزهر عدد ذو الحجة ١٤١٧) ص ٦٩
٤٥	مجدي الداغر	حوار مع كامل الشريف رئيس المجلس الاسلامى العالمي للدعوة والإغاثة (الكويت: مجلة الخيرية عدد يناير ١٩٩٧) ص ١٦، ١٧
٤٦	عمر يوسف	أسس الدعوة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ ص ١٥
٤٧	أحمد صدقي الدجانى	حاضر العالم الاسلامى(القاهرة: مجلة الهلال عدد مارس ١٩٩٢، ص ٩٠، ٩١
٤٨	محمود المقداد	تاريخ الدراسات العربية في فرنسا (الكويت، عالم المعرفة، عدد نوفمبر ١٩٩٢) ص ١٨٦
٤٩	مختار المسلاتي	أمريكا كما رأيتها، مرجع سابق ص ٦٧
٥٠	حسين مؤنس	عالم الإسلام، مرجع سابق ص ١٦
٥١	________	مستقبل العالم الاسلامى (قطر: الأمة الإسلامية، عدد يناير ١٩٨٦) ص ٦٧
٥٢	أحمد سعد الدين	الإعلام الاسلامى والتبشير، ندوة الإعلام الاسلامى، مرجع سابق ص ٢٩٤
٥٣	كرم شلبي	الإذاعات التنصيرية، مرجع سابق ص ٢٤
٥٤	محمد حسنين هيكل	خريف الغضب (بيروت: شركة المطبوعات ١٩٨٣) ص ٣٤١
٥٥	عبد الجليل شلبي	معركة التبشير والإسلام (القاهرة: مؤسسة الخليج العربي١٩٨٩) ص ٣٥
٥٦	الطاهر المعمورى	التنصير ووسـائله، مؤتمر الأقليات، مرجع سابق ص ٢٨٣
٥٧	________	الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (الندوة العالمية للشباب الاسلامى ١٤٠٩) ص ٥٦٨
٥٨	ليونيل داديانى	الصهيونية على لسان قادتها (دار الثقافة الجديد ١٩٨٠)

		ص ١١
٥٩	يسرى حسين	إسرائيل تصف قرن من الاغتصاب (بيروت، الباحث العربي عدد أكتوبر ١٩٩٨) ص ٦٩
٦٠	ريجينا الشريف	الصهيونية غير اليهودية (الكويت ، عالم المعرفة، عدد (٩٦) ديسمبر ١٩٨٥ ص ٢٩
٦١-allow baron		Asocial and religious history of the Jews (new York. ١٩٣٧ p.١٩٨
٦٢	توفيق الطويل	قصة الاضطهاد الديني، مرجع سابق ، ص ٣٥
٦٣	___	الموسوعـــة الميسرة في الأديان، مرجع سابق ص ٣٩٠
٦٤	محمود بيومي	فرق هدامة (الكويت ، الوعي الاسلامى ، فبراير ١٩٩٣) ص ٥٧
٦٥	جواد رفعت	أسرار الماسونيـــة (الزهراء للأعلام العربي ١٩٩٠) ص ٢٩
٦٦	زكريا فايد	العلمانية (القاهرة : الزهراء للأعلام العربي ١٩٨٨) ص ١٥٩
٦٧	جاد الجياعى	العلمانية فى المشروع القومي الديمقراطي (الرباط: الوحدة ،العدد ٧٥ ديسمبر ١٩٩٠) ص ١٢٩
٦٨	حسين الضناوى	هل حقا لبنان دولة لا دينية (بيروت : دراسات عربية ، العدد العاشر، ١٩٩٣) ص ٧٣
٦٩	___	الموسوعـــة الميسرة في الأديان، مرجع سابق ص ٣٧١
٩٧	___	الإسلام دعوه للتحرير (الزهراء للأعلام العربي ١٩٩٣) ص ١٦٠
٧٠	محمد الحسن	المذاهب والأفكار المعاصرة (طنطا : دار البشير ١٩٩٠) ص١٨٥
٧١	___	الموسوعة الميسرة في الأديان، مرجع سابق ص ٦١٧
٧٢	محمد الحسن	المذاهب والأفـــــكار المعاصرة ، مرجع سابق ص ٢٠٨
٧٣	عبد المنعم النمر	إسلام لا شيوعية، مرجع سابق ، ص ٩٣
٧٤	عمر يوسف	الغزو الفكري (الوعي الاسلامى، عدد أكتوبر ١٩٩٢) ص ٥٥
٧٥	صابر طعيمة	محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها، مرجع سابق ، ص ٢٤
٧٦	أنيس منصور	الخالدون مائة وأعظمهم محمد (ص) (القاهرة : الزهراء

		للإعلام العربي ١٩٩٢) ص ٢٧
٧٧	________	الموسوعة الميسرة في الأديان، مرجع سابق ، ص ٣٠٣
٧٨	أنيس منصور	الخالدون مائة، مرجع سابق ، ص ٣٠
٧٩	أبو الحسن الندوى	ماذا خسر العـالم بانحطاط المسلمين، مرجع سابق ص ٤٧
٨٠	ممدوح الشيخ	المسلمون ومؤامرات الابادة، مرجع سابق ،ص ٤٠
٨١	جفرى بارندر	المعتقدات الدينية لدى الشعوب: ترجمة إمام عبد الفتاح (الكويت عالم المعرفة، عدد (١٧٣) مايو ١٩٩٣) ص ٢١٢

الفصل السابع:

قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية
في الفكر الحديث و المعاصر

أولا: قضايا ومشكلات الأقليات

في الفكر الاسلامي:

إن النظر على خريطة العالم اليوم بدقة وعناية، لا يظهر مجرد وجود هذه الأقاليم الفوارة والساخنة في أماكن عديدة من العالم فحسب، ولكنه قد يظهر ما هو أبعد من ذلك بكثير، حيث توجد هويات متصارعة في كل بقعة منها، وقد تكون هويات دينية أو عرقية، وكلها ما يستحيل التوفيق بينها بسهولة .[١]

والواقع يشير إلى أن قضايا ومشكلات الأقليات الإسلامية ليست من المصادفات التي تفرض نفسها بين الحين والآخر على المجتمع الدولي أو الإسلامي وإنما هي في حقيقة الأمر تفرض نفسها من خلال رواسب تاريخية وثقافية..) حيث يبلغ حجم الأقليات الإسلامية في العالم إلى ما يزيد على (٥٠٠) مليون نسمة وهم بذلك يشكلون طاقة بشرية لا يستهان بها، في مقابل تجاهل تام من قبل الدول الإسلامية بهذا العدد الضخم من المسلمين، وقد يعود هذا التجاهل إلى أسباب عديدة منها: [٢]

- أنه عند الحديث عن الإسلام والمسلمين؛ فإن مساحة كبيرة من الضوء تسلط على المنطقة العربية دون اهتمام يذكر بالأقليات الإسلامية خارج هذه المنطقة، حيث استطاعت الصحافة الأوربية والعربية أيضاً أن تقنع قرائها بأن العرب هم المسلمون، وأن المسلمين هم العرب، فبمجرد أن تم الإعلان عن الانهيار الشيوعي، بدأت الخرافة القديمة في الانبثاق والظهور، وبدأت عمليات النسيج الخرافي تطوق الإسلام، لا لتظهره إلى أنه الأخر، بل على أنه عدو الغرب والحضارة والتقدم.[٣]

مع أن الإسلام نشأ عربياً، وانتشر في بلدان العالم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم عن طريق الدعاة الصوفيين والتجار العرب، وقامت الأمة الإسلامية أساساً على رابطة الدين حيث تضم هذه الرابطة كل الخصائص والسمات التي تميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، فالدين الإسلامي عند العرب ليس مجرد عقيدة يؤمن بها فئات من الناس، ولكن عنصر هام في بناء الدولة وأحد العناصر التي تجمع خصائص

البشر العقلية والنفسية، فهو دين سلام، وعقيدة، ونظام يستهدف أن يظل العالم كلـه بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن ينطوي الناس تحت لوائه متحابين سـواء أكـانوا يؤمنون بالإسلام أو يؤمنون بدين غيره.

كما لا يفرق الإسلام بين الدين والدولة، فالحاكم في الدولة الإسلامية يقوم بالوظيفتين الدينية والسياسية، كما شكلت تعاليم وأحكام الدين الإسلامي الجانب المكمل للقوانين المدنية للدولة طوال مراحل نموها أو تطورها وان كان هذا لا ينفى أن هناك بعض الممارسات الخاطئة من قبل الحكام المسلمين.[٤]

إن الرئيس جمال عبد الناصر أحد أبرز الزعماء العرب في القرن العشرين كان يؤمن بالعلمانية التي لا تجعل للدين دور في الرابطة السياسية بين أبناء الأمـة، إلا أنه لم يكن معادياً للإسلام، كما لم يكن معادياً لأي دين آخر، ويؤكد النص القرآنـي حقيقة أن الإسلام دين يقبل غيره من الأديان الأخرى أومن الأتبـاع، ولا يـرفض وجود الأخر معه على أرض واحدة، وذلك في قوله تعالى:"وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا "، ومن هنا فإن تعدد الشعوب والأجناس في الأمـة الإسـلامية لـم يعـد مشكلة، إذا ما اعتبر الإسلام هو المرشد والموجه لها. [٥]

فالأمة الإسلامية، هي أمة واحدة بنص القرآن (أقليات وأغلبيات) تتحقـق وحـدتها بتوحيد الغايات والخصائص والأهداف[٦] إلا أن ما يحدث في العالم المعاصر مـن تمييز بين البشر وانتهاك لحقوق الأقليات الإسلامية في بلدان كثيرة من العالم يعـد دليلاً على أن الأمة الواحدة التي نادى بها القرآن تفسخت وتشتت ولم تعـد كيانـاً واحداً يهابه أعداء الإسلام مع أن الدين الإسلامي يقر بقاعدة أن المسلم هو المسـلم سواء أكان في البوسنة والهرسك، أم في الشيشان أم فـي كوسـوفا أو كشـمير أو العراق.

والرابط المشترك الذي يجمع بينهم هو رابطة العقيدة، وبالتالي ليس هناك تمـايزاً بين المسلم الأبيض أو المسلم الأسود، فكلاهما مسلم وهذا ما يؤكـد عليـه الـدين الإسلامي في نصوصه وأحكامه، فالأمة العربية دون سائر الأمم جميعاً، هي أمـة

الإسلام، فهي التي أوجدها الإسلام حيث لم تكن موجودة من قبل. وبالتالي كان على هذه الأمة الدعوة للإسلام ورعاية أقلياته في دول العالم ومناصرة قضاياهم والذود عنهم إذا ما ارتبطت هذه المسائل بالاضطهاد الديني للمسلمين .

والحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها أن الإسلام لم يحمل خطة لترهيب أصحاب المعتقدات الأخرى، أو لأسلمة الشعوب التي انضمت إليه، وبالتالي فقد احترم خصائصها، والدين الذي تؤمن به، بل لقد جاء الإسلام ودخل هذه الأقطار ليرفع عنها الظلم والاضطهاد والتمييز الذي كانت تتعرض له، ومن هنا فإن حق المساواة في الإسلام مكفول للمسلم وغير المسلم وفق القاعدة الشرعية التي تقول "لهم مالنا، وعليهم ما علينا" (٦)

وبالتالي فإن أبناء الدين المسيحي لم يتم تقطيعهم أرباً بالسيف عندما كان الإسلام يمتد بعقيدته شرقاً وغرباً، وفي كل اتجاه، معرباً عن سماحته وقدسية المنهج الذي يدعو إليه؛ إذ يقوم الفكر الإسلامي على مبدأ التسامح مع أصحاب الديانات السماوية الأخرى، وحدد الدين الإسلامي أسس العلاقة بين الإسلام وغيره من العقائد السابقة عليه كما يوصى النص القرآني بعدم الاعتداء على الغير، وإن كان من غير العقيدة التي يدين بها المسلم فقال تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم، إن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين"؛ وهذا المبدأ مكفول لغير المسلم وإن اختلفت مفاهيم عقيدته مع العقيدة الإسلامية مثل (الثالوث، والصليب، والقيامة) عند المسيحيين.

كما حرص الإسلام على عدم الاقتراب من دور العبادة وأماكن التعبد لغير المسلمين، حيث كانت لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم في كنائسهم دون التضييق عليهم، وقد بلغت سماحة الإسلام مع المسيحية إلى درجة أن كبريات الكنائس القبطية في مصر منذ مئات السنين التي ما تزال موجودة إلى الآن لم تمس بسوء مثل كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية، ومار جرجس، والحمراء، وأبى مقار

والتي بناها الأمويون[٨]. فالتسامح الديني الذي نعم به غير المسلمين في ظل الإسلام لم تشهده أوربا على مدار تاريخها كله من وقت نهضتها وحتى الآن.

وقد اعتبر المسلمون عقيدتهم نظاماً كاملاً يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة وأنه جاء مكملاً للأديان السابقة عليه وليس نافياً لها، وهذا المعنى هو ما أكد عليه " المسيح " عليه السلام في بداية دعوته كما نادى القرآن الكريم على المسلمين (أقليات وأغلبيات) بلفظ أمة، أى كشعب قائم بذاته ودينه وعقيدته وليس بالدولة، قال تعالى:" كنتم خير أمة أخرجت للناس". فالعربي قديماً وقبل ظهور الإسلام كان يعتز بنسبه، أي أن هويته التي كانت تتحدد بـ(أنا) فلما جاء الإسلام نقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) الهوية من التحديد بالنسب إلى التحديد بالانتماء العقائدي مع عدم نفى وجود الأخر على أرضه من يهود ونصارى وديانات أخرى..).

وينقسم غير المسلمين في المجتمع الإسلامي إلى قسمين هما :

١. أصحاب الديانات الوثنية أو الوضعية، وهم من المجوس، وعبدة الأوثان والصابئين وعبدة الكواكب، والنجوم الحيوانات، وهؤلاء يرفضون الأخذ بالديانات السماوية كالإسلام والمسيحية وان كانت العديد من المبادىء التي يفرضونها على أنفسهم، ويعتبرونها الدستور الخاص بهم هي في الأصل من تعاليم ومبادىء دعا إليها الإسلام والبعض منها من الديانة المسيحية.

٢. أصحاب الديانات السماوية: وهم الذين لهم دين سماوي، ولهم كتاب منزل من عند الله (مثل اليهود والنصارى). مع أن قساوسة الكنيسة في العصور الوسطي كان يعتبرون بلاد المسلمين ديار كفر لأنهم لم يؤمنوا بالمسيحية، وبعض الجماعات الدينية الإسلامية في العصر الحديث تعتبر المسيحيون كفارا لأنهم لم يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

والملاحظ أن الإسلام يعتبر الدين والعقيدة الوحيدة التي تكفل لغير المسلمين كافة حقوقهم، كالمساواة في حق العمل، وأمام القانون، وحقهم في الانتخابات والترشيح

لكافة المجالس سواء البرلمانية أو الإدارية ويحرم عليهم رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء [٩] في الوقت الذي سمح لهم بأن يتلقوا العلوم المنطقية والشرعية بـرواق الأزهر، فأبرز العائلات القبطية التي درست بالأزهر "أولاد العسال"، و "فرنسيس العتر" الذي كان يحضر دروس الشيخ "محمد عبده" و "وهيب تادرس" الشاعر القبطي المعروف وكذلك "ميخائيل عبد السيد" صاحب صحيفة الوطن حيث درس بالأزهر ثم أكمل تعليمه في دار العلوم .[١٠]

ويشير ميلاد حنا: أن الإسلام لم يحاول تحويل المسيحيين إلى مسلمين وترك الأمر للظروف السياسية والاقتصادية والحضارية التي سادت المراحل المختلفة فانتشار الإسلام بالسيف مقولة لا دليل عليها فالأقباط هم المصريون في اللغة المصرية القديمة وهي لا تخص المسيحي ؛ بل كل المصريين (مسلمين – ومسيحيين). [١١]

والإسلام عندما يتعامل مع غير المسلمين، يتعامل معهم من أربعة جوانب رئيسية وهى: (العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والشريعة). فأما العقيدة والعبادة، فلا يفرضهما الإسلام على أحد، وليست هناك قيوداً على من أراد أن يتحول من ديانته إلى الإسلام، أما جانب الأخلاق فهو مبدأ لا يختلف عليه أي دين سماوي، فجميع الأديان السماوية تدعو إلى الفضيلة والسمو والرحمة والتسامح ومكارم الأخلاق، وان رضوا أن يحاكموا في ظل أحكام الشريعة الإسلامية.[١٢]

وفى جانب الشريعة لم يفرض الإسلام أحكامه على غير المسلم، فالمسيحي أو اليهودي الذي يرتضى أن يحكم في ظل حكومات علمانية – لا تعترف بدين- لا يضيره أن يحكم في ظل شريعة إسلامية أساسها العدل مع غير المسلمين قبل المسلمين أنفسهم.

أما الدول التي تتبنى حقوق الإنسان والدفاع عنها – مثل دول أوربا وأمريكا – قد وقفت عاجزة إزاء الانتهاكات التي يقوم بها أعداء الإسلام في كل مكان من العالم ضد المسلمين العزل.[١٣] مع أن الإسلام لم يعامل الأقليات التي تحت سيادته وعلى أرضه بهذه الصورة السيئة، حيث كفل الإسلام لغير المسلمين حقوقهم، بل وفرض

إنزال العقوبات على منتهكيها، وهذا ما أشارت إليه النصوص القرآنية في حد القصاص فقال تعالى: "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق"، وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "من أذى ذمياً فقد آذاني"، وفي رواية أخرى من "أذى ذمياً، فأنا خصمه يوم القيامة"[١٤]. وفي تناول المفكرين الإسلاميين لحقوق الأقليات غير المسلمة اتفقوا جميعاً على أن الإسلام منحهم من الحقوق ما لم تستطع أوربا أن تمنحهم مثل هذه الحقوق أو بعضها.

ويمكن تقسيم حقوق الأقليات في الدولة الإسلامية إلى قسمين هامين، وضع فيهما كل ما يتعلق بحقوق الأقليات في المجتمع الإسلامي، وهي: [١٥]

- أولا:حق المساواة: ويشتمل هذا الحق على وحدة الأصل البشري، ويتمثل ذلك في الحق في الحياة والإنسانية، وإن كان هذا لا ينفي وجود بعض الفوارق بين البشر بعضهم البعض مثل الاختلاف في اللغة أو العقيدة.

- ثانيا: الحق في الحرية: ويتشعب هذا الحق ليضم إليه حقوقاً أخرى عديدة منها:

١-الحرية الدينية: وتوضحها الآية الكريمة " لا إكراه في الدين" وهذا ما يعني أن الإسلام يقبل التعددية حتى في جانب العقيدة.

٢-الحرية الفكرية: وتشتمل على حرية الفكر والإبداع، حيث تعد هذه النوعية من العطاء الإنساني الذي لا يرتبط بعقيدة ، ويتساوى فيها المسلم وغير المسلم.

٣-الحرية السياسية: حيث ترك الإسلام للمسلمين وغير المسلمين حرية اختيار شكل الحكومة طبقاً للمصلحة العامة، فمع أن الخلفاء الراشدين والصحابة اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قراءة النص القرآني، كما اختلفوا في تفسيره وتطبيقه إلا أنه لم يتم مصادرة حق مخالفيهم في الاجتهاد والتفسير، حتى أن عمر بن الخطاب أمر بصرف معاش من بيت مال المسلمين

لرجل يهودي رآه يتسول في الشارع، كما بلغت درجة حرص الإسلام على حقوق غير المسلمين إلى الحد الذي جعلها واجبة في جوانب عديدة، فقد جعل دم الإنسان مصون وبالتالى لا يجوز إراقته بدون مبرر شرعي فالجائع يجب إطعامه وسقايته، والعاري يلزم كسوته، والجريح يجب مداواته، حتى ولو كان من أشد أعداء الإسلام، (١٦) كما أنه لا يجوز التدخل في الحقوق الشخصية لغير المسلمين في أمور مثل الزواج، والطلاق، والميراث، والحريات الدينية.) حيث أن مثل هذه الجوانب من المسائل الخاصة بعقيدتهم، وفى هذا الإطار يطرح الدكتور يوسف القرضاوى رؤية أخرى لحقوق غير المسلمين (الأقليات غير المسلمة) في المجتمع الإسلامي، ويقسمها إلى :(١٧)

- حق الحماية: ويتضمن الحماية من الاعتداء الخارجي، والواجب المفروض على الدولة من حماية هذه الأقليات من أي اختراق خارجي، قد يؤدى إلى عدم الاستقرار داخلها كذلك الحماية من الاعتداء الداخلي بحيث لا يتعرض غير المسلم للإيذاء بسبب عقيدته التي تخالف دين الأغلبية والتعبير عن وجهة نظره فيما يخص الدولة.

- حق الدماء والأبدان: حيث يجب على الدولة الإسلامية حماية دماء غير المسلمين وأبدانهم كما تحمى أموالهم وأعراضهم، فوفاء الإسلام بالعهود بلغ حداً من الدقة والسمو لم تعرفه أرقى المؤسسات الإنسانية أو الدولية، وأحدث الدساتير العالمية.

- حماية الأموال: فكما حذر الإسلام من الاقتراب من دماء وأبدان أبناء الأقليات غير المسلمة، وحذر - أيضا - من المساس بأموالهم، ومعاقبة المعتدى بغض النظر عن جنسه أو عقيدته أو مكانته الاجتماعية.

- التأمين عند الشيخوخة: فالضمان الاجتماعي في الإسلام يشمل أبناء المجتمع عموماً، مسلمين وغير مسلمين، ولعل موقف عمر بن الخطاب مع

اليهود الذي رآه يتسول وأمر بمنحه معونة ثابتة من بين مـــال المســـلمين، أكبرُ دليل على سماحة الإسلام، مع غير المسلمين وإن كان يهودياً.

- حماية الأعـــراض: فالإسلام كما أنه لا يُقر بأن تنتهك أعراض المسلمات، لا يسمح – أيضاً– بأن تنتهك أعراض غيـــر المســـلمات فـــي المجتمـــع الإسلامي.(١٨)

- حرية التـــــــدين: وتشمل منح غير المسلمين الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم وطقوسهم التعبدية، كما تقتضى هذه الحرية ألا يفرض على أفراد الأقليات غير الإسلامية اعتناق الإسلام بالقوة.

- حرية العمل والكسب: حيث لم يفرض الإسلام على غير المسلمين امتهان عمل بذاته أو ممارسة أى نوع من الأنشطة التجارية عدا (المتاجرة في الخمور والمحرمات التي تحذر منها كافة الأديان السماوية).

- تولي الوظائف بالدولة: الثابت أنه لم يمنع الإسلام أن يرتقى غير المسلم في عمله الوظيفي داخل الدولة الإسلامية بما فيها تولى الوزارات(١٩) أو المشاركة في القضايا والمسائل السياسية الكبرى.

ومما سبق يتضح هنا أن الإسلام كدين وكمنهج حياة لم يغفل حقوق الإنسان بشكل عام و الأقليات غير المسلمة بشكل خاص، بل وضع قواعدها قبل المنظمات والهيئات التي تنادى بحماية حقوق الإنسان في العصر الحديث، وهى كما وضعها الإسلام، "كل شئ مباح إلا ما حرم بنص الكتاب والسنة" والالتزام بأخلاقيات الإسلام عند ممارسة الحريات بما فيها حرية الفرد والآخرين"ويذكر الأنبا " غريغوريوس " أسقف البحث العلمي والدراسات العليا اللاهوتية بالكنيسة القبطية: " أن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مصر، أمر لاشك فيه، ولا اعتراض عليه من جانب الأقباط، فالشرائع السماوية نور وهداية للبشر." (٢٠)

إذ أن الثابت تاريخياً أن الخلفاء المسلمين كما اهتموا بحقوق الأقليات اهتموا- أيضاً - بالحفاظ على مقدساتهم وكنائسهم ومعابدهم، فكان " محمد بن الإخشيد " يبني بنفسه الكنائس، ويقوم بترميم المعابد والأديرة المنهارة كما بنى الخلفاء المسلمون - أيضاً - كنيسة " أبي سرجة " بمنطقة مصر القديمة بالقاهرة، وتولى الخليفة الفاطمي " العزيز بالله" استكمال كنيسة " أبي سفين "، وقد أفاض " المقريزى " في (الخطط) و" المسعودي " في (مروج الذهب) في الحديث عن مدى اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكنائس وبنائها وترميمها، مما يؤكد حقيقة أن الإسلام اليوم لا يمنع من قبول الآخر معه على أرض واحدة، كما كان في الماضي. [٢١]

وفي العهد الأموي، وفي فترة حكم " هشام بن عبد الملك " كان للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع، تتقدمها الصلبان ورجال الدين كما دخل البطريرك " ميخائيل " مدينة الإسكندرية في احتفال كبير، وبين يديه الإنجيل والصلبان ينشدون " لقد أرسل الرب إلينا الراعي المأمون الذي هو مرقص الجديد "، كما كان ثمة ميل معين لدى أهل الكتاب إلى التخصص الوظيفي وخاصة في مجالس الشئون المالية والإدارية، حيث كانت الوظائف المالية وقفاً موكلاً إلى المسيحيين واليهود فإذا كان الإسلام قد أعطى لغير المسلمين كل هذه الحقوق في الدولة الإسلامية، فإنه قد ألزمهم بدفع الجزية والتي كان أقصاها ثمانية دراهم على الأعيان، و(١٢) درهماً على العمال الصناع نظير إعفائهم من المشاركة في الحروب،بجانب تمتعهم بالمرافق والخدمات داخل الدولة الإسلامية. [٢٢]

ويبدو أن إشكالية أهل الذمة والجزية من الأمور التي تثار عند الحديث عن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية، مع أن غير المسلم - الذي من وجهة نظر بعض التيارات الدينية كافر - عند اللجوء للحماية يصبح في حماية وأمن على كل ما يملك حتى بدنه ، وهذا ما تفتقده الأقليات المسلمة في الخارج وخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. [٢٣]

• أهل الذمة في الديار الإسلامية:

بداية يمكن القول بأن عقد الذمة، عقد بموجبه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد، وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام، وقد درجت بعض الكتابات على إطلاق مسمى "أهل الذمة" على المواطنين من غير المسلمين وهو مصطلح يبتعد تماماً عن الذم أو التقليل من الشأن.

حيث أن عقد الذمة ليس قضية مطروحة في الوقت الحالي، بل اختفى هذا النظام منذ زمن بعيد، وقامت الدولة على أساس المواطنة وانتهت صيغة التعامل مع رعايا هذه المجتمعات غير المسلمة على أساس عقود الأمان والضمان والحماية وقد أجمع الفقهاء على أن هذا النظام " عقد الذمة " كان يكفل لغير المسلمين حماية النفس والمال والعرض، حتى أن الفقهاء والخطباء كانوا ينصبون أنفسهم للدفاع عن هذه الحقوق ودائماً ما كانوا يصطدمون بالحكام والولاة حتى يحصل غير المسلمين على كافة حقوقهم كما أقرها الشرع والدين الإسلامي وقد طبق نظام " عقد الذمة " بداية على اليهود والنصارى باعتبارهم أهل ديانة سماوية ثم اتسع المفهوم ليشمل المجوس الذين يقدسون النيران ويعبدونها وكذلك أتباع "زرادشت" في فارس وخوارزم، وكذلك الصابئة وهم الذين اتجهوا إلى عبادة النجوم وقدموا لها الهدايا والقرابين، هذا بجانب عبدة الأصنام الذين ما زالوا موجودين إلى اليوم في شمال الهند وبعض قبائل إفريقيا.[٢٤]

واعتبر الإسلام أهل الذمة من رعايا الدولة الإسلامية كما أسقط تعبير أهل الذمة من البناء القانوني منذ صدور أول دستور عثماني في عام (١٨٧٦) مقرراً مبدأ المساواة بين رعايا الدولة بالتالي لم يكن المقصود بعقد الذمة تحصيل الأموال من غير المسلمين.

• الجزية في المجتمع الإسلامي:

يعتبر البعض أن نظام الجزية من العادات والتقاليد الفارسية القديمة، فالإسلام لم يأت بها، ولم يبتدعها، ولم تكن من أصول العقيدة، بل إنه عندما استخدمها كنظام أسقطها عن غير القادرين وأصحاب الحالات الحرجة .

والواضح أن العرب أخذوها من الفرس لفظاً ومعنا ، فعربوا لفظها حتى صار جزية من (gezit) ، كما عدلوا من كيفية جمعها أيضاً ، وحصر الإسلام الجزية في الرجال الأصحاء والعقلاء وأعفى منها النساء ؛ فلا تفرض على الراهب أو الشيخ وكذلك الصبى أو المجنون الذي لا يعقل [٢٥] وتتمثل مشروعية نظام الجزية في إعفاء غير المسلمين من الجهاد في سبيل الله، أو لتمتعهم بالمرافق العامة، لتصبح بهذا المفهوم مرادفة لنظام الزكاة في الإسلام.

وبالتالي فإن نظام الجزية في الإسلام لم يكن إذلالاً لغير المسلمين، بل إن بيت مال المسلمين كان للمسلم المحتاج وغير المسلم، ولا تمثل – مطلقاً – نوعاً من الاضطهاد الديني، فالإسلام بلغ في معاملة غير المسلمين أقصى درجات التسامح الديني والإنساني على مر العصور، وتسقط الجزية بدخول الذمي في الإسلام.

أما الواقع المعاصر فيشير إلى أن الأقلية غير المسلمة في المجتمع الإسلامي أصبحت تتدخل اليوم في أدق الأمور التي تخص المسلمين، عن طريق القومية العربية تارة ، والوحدة الوطنية تارة أحرى، والإرهاب والتطرف تارة ثالثة حتى اعتقد الكثيرون أن هؤلاء ما اعتنقوا هذه المبادئ والأفكار إلا لضرب الإسلام من الداخل [٢٦] ؛ فالجزية لم تفرض إلا على أهل الذمة على الرغم من أن الكثير من المستشرقين ظنوا أنها ضريبة دينية ، مع أنها لا علاقة لها بالدين ، وإنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا من الذين لا يصلحون للتجنيد من أهل الذمة ، وكان مقدارها دينار واحد في السنة. [٢٧]

هذا في الوقت الذي تباد فيه (الأغلبيات والأقليات) الإسلامية على حد سواء، فإذا كانت هذه هي حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، فأين حقوق المسلمين في المجتمعات الغير إسلامية إذن ؟؟

وهذا ما سنحاول الإجابة عليه عبر تناولنا للوضع السياسي والاجتماعي للأقليات الإسلامية في بلدان العالم.

ثانياً: قضايا ومشكلات الأقليات

في ظل الخلافة العثمانية :

تتميز البيئة العربية والإسلامية بأنها بيئة متغيرة، ولا يستقر لها حال على مدار تاريخها الطويل، فتارة تتسع، وأخرى تنحصر تبعاً للمرحلة التاريخية التي تمر بها. فبعد نهاية عصر الخلفاء الراشدين جاءت الدولة الأموية والعباسية والفاطمية ثم المماليك، فالحكم العثماني[٢٨] والذي عاش أكثر من ستة قرون، واجتاحت جيوشه أقاليم شاسعة في جنوب شرق أوربا ووسطها، وأقاليم لم تكن قد خضعت من ذي قبل لحاكم مسلم، حيث أحرزت باسم الإسلام انتصارات عديدة وتساقطت في أيديها دول أوربية كثيرة.

وكانت نتيجة هذه الفتوحات أن امتدت شريعة الإسلام في ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوربا، وهى القارات التي كانت تكون العالم القديم، وأصبحت الدولة العثمانية تحكم شعوباً مختلفة الجنسيات والديانات واللغات والثقافات [٢٩] فضربت الإمبراطورية العثمانية أبرز الأمثلة على حسن معاملتها مع غير المسلمين (الأقليات – والقوميات)، وقد يعود ذلك لنشأتها الإسلامية، حيث تنسب الدولة العثمانية لمؤسسها " عثمان " الذي خلف أباه" أورتوغرول " في رئاسة إحدى العشائر الدرحيه عام (١٢٨٥م) وسمي أتباعه بالمجاهدين، وعزم على إعداد جيش إسلامي قوى، وقام بتدريبهم بكفاءة عالية، وذلك نظراً للمهمة الصعبة التي يقوم بها هذا الجيش في الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية في بلدان لم يدخلها الإسلام منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين. [٣٠]

<u>ويمكن أن نرصد عملية صعود وهبوط الدولة العثمانية الإسلامية وكيف كانت تتعامل مع الأقليات غير المسلمة في المراحل التالية:</u>

أولا: مرحلة القوة في الخلافة العثمانية.

تمتد هذا الفترة من بداية القرن الـ (١٤) الميلادي إلى عام (١٥٦٦هـ) حيث كانت تعد هذه الفترة من المراحل الحرجة في تاريخ الفكر الأوربي، وسيطرت الكنيسة على الأمور السياسية داخل الدول، واستطاعت الدولة العثمانية أن تبرهن على قوتها وعلى هدفها عند فتحها لـ (القسطنطينية) عام (١٤٥٣م) وتحويل أكبر كنائسها إلى مساجد، بل تم اتخاذه- أيضاً - عاصمة للدولة العثمانية، نظراً لمكانتها التاريخية السابقة، كما سبق لمؤسس الدولة " عثمان " أن استولى على بورصة بالأناضول جنوب شرق مضيق الدردنيل، ومنها انطلق ليخلص كل آسيا الصغرى من الاحتلال البيزنطي - المستبد - حيث لم تكن تستهدف الفتوحات العثمانية إنكار أي قومية مهما صغرت [٣١] والتقليل من شأن أي دين أو عقيدة.

واعتبرت أشد فترات الدولة العثمانية قوة ونفوذاً، تلك الفترة التي تولى فيها السلطان "سليمان القانوني " إدارة شئون الإمبراطورية، وسيطرة العثمانيين على المضايق والبحار التي تمثل بالنسبة لهم المواقع الإستراتيجية التي ينطلقون منها لنشر الإسلام في أوربا كلها، مثل مضيقي البسفور والدردنيل والبحر الأحمر وشرق البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر قزوين والخليج الفارسي وبحر العرب، وقد أحدث الثالوث الإسلامي آنذاك (العثمانيون، الصفويون، المغوليون) في النصف الأول من القرن الـ (١٦) فزعاً وقلقاً لكافة الإمبراطوريات العالمية في ذلك الوقت حيث امتدت دار الإسلام من المغرب (مراكش) حتى سفوح الهمالايا ومن إثيوبيا وخليج البنغال حتى وسط أسيا والنمسا وبلجراد، التي تم فتحها على يد العثمانيين عام (١٥١٢م) ليصبح الطريق ممهداً إلى وسط أوربا، [٣٢] كما استطاعت الإمبراطورية العثمانية عزل أوربا الشرقية عن أوربا الغربية، وتم محاصرة فيينا عام (١٥٢٩م) وعندها توقفت الفتوحات الإسلامية في أوربا وتم الاكتفاء بتأمين أملاك الإمبراطورية، بما فيها الجزر مثل مالطة وقبرص ورودس...).

وتجمع الدراسات التاريخية على أن توقف الفتوحات العثمانية داخل أوربا لم يكن نتيجة قوة الغرب، إذ أن وقتها لم يكن للغرب أية قوة أمام جحافل الجيوش والأساطيل العثمانية، وإنما هذا التراجع كان بسبب الصراع الذي دب بين الدولتين الإسلاميتين (العثمانية السنية – والصفوية الشيعية) ، بجانب السماح لبعض الدول الأوربية بالتدخل في الشئون الداخلية بالولايات العثمانية، حيث تحالفت فرنسا مع العثمانيين، والنمسا مع الصفويين، هذا في الوقت الذي أصدر فيه البابا " بيوس الخامس " بيانه الشهير الذي طالب فيه الدول الأوربية بالوقوف صفاً واحداً أمام النمو الإسلامي العثماني إذ أن هذا التقدم السريع ناحية المدن الأوربية يهدد الديانة المسيحية بالتلاشي والانقراض [٣٣] وكان لهذا البيان أثره الواضح في النفوس، وإثارة العامل الديني لدى قادة أوربا للزود عن دينهم.

ومع أن الدولة العثمانية لم تقدم إساءة في تاريخها لرجال الدين المسيحيين في أوربا، ولم تضطهد جماعة دينية بسبب اختلافها معها في العقيدة، إلا أنها دائما ما تكون متهمة من قبل أوربا بأنها كانت وراء توقف نفوذها في منطقة الشرق الأوسط لفترات زمنية طويلة, فالصرب وهم يقومون بابادة المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفا والجبل الأسود كانوا دائما ما يقولون بأنهم يأخذون بالثأر من المسلمين العثمانيين، فقديما طبقت الإمبراطورية العثمانية نظام المِلل الذي يحفظ لكل جماعة دينية خصوصيتها، حيث يقوم على تصنيف رعايا الدولة - غير المسلمين - تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس، أو اللغة، أو القومية، بل يقوم على أساس المذهب الديني، وكان لكل مِلة رئيس ديني يقوم بالنظر في كل ما يخص رعايا المِلة التي يرأسها.

كما كان يطلق على كل مذهب ديني ملة، فالأرمن ملة، والأرثوذكس - أيضاً - ملة، والكاثوليك ملة واليهود ملة [٣٤] فالدولة العثمانية بسنها هذا النظام (نظام الملل) تكون قد نجحت بكفاءة في أن تدير شئون الأقليات والدول التي كانت تحت سيادتها بالتسامح الديني الذي أوصى به القرآن والسنة، وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الإسلام هو الدين الذي سمح قديماً – وما يزال– يسمح بوجود ديانات وعقائد أخرى

بجانبه، بعكس ماهو سائد فى العالم المعاصر في أوربا التي تدين بالمسيحية والتي ترفض وجود الإسلام كدين آخر بجوارها، وما يحدث في منطقة البلقان وشمال القفقاس وشبه القارة الهندية والفلبين وإثيوبيا وغيرها أكبر برهان على ذلك.

والمتابع لحال المسلمين الآن في أوربا (أقليات – وقوميات) يجد البون متسعاً بين الصورة التي كان العثمانيون يعاملون غير المسلمين بها عندما سادوا العالم، والصورة المظلمة التي تعامل بها أوربا الرعايا المسلمين، حتى السكان الأصليين للدولة والذين أعلنوا إسلامهم، من اضطهاد وحرب وإبادة لم يشهدها التاريخ من ذي قبل.

ثانيا: طـور التردد في الخلافة العثمانية:

وهي الحقبة الواقعة بين طور القوة والضعف والانهيار من عام (١٥٦٦م) وحتى وفاة السلطان سليم الثالث (١٨٠٧م) وانتهى هذا العصر بعدم تمكن العثمانيين من فتح فيينا، حيث تشير أصابع الاتهام في ذلك إلى " إبراهيم باشا " قائد الجيش الهمايوني (السلطاني) الذي ترك المعركة بعد (٥٩ يوما) من الحصار وهرب، فتراجع الجيش بعد أن اختفى قائده.

ويذكر بعض المؤرخين أن "كنائس فيينا" وبأمر من البابا أخذت تدق أجراسها أياماً عديدة بدون توقف، وتجاوبت معها الكنائس المجاورة لها، بل امتدت لتشمل أوربا كلها فرحاً بخروج العثمانيين من أوربا، ولعل المقصود كان (الإسلام) وليس العثمانيون كأشخاص، إلا أن الإسلام ظل في أوربا بالعدد القليل الذي اعتنق الإسلام ثم أصبح يتزايد نموه يوماً بعد يوم، وأصبح معتنقوه بالملايين في دول عديدة مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا وأغلبية في ألبانيا ومنطقة البلقان.

ثالثا: مرحلة الضعف والانهيار في الخلافة العثمانية:

يبدأ هذا الطور من عام (١٨٠٧م) وحتى (١٩١٨م) حيث قامت الدول الأوربية المستعمرة بتوزيع ميراث الرجل المريض (الدولة العثمانية) واقتسام أراضيه فيما بينها، وأدركت كل من (بريطانيا – وفرنسا – وروسيا) أهمية منطقة البلقان ومنطقة الشام ومنطقة ما بين النهرين في العراق لأسباب جيواستراتيجية ودينية، وعرقية. (٣٥)

كما كان من الأسباب الحقيقية التي عجلت بانهيار الدولة العثمانية، الاختراق الغربي لأراضيها ثم تسييس الانتماءات الدينية، بجانب أن الدولة العثمانية لم تعرف من نظام التعددية إلا البعد الديني الذي سيطر عليها قروناً طويلة، فتدخلت فرنسا تحت زعم حماية مصالح الكاثوليك الأوربيين والموارنة في لبنان وسوريا، كما تدخلت روسيا هي الأخرى بحجة حماية الأقليات الأرثوذكس الذين كانوا يمثلون أغلبية في روسيا، وطالبت النمسا بحقها في حماية الروم الكاثوليك، أما بريطانيا فقد أعلنت هي الأخرى حمايتها لكل الطوائف المسيحية من كاثوليك، وأرثوذكس وموارنة، وبروتستانت وروميون، كما أدى توسع الدولة العثمانية من تطبيق نظام (المِلل) دون أن تكون هناك ضوابط محكمة، أن أصبح لكل جماعة دينية أو مذهبية قدر من الحكم الذاتي؛ فقد عهدت لقيادة الجيش وفروعه والمناصب السياسية الكبرى للأتراك والأعمال الوظيفية والإدارية والمالية تم تركها للمِلل الأخرى وخاصة (اليهود – والمسيحيين) حتى أن ناظر مالية محمد على باشا كان مسيحياً.(٣٦)

وبهذه المداخل فتحت الدولة العثمانية ثغرات للدول الاستعمارية الكبرى لأن تتدخل في الشئون الداخلية لأقطار الإمبراطورية العثمانية عن طريق الأقليات، والتي تدعي الدول الاستعمارية حمايتها، وترعى شئونها، وأعطت الدولة العثمانية من الحقوق لغير المسلمين (أقليات – وقوميات) ما تفتقده الأقليات الإسلامية الآن في أوربا وفى مناطق كثيرة من العالم، حيث تباح أعراض النساء المسلمات بفتاوى كنائسية، وتمارس أبشع أنواع التعذيب النفسي والبدني بدءاً من الاغتصاب

الجماعي، ومروراً ببقر بطون الأمهات والحوامل، وإجبار النساء المسلمات على السير عرايا أمام الجنود الصرب الأرثوذكس في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، في الوقت الذي تقطع فيه أثدائهن، والتمادي في قتل الأطفال الرضع وإرسال الكثير منهم أحياء إلى الفاتيكان لتنصيرهم. (٣٧)

وأمام هذه الصور البشعة من حياة الأقلية المسلمة في البلقان، وقف المجتمع الدولي - بما فيه المجتمع الإسلامي نفسه - عاجزاً عن اتخاذ أية قرارات لإنقاذ هؤلاء المسلمون من هول ما يقوم به الصرب ضد المسلمين العزل بالبلقان. وليست البوسنة والهرسك أو كوسوفا النموذجين الوحيدين على بشاعة ما يقوم به أعداء الإسلام ضد المسلمين، فالأمثلة عديدة في كل من الهند، وكشمير، وبورما، والفلبين وسرى لانكا، وإثيوبيا، وتايلاند، وأذربيجان، والشيشان، وداغستان وأماكن وبقع كثيرة يتعرض فيها الإسلام لخطر الإبادة، والتصفية الجماعية، مع جهل الدول الإسلامية بما تتعرض له هذه الأقليات من تمزق واضطهاد دينى واضح.

ولو سئل رجل الشارع في الجزائر أو المغرب، أو حتى في مصر أو لبنان عن قضايا ومشكلات الأقليات المسلمة في العالم، لما استطاع الرد والإجابة، وإن تمكن من الإجابة لكانت مشوهة أو غير صحيحة، هذا من جانب رجل الشارع الإسلامي العادي (٣٨)، أما على مستوى المفكرين والمثقفين فيؤكدون أن ما يحدث للأقليات المسلمة من جانب الأغلبية غير المسلمة في البلقان أو القفقاس قضايا داخلية وخلاف عرقي ولا علاقة له بالعقيدة، وإن أعلن المعتدى أنها حرب دينية وذلك من خلال تصريحاته وبياناته التي يصدرها في هذا الشأن.

وفي الاحتفال الكبير الذي أقامه (حزب التجديد الصربي " SPO " بزعامة (فوك دارشكوفيتش) في سبتمبر (١٩٩٠) بمنطقة السنجق وصربيا قال هذا الزعيم وسط حشد ضخم من الأرثوذكس: " إن المسلمين في البلقان أقرب ما يكونون إلى إيران من ذويهم وجيرانهم الصرب الذين يعتنقون المذهب الأرثوذكسي؛ لذلك يلزم إبادة وتطهير منطقة البلقان بالكامل من الإسلام والمسلمين ولتكن البداية من البوسنة

والهرسك"، لذلك وبمجرد أن أعلن على عزت استقلال دولة البوسنة اشتعلت الحرب دون إنذار.

وبالمثل أعلن الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسفيتش" أنها حرب تستهدف إبادة المسلمين من منطقة البلقان[٣٩]" فهم يشنون حربهم على مسلمي البلقان نظراً للعداوة القديمة التي كانت بين الدولة العثمانية (الإسلامية) والمملكة الصربية، (المسيحية)، مع أن العثمانيين في النظام الملى الذي انتهجوه، لم يقدموا من خلاله إساءة لغير المسلمين في صربيا، بل كانوا يعاملونهم كأهل ملل، لهم حياتهم وطقوسهم التعبدية الخاصة.

والإسلام عندما أراد أن يتوسع وينشر دعوته، انطلق إلى العالم وهو يحمل في داخله هويته التي تمثلت في الدين الإسلامي بما في ذلك شرائعه وقيمه واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والعقيدة، والثقافة الإسلامية التي تمثل المضمون الحضاري للإسلام.[٤٠]

كما استطاع الإسلام أن يوحد بين المسلمين قبائلا وشعوباً، وأزال كل الفوارق والعصبيات بين الأسر والقبائل قديماً، والدولة في العصر الحديث، على أساس أن المسلمين (قوميات – أقليات – أغلبيات) هم كيان واحد، تجمعهم هوية واحدة، لذلك عندما خاطبهم القرآن نادى عليهم بلفظ أمة، فقال تعالى: "إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون" فعلى الرغم من العقبات والصعوبات التي تواجه المسلمين في العالم اليوم، إلا أن الدين الإسلامي يعتبر هو الدين المؤهل لقيادة البشرية بعد إفلاس الحضارة الغربية بشقيها (الرأسمالي – والاشتراكي).

ومع أن الأقليات المسلمة مختلفة فيما بينهما حول بعض قضايا المجتمع الأمريكي إلا أن إحساسهم بالتوحد يتجلى – رغماً عن ذلك – في إيمانهم المشترك بعقيدتهم، وفى ممارستهم للشعائر الدينية الإسلامية بصورة جماعية، مع ما تعرضوا له من صعوبات عند هجرتهم إلى الولايات المتحدة والتي قد تمثلت في العقبات النفسية، والدينية، والثقافية المتعلقة بمصيرهم ومصير أبنائهم من بعدهم، إلا أنهم قد تمكنوا

من التغلب عليها، أما المسيحيون العرب قد اندمجوا بسهولة في هذا المجتمع لتشابه الطقوس العقائدية المسيحية التي يمارسها كل منهم .(٤١)

كما استطاع الإعلام الغربي بوسائله وتقنياته الحديثة أن يلعب دوراً مهماً في محاولة القضاء على هوية الأقليات الإسلامية في أوربا وأمريكا، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وأن هناك ثمة صورة قد بدأت تتشكل في الغرب حول الإسلام باعتباره التهديد المقبل، والخطر الأخضر وإمبراطورية اشر الجديدة بعد أن أنهى الغرب الحرب الباردة (٤٢) مع الشيوعية والاتحاد السوفيتي السابق، تجسدت هذه الصورة بشكل من الوضوح عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بالولايات المتحدة

وبالتالي أصبحت صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، صورة متحركة ومتغيرة، وترتبط بثلاثة أبعاد رئيسية هي (العرب – الهجرة – الإرهاب) واتسم الخطاب الإعلامي الغربي إزاء الإسلام والمسلمين بالخوف من عدو وهمي حل محل المنظومة الشيوعية، يحمل العنف والإرهاب بين جنباته، فالإسلام المقاتل، وانفجار الإسلام، والخطـ الإسلامي، والإرهاب الإسلامي، والمارد الإسلامي، والأصوليون الإسلاميون، وتنظيم القاعدة، وحركة طالبان، وصدام حسين، وحزب .. وحماس، والمقاتلين في الفلبين، كل هذه العبارات والتركيبات لم يتم تكوينها اعتباطاً أو بصورة عشوائية، بل لقد كانت عناوين مثيرة تناولتها الصحف الأوربية في أعقاب الانهيار السوفيتي والتفجيرات الأمريكية الأخيرة في واشنطن ونيويورك، واتجهت النية بعدها إلى محاصرة الظاهرة الإسلامية بالاضطهاد تارة، والتمييز العنصري تارة أخرى.

وكذلك محاولات القضاء على الهوية الإسلامية للأقليات تارة ثالثة، حتى أن الحروب الصليبية قديماً، كانت أول تجربة للاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها، لتحقيق مكاسب اقتصادية ودينية واسعة في الشرق، ولما كانت النتائج على غير المتوقع، اكتفت باستخدام بعض الإجراءات لاحتواء

النمو الإسلامي على أرضها مثل الامتصاص أو بالإخضاع المستمر أو بالطرد أو بالإبادة، هذا على مستوى مجتمع الأقليات الإسلامية في الخارج.

أما داخل المجتمعات الإسلامية ذاتها فحركات التبشير ما تزال مستمرة في نشاطها تحت غطاء لجان الإغاثة والبعثات التعليمية، فالثابت أن التعليم الأجنبي دخل مصر عن طريق الإرساليات التبشيرية، وحاول باباوات روما إخضاع الكنيسة القبطية وإجبارها على الاعتراف برئاستهم، وقاموا بإرسال رهبان الفرنسيسكان إلى مصر بعد الحملة الفرنسية، وهذا ما يحدث اليوم في معظم البلدان الإفريقية ذات الأغلبية المسلمة، كما كان أنصار الفرنسيسكان يسرقون الأطفال الصغار ويرسلونهم إلى روما (المقر البابوي) لتنصيرهم ولتلقى العلوم الكاثوليكية ليكونوا منصرين بعد تدريبهم وتأهيلهم، إلا أن الأقباط قاوموا هذه الحركة، واستولوا على كنائس الفرنسيسكان وطردوهم منها[٤٣] وهذا ما حدث في منطقة البلقان [illegible] لجان الإغاثة التابعة لمنظمات وهيئات تبشيرية بسرقة أطفال المسلمين في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، وإرسالهم إلى الفاتيكان، ومن هنا يتضح أن الحملات الصليبية ماتزال تمارس نفس الدور الذي كان منذ مئات السنين، ولكن بصورة جديدة وتتفق مع وطبيعة العصر والقرن الجديد.

ثالثا: قضايا ومشكلات الأقليات

في المواثيق والمعاهدات الدوليـة :

تتداول في مجال القانون الدولي قاعدة تؤكد أنه لا توجد دولة متجانسة تماماً، وذلك من منطلق معيار واحد فقط؛ ألا وهو أنه لا تكاد توجد دولة قومية خالية من أقليات دينية، أو عرقية، أو لغوية إذ أن الشعوب والدول تتقاطع عرضياً فيما يتعلق بالاعتبارات العنصرية، واللغوية بل والثقافية أيضاً.(٤٤)

وهذا التباين والاختلاف الظاهر أدى إلى حدوث مصادمات – في أحيان كثيـرة – بين الأقليات الموجودة داخل إطار الدولة القومية، أو بين الأقلية والأغلبيـة حـول الاعتراف أو عدم الاعتراف بوجود الأقلية أو منحها حقوقاً قد لا ترغب الأغلبية في منحها إياها، فيكون التدخل الدولي عن طريق المنظمات والهيئـات الدوليـة أمـراً ضرورياً لفض أو تسوية النزاع بين الطرفين، أو الأطراف المتصارعة.

والملاحظ أنه غالباً ما يتأخر النظر في مثل هذه الصراعات، من قبل المنظمة الدولية حتى الأنظمة السياسية قد لا تتمكن من إيجاد حلول عادلة لمشكلة الأقليات وخاصة الأقليات الإسلامية كأبرز مثال يعبر عنها.

والواضح أنه عندما تتدخل المنظمات الدولية (كالأمم المتحدة) في مسـألة تخـص الأقليات – وأحياناً على مستوى دول – تضع بنفسـها الكثيـر مـن الاعتبـارات والضمانات والمصالح الذاتية؛ فتدخل الأمم المتحدة السريع عند غزو صدام حسـين للكويت لا يقارن بقراراتها وتصريحاتها بشأن حرب البوسنة والهرسك أو الشيشان أو كشمير، أو حتى كوسوفا، بل عندما تدخلت عسكرياً تحت غطاء (قـوات حفـظ السلام) كانت معظم هذه القوات تقوم بتسليم المسلمين للقوات والجنود الصرب حتى يقتلوا أو يصلبوا، أو يعذبوا، وهذا ما ثبت بالوثائق وشـهود العيـان أن القـوات الروسية التي شاركت ضمن قوات حفظ السلام بالبوسنة والهرسك كانـت تطلـق الرصاص على الجموع المسلمة وتمد الجنود الصرب بالذخيرة والسلاح، وهذا مـا

كشف عنه الجنود الروس الذين شاركوا في حفظ السلام بالبوسنة. عند عودتهم إلى بلادهم مصابين بحالات نفسية حادة من هول ما قاموا به ضد الأقليات المسلمة في البوسنة، والتواطؤ الدولي الواضح لإبادة هذا الشعب تحديدا دون غيره.

كما أصبحت شعوب البلقان والتي تتمتع بأغلبية مسلمة مجموعات مشردة. ولاجئين في دول عديدة، كما عجزت مفوضية اللاجئين استيعاب هذا العدد الضخم من اللاجئين حيث يمثل المسلمون أغلبيتهم سواء اللاجئين المسلمين الفارين من الاضطهاد الديني والتمييز العنصري، ولاجئين فروا من بلادهم تفاديا لخطر المجاعة وخاصة في إفريقيا' حتى المنظمات التي سبقت ظهور بما يسمى بالمنظمة الدولية، أو الأمم المتحدة، لم تقدم شيئا لمجتمع الأقليات سواء المسلمة في البلدان غير المسلمة.

فالفكر الاشتراكي النمساوي استطاع أن يلعب دوراً قديماً في الترويج لفكرة حماية حقوق الأقليات، التي كانت في بقع كثيرة من الإمبراطورية النمساوية – المجرية، وفى عام (١٩٠٧) عقدت الأحزاب الاشتراكية في روسيا مؤتمرها السري والذي خرج بعدة توصيات تتعلق بالأقليات، وضرورة العمل على حماية حقوق الشعوب التي تكون أقليات ضمن أغلبية السكان ، ولكن على ما يبدو، أنها كانت قرارات داخلية تخص الشعوب الروسية، لاسيما وأن الحزب الشيوعي مارس ضغوطاً عنيفة ضد الأقليات والقوميات الإسلامية في أسيا الوسطي وبلاد القفقاس. (٤٥)

وأعقب ذلك النقاط الأربعة عشر التي أصدرها الرئيس الأمريكي الأسبق (ويلسون) والتي كان من أهم بنودها "حق تقرير مصير الشعوب" وما يستتبع ذلك من منح مزيد من الحقوق والحريات للأقليات التي تشترك مع الأغلبية في تكوين البنيان الاجتماعي للدولة(٤٦).فالمبادئ التي قال بها "ويلسون" لم يكن لهما التنظيم الدولي التي يرعاها، أو يحافظ على مسارها الطبيعي إذا انحرفت عن صوابها، كما أن الولايات المتحدة وقتها لم تكن مثل وضعها الحالي، ومن أهم التنظيمات الدولية التي نادت بالحفاظ على حقوق الأقليات:

أولاً: عصبة الأمم:

أنشئت عصبة الأمم في أعقاب الحرب، العالمية الأولى واستهدفت عند إقامتها حماية البشرية من ويلات الحروب، بجانب السعي إلى فض المنازعات بين الدول والأقليات بالطرق السلمية بعيداً عن إراقة الدماء والحروب والصراعات القومية والدينية.

وقد استطاعت عصبة الأمم أن توجد بعض الضمانات للأقليات أهمها (٤٧):

أن المعاهدات الدولية والوثائق القانونية والتي كانت تتضمن موادها المحافظة على حقوق الأقليات لا يجوز وفق قواعد عصبة الأمم تغييرها أو تعديلها إلا بموافقة مجلس العصبة على ذلك، كما أنه ليس من حق الأقليات أن تتقدم بشكاوى لمجلس العصبة من الدولة التي هي بداخلها وتختص محكمة العدل الدولية بتسوية المنازعات الناتجة عن أي خلاف يحدث نتيجة خلل في تطبيق بند، أو بعض البنود في الاتفاقيات المبرمة بين الدولة والأقلية.

ومع أن عصبة الأمم كانت تمثل تنظيم دولي حقيقي في القرن العشرين إلا أنه كان مليئاً بالعيوب، فهي لم تحقق أية نجاحات في عملية الاستقرار السياسي داخل المجتمعات المختلفة، كما أن أحكام الحماية القانونية تم تطبيقها أساساً على الدول المهزومة في الحرب (النمسا – المجر – تركيا – بلغاريا) ولم تستطع أن توجه لوماً واحداً للدول المنتصرة إذا ما خالفت هذه الدول قواعد العصبة، وكان من نتائج هذا الضعف أنه لم تنجح في منع نشوب الحرب العالمية الثانية واضطهاد الأقليات والتي شملت الأقليات اليهودية – أيضاً – بجانب معاناة المسلمين وقتها من التمييز الطائفي في بلدان آسيا وأوربا.(٤٨)

ويرجع أسباب إخفاق عصبة الأمم كتنظيم دولي في الربع الأول من القرن العشرين إلى عدة أسباب هي: (٤٩)

- أن النظام الذي كان من أهدافه منع التفرقة بين الأقلية والأغلبية وحماية الأقليات من ضياع هويتها، لم يكن عادلاً بعض الشئ، بل هو نفسه قام على عنصر التمييز بين الدول المنتصرة التي تطالب بتطبيق نظام حقوق الأقليات، والدول التي خرجت من الحرب مهزومة والتي فرض عليها وحدها تطبيق هذا القانون، كما أن هذا النظام فتح الباب على مصراعيه لأن تقوم بعض الدول الكبرى بالتدخل في الشئون الداخلية لدول أخرى تحت زعم حماية الأقليات، وهذا ما اتبعه " هتلر " عندما أراد أن يتدخل في شئون الدول الأوربية بحجة أن بها أقليات ألمانية تتعرض للاضطهاد، بالإضافة إلى ارتباط نظام حماية الأقليات بوجود عصبة الأمم، فالانهيار الذي أصابها انعكس بالضرورة على وضع النظام؛ فسقط هو الآخر، ومع أن عصبة الأمم قد تعرضت لانتقادات عديدة، إلا أن هذه الانتقادات لا ينفى عنها أنها كانت صورة من صور التنظيم الدولي، الذي استهدف حماية الأقليات في العالم.

ثانيا: الأمم المتحدة والأقليات:

أدى فشل عصبة الأمم في توفيق الأوضاع الدولية، ومنع الصراعات بين تكتل الحلفاء والمحور إلى ظهور المعاهدات الخاصة بالأقليات، والتي أبرمت عقب الحرب العالمية الأولى والتي وصفت الأقلية بأنهم "سكان الدولة الذين يختلفون عن الأغلبية في العنصر أو الدين أو اللغة".(٥٠)

وجاء ظهور منظمة الأمم المتحدة كرد فعل لفشل عصبة الأمم في منع الاضطهاد العنصري الذي تزامن مع سيطرة النازية على الدول الأوروبية، وكانت الخطوة الأولى على طريق التأسيس عام (١٩٤١) بصدور تصريح الأطلنطي والذي تضمنت مواده حق الشعوب في تقرير مصيرها دون أن يكون هناك تمييزاً في المجالات الاقتصادية، هذا فضلاً عن إقرار مبدأ السلام والمساواة وعدم التفرقة بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة.(٥١)

وقد بدأ مفهوم المساواة في الظهور على الساحة الدولية منذ عام (١٩٣٥) عندما أصدرت " محكمة العدل " الدولية الدائمة فتواها بشأن " المدارس الألبانية " الخاصة

بالأقليات والتي أوصت بأن يكون رعايا الأقليات متساوون، مثلهم في ذلك مثل باقي رعايا الدولة من حقوق وواجبات، وأيدت الأمم المتحدة مثل هذه المفاهيم وطالبت بضرورة الحفاظ على حقوق الأفراد المنتمين إلى أقليات – قومية أو دينية أو لغوية – وأشارت إلى ذلك المادة (١ و ٢ و٣) من الميثاق على أن تقوم كل الدول في إقليمها بحماية الأقليات التي تعيش معها على أرضها وحق هذه الأقليات في التمتع بثقافتهم الخاصة، بما في ذلك الحرية الدينية، وحرية استخدام لغتها دون قيود في ذلك.(٥٢)

كما نص البيان الختامي لمؤتمر (هلسنكي) حول الأمن والتعاون في أوروبا عام (١٩٧٥) على: " أن الدول المشاركة والتي توجد في أراضيها أقليات قومية يجب عليها أن تحترم حقوق الأفراد الذين ينتمون إلى تلك القوميات في المساواة أمام القانون وتعظيم الإمكانيات الكاملة في التمتع الفعال بحقوق الإنسان وبالحريات الأساسية, وأعقب مؤتمر هلسنكي الإعلان العالمي لحقوق الشعوب عام (١٩٧٦) والذي أشارت مادته الـ (١٩) إلى كفالة مزيد من الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأقليات، وأكدت المادة الـ (١٧) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية إلى: "أنه لا يجوز في الدول التي توجد بها أقليات عرقية أو دينية أو لغوية أن يحرم الأفراد المنتسبون إليها من حق التمتع بثقافتهم الخاصة أو المجاهرة بعقيدتهم، بما في ذلك شعائر الدين، أو استخدام لغتهم بالاشتراك مع الأعضاء الآخرين في جماعتهم. (٥٣)

كما يطرح ميثاق الأمم المتحدة في فقرته الثالثة المادة الأولى مسألة عدم التمييز بين الأفراد على أساس النوع أو الجنس أو الدين أو اللغة، واحترام الحريات السياسية للأفراد والجماعات، والتشجيع على ذلك بلا تمييز، ومن هذا العرض السابق لنصوص ومواد قرارات الأمم المتحدة بشأن عدم التمييز العنصري، أو حماية الأقليات والحفاظ على حقوقها المشروعة من السلب والضياع، تنوعت طرق الحماية التي تكفلها الأمم المتحدة والقانون الدولي لهذه الفئة من الناس ولعل أهمها:(٥٤)

١. كفالة الحق في الحياة والحق في الحريات لجميع الأفراد من الأقليات وكفالة حقوقهم العقائدية دون تفرقة بينهم على أساس لغة أو عرق أو دين.

٢. كفالة حق بعض أنواع الأقليات في الحصول على جنسية الدول التي يقيمون فيها منذ سنوات طويلة طالما أنهم يرغبون في ذلك.

٣. كفالة حقوق الأقليات من مواطني دولة معينة في التمتع بالحقوق السياسية والمدنية الممنوحة لباقي المواطنين بما في ذلك التعيين في الوظائف والعمل في المهن الحرة.

٤. كفالة حقوق الأقليات في استعمال لغتها الخاصة وإقامة المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية الخاصة بها.

٥. كفالة حقوق الأقليات في ممارسة كافة الأنشطة الاقتصادية دون قيود أو شروط.

٦. كفالة حقوق الأقليات في تعليم أولادهم التعليم الخاص بهم، بما في ذلك تدريس عقيدتهم بلغتهم الأصلية وهذا ما ترفضه بعض الدول الأوربية للأقليات المسلمة على أرضها، وكذلك ما تعاني منه معظم الأقليات الإسلامية في أوربا.

٧. كفالة حقوق الأقليات في الإعلام عن الأنشطة التي يقومون بها وعن عقيدتهم.

٨. كفالة حقوق الأقليات في المشاركة السياسية بجانب الأغلبية، وحقهم في الترشيح للمجالس البرلمانية، أو الإدلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع دون قيود.

٩. كفالة حقوق الأقليات في ارتداء الملابس التي تتفق وعقيدتهم الدينية.

١٠. كفالة حقوق الأقليات في الحفاظ على هويتها وتراثها الثقافي مثل غيرهم.

كما تناول الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عدة بنود تشتمل على المحافظة على حقوق الإنسان، أقليات، أو أكثريات من خلال ثلاثة عناصر مهمة هي:"حرية العقيدة، المساواة، إقرار الديمقراطية" حيث نصت المادة الـ (١٨) من الإعلان على

أن "لكل فرد الحق في حرية الفكر والتعبير، ويشتمل هذا الحق حريته في تبديل عقيدته بأخرى، دون أن تفرض عليه قيود من جانب الأغلبية.(٥٥)

والملاحظ أن إعلان حقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة والذي أكد على أنه سيعيد الأوضاع إلى ما هو أفضل مما عليه الحال الآن في العالم سبقه الدين الإسلامي بنصوص قرآنية محكمة منذ ألف وأربعمائة عام في قوله تعالى: "لا إكراه في الدين". وقوله أيضا: "أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".

ومصطلح حقوق الإنسان الذي يتم تداوله الآن في شأن اضطهاد الأقليات يتم تعريفه على أنه: "مجموعة الحقوق والمطالب الواجب الوفاء بها لكل البشر على قدم المساواة، دونما تمييز فيما بينهم".(٥٦)

هذا في الوقت الذي تشير فيه تقارير منظمة العفو الدولية إلى تزايد انتهاكات حقوق الإنسان وخاصة الأقليات الإسلامية فالأغلبية الهندوسية في الهند أبادت في عام ١٩٩٤ ما يقرب من (١٥٠) ألف مسلم ومسلمة وذلك بعد أحداث هدم المسجد " البابرى " على أيدي المتطرفين الهندوس.

ويبدو أن ترسانة القوانين والمواد والنصوص التي أقرتها المنظمات الدولية لم ترفع ظلماً عن الأقليات الإسلامية المضطهدة في معظم دول العالم، حتى التي تنادى بالديمقراطية والمساواة في كل حين وآن، وقد يعود الإخفاق الدولي في الاهتمام والمحافظة على حقوق الأقليات الإسلامية إلى عدم وجود إطار سياسي يسمح لجميع فئات المجتمع بالمشاركة السياسية في كل ما يخص الدولة، وكذلك إلى عدم وجود إطار اقتصادي عادل بين مختلف فئاته.(٥٧)

كما أن الأمم المتحدة كمنظمة دولية، ومنذ نشأتها وهى في صدام بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، فقد كتب عليها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق أن يظل ميدان صراع وصدام بين الولايات المتحدة وبين أعداء تم تسميتهم مرة بالأصوليين وأخرى بالصينيين، وأخيراً بالجمهوريات الإسلامية الروسية.

ويؤكد ذلك موقف الأمم المتحدة عند اشتعال حرب البوسنة بين الصرب والبوسنيين، حيث أدركت الأمم المتحدة أن التدخل السريع قد لا يجدي في منطقة تعرف منذ زمن بعيد بأنها بؤرة صراع وحروب، فأعلنت عند بداية الأزمة إدانتها لانتهاكات حقوق الإنسان، وطالبت الأطراف المتصارعة باللجوء إلى المفاوضات لحل أزمتهم، وربما جاء تحركها بعد ذلك في أعقاب المذبحة التي بثتها شبكة الـ(C. N. N) الإخبارية الأمريكية ، ومن مكتبها في سراييفو والتي راح ضحيتها مئات المسلمين ، حصدتهم المدفعية الصربية وهم في طابور لشراء الخبز ، كما تزامن هذا التدخل في أعقاب الانتصارات التي استطاع البوسنيين أن يحققوها على القوات الصربية على الرغم من الأسلحة التقليدية التي كانوا يحاربون بها. [٥٠١]

ثالثا: **المجموعة الأوربية وأزمة الأقليات:**

لم يختلف في واقع الأمر موقف المجموعة الأوربية عن موقف الأمم المتحدة بشأن القضايا المتعلقة بالإسلام والمسلمين، سواء أكانوا أقليات أم أغلبيات، فقد أدانت بشدة الاعتداء الصربي على مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفا، وطالبت بسرعة التدخل العسكري حتى لا تتحول البوسنة إلى أفغانستان جديدة، ولكن هذه المرة وسط أوربا موطن الكاثوليكية.

كما رفضت فرنسا وكذلك بريطانيا إمداد المسلمين في البوسنة والهرسك بأية نوع من الأسلحة، خوفاً من اشتعال الحرب في البوسنة على نحو أكثر مما هو موجود لذلك كان من الطبيعي ألا تتدخل الأمم المتحدة والمجموعة الأوربية إلا بعد ثلاثة سنوات من الصراع في البلقان للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان بالبوسنة والهرسك أو تأمين وصول المساعدات الغذائية للمسلمين المحاصرين في بيهاتش وموستار [٥٩] فمجلس الأمن على الرغم من أنه جهاز سياسي وقانوني إلا أنه سياسي أكثر منه قانوني، فأعماله كما هو واضح تقوم على أساس السلطة في المقام الأول ثم يأتي القانون في مرحلة متأخرة، وقد لا يكون مطروحاً في حل الأزمات والقضايا الدولية التي يعد أبرزها في العشر سنوات الأخيرة الصراعات الدينية

والعرقية في العالم، كما وضعت المجموعة الأوربية شروطاً مسبقة للاعتراف بدول البلقان التي ترغب في الاستقلال عن الاتحاد اليوغوسلافي ومن هذه الشروط:

- التزام هذه الدول -الراغبة في الاستقلال - بميثاق الأمم المتحدة وإعلان هلسنكي وباريس، وعدم جواز تغيير الحدود الخاصة بدول الجوار بالقوة وإنما بالطرق السليمة وبإشراف منظمة الأمم المتحدة.

وكانت المجموعة الأوربية قد اعترفت باستقلال دولتي كرواتيا وسلوفينيا، الأمر الذي جعل دولة البوسنة والهرسك تطالب هي الأخرى بحقها في الانفصال عن يوغوسلافيا، ففي(٦) أبريل (١٩٩٢)، اعترفت الدول الأوربية الـ (١٢) بما في ذلك كندا والولايات المتحدة الأمريكية بجمهورية البوسنة والهرسك كدولة مستقلة، وبعد أقل من خمسين يوماً من الاعتراف الدولي باستقلال جمهورية البوسنة والهرسك وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قبول عضويتها في المنظمة الدولية، كدولة مستقلة لها سيادتها الكاملة على أرضها [٦٠] ولكن كان هذا الاعتراف بمثابة الشرارة التي أشعلت الحرب في البلقان، وذلك عندما أصرت جمهورية صربيا على رفض الاستقلال البوسنوى، وعدم الاعتراف بقرارات الجمعية العامة في هذا الشأن، والحيلولة دون إقامة دولة إسلامية تتمركز في وسط أوربا وتتوسطها ويتزعمها زعيم معروف عنه انتمائه للأصولية الإسلامية يدعى " على عزت بيجوفيتش " وأن هذه الدولة من شأنها أن تكون إتحاداً ضخماً على غرار الإتحاد اليوغوسلافي السابق.

رابعاً: **منظمة المؤتمر الإسلامي والأقليات:**

مع أن الأمم المتحدة منظمة دولية، تضم في عضويتها معظم دول العالم تقريباً إلا أن قراراتها قد تتحكم فيها الدول التي تتمتع بحق (الفيتو) وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، ووضع المصالح الذاتية فوق مصلحة الشعوب والقوميات، مما أدى ذلك إلى ظهور منظمات على الجانب الأخر من الأمم المتحدة أبرز هذه المنظمات

(منظمة المؤتمر الإسلامي) التي وضعت ضمن أسباب وجودها تبني القضايا الإسلامية والدفاع عن حقوق المسلمين شعوباً وأقليات .[٦١]

وقد تم الإعلان عن منظمة المؤتمر الإسلامي فى مع مطلع عام (١٩٦٩) عندما شعر المسلمون بأنهم في حاجة إلى تنظيم دولي يرعى مصالحهم ويدافع عنهم، وقد اعتمدت المنظمة عند نشأتها عدداً من الأهداف التي من خلالها تضطلع المنظمة بدورها في المجتمع الدولي وهي: [٦٢]

١- **مشكلات الأقليات الإسلامية**: حيث أدت سرعة النمو الإسلامي في العالم إلى وجود تجمعات إسلامية عديدة في بلدان كثيرة من العالم، استطاعت هذه التجمعات أن تقيم لنفسها المعاهد والمدارس والجمعيات التي تقوم على خدمة أبناء الأقليات وهي في الوقت ذاته تتعرض لاضطهاد وتمييز عنصري من جانب الأغلبية التي تختلف معها في العقيدة أو في التمايز الثقافي.

٢- **تجاوز الحساسية الشكلية في جامعة الدول العربية**: تمثل الجامعة العربية تنظيم إقليمي ظهرت عليه علامات الضعف من بدايتها، كما أن مواثيق الجامعة العربية والمؤتمرات التي عقدتها سواء على مستوى القمة أم على مستوى وزراء الخارجية تبتعد عن مناقشة مثل هذه الموضوعان نظراً لحساسيتها، فالجامعة العربية لم تستطيع إلى الآن تناول مشكلات الأقليات التي تضمها الدول الأعضاء بداخلها. وبالتالي جاء موقفها من أزمة الأقليات الإسلامية في العالم أكثر سلبية.

٣- **حريق المسجد الأقصى**: كان حريق المسجد الأقصى أحد العوامل التي دفعت إلى قيام منظمة المؤتمر الإسلامي مقابل التجاهل الدولي إزاء هذا الحدث الضخم.

٤- **مشكلات التخلف الحضاري**: فقد تنازل العالم الإسلامي بما في ذلك الدول العربية منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية، وأصبح عالة على الغرب، متطفلاً على مائدته، مستهلكاً لكل ما ينتجه، لذلك استهدفت المنظمة النهوض بالأمة الإسلامية علمياً واجتماعياً وثقافياً [٦٣] كما تمثل منظمة المؤتمر الإسلامي إحدى

قنوات الاتصال التي عبرها ومن خلالها يمكن للمنظمات الدولية الأخرى في الغرب التعامل مع العالم الإسلامي، ومع أن انضمام الدول العربية والإسلامية لمنظمة واحدة كان معبراً عن شكل من أشكال التضامن إلا أن العالم الغربي سادته حالة من الذعر والخوف، من أن تتحول المنظمة بأعضائها إلى كيان " أصولي " يستهدف المصالح الغربية في العالم، أو أن ينتج عن انضمام هذه الدول في المنظمة الجديدة انسحابها من الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبالتالي عدم استفادتها من دول الخليج.

إن برنامج الخليج العربي على سبيل المثال يقوم بدفع (٢٠) مليون دولار سنوياً لصندوق الأمم المتحدة في الوقت الذي انصرفت فيه معظم دول الخليج عن تدعيم منظمة المؤتمر الإسلامي بما يُمكنَها من أن تُصبح منظمة ذات شأن عالمي متميز، أو المساهمة في إغاثة الأقليات المسلمة في العالم، والدليل على ذلك، أن منظمة المؤتمر الإسلامي لم تعقد اجتماعا لها إلا بعد أكثر من شهرين على حرب البوسنة والهرسك، ولم يكن المؤتمر على مستوى القمة أو الرؤساء، بل على مستوى وزراء الخارجية وقد حضر المؤتمر (١٥) وزير خارجية، و(٢٢) سفير و(٨) دول لم يحضروا المؤتمر [٦٤]، كما يلاحظ أن منظمة المؤتمر الإسلامي لم تتمكن من تحقيق شئ بالنسبة للأقليات الإسلامية المضطهدة في العالم للأسباب التالية:

١- انعدام الفاعلية السياسية للمنظمة تجاه المشكلات التي تخص الدول العربية الإسلامية.

٢- عدم الاهتمام بقرارات المنظمة لأنها غير ملزمة للأعضاء وبالتالي لا يعتد بقراراتها.

٣- تهميش دور المنظمة وإعلاءِ شأن المنظمات الصغيرة كالجامعة العربية والوحدة الإفريقية مع عدم تمثيل المنظمة داخل مجلس الأمن وتبعيتها للأمم المتحدة.

٤- الافتقاد إلى التمثيل القيادي في مؤتمرات المنظمة فمعظم الدول ترسل سفراءها أو وزراء خارجيتها، هذا فضلاً عن الانقسامات الداخلية

والحروب الأهلية التي تسود معظم دول المنظمة، واللجوء المستمر من دول المنظمة إلى الأمم المتحدة لحل مشكلاتها، وتجاهل منظمة المؤتمر الإسلامي في هذا الشأن، كمنظمة قامت في الأساس على حماية حقوق المسلمين أقليات وأغلبيات.

والناظر على خارطة العالم في العشر سنوات الأخيرة من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين يرى أن نظرية " صامويل هنتجتون " صدام الحضارات، تنطوي على جانب كبير من الصواب، فخطوط التماس بين الحضارة الإسلامية ونظيرتها الغربية واضحة تماماً في البوسنة والهرسك وكوسوفا والمانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية والشيشان، وبين الثقافتين الإسلامية والهندوسية في الهند وكشمير، وفى بريطانيا ذاتها ظهر مشروع كليم صديقي الرامي إلى تأسيس برلمان إسلامي داعياً الأقليات الإسلامية فى أوربا إلى الانفصال عن المجتمع الأكبر نظراً لعدم اتفاق القيم الإسلامية مع القيم والثقافة الأوربية في ظل نظام عالمي جديد يروج للعولمة، التي يبدو من مفهومها الظاهر أنها تستهدف تعميم القيم والسلوكيات الغربية وتوسيع دائرتها لتشمل العالم كله، الأمر الذي دفع الحكومة البريطانية إلى التضييق على التجمعات الإسلامية على أرضها وعدم السماح لها لأن تقوم بدور يستهدف إثارة الطوائف المسيحية في العالم.

إذن فالعولمة إفراز طبيعي للنظام العالمي الجديد، الذي يمثل الهيمنة والسيطرة على المجتمع الدولي سياسياً، وهذا لا يعد هدفاً في حد ذاته، وإنما هذا النفوذ السياسي الكبير يلزمه ما يدعمه مادياً وثقافياً وفنياً وتقنياً، وقد لا يتأتى للنظام العالمي الجديد ذلك كله إلا في ظل منظومة العولمة[٦٥] أما أثر العولمة على الوضع السياسي والاجتماعي للأقليات المسلمة في العالم فإنه يتمثل في التبعية الإعلامية للغرب حيث تمثل التطورات المستمرة في مجال المعلومات والاتصالات جوهر الثورة التقنية الحديثة كما أحدثت ما يشبه الاندماج في المعلومات والاتصال بجانب حاجة الإعلام العربي والإسلامي للأخبار والمعلومات حيث ترتبط التطورات التقنية بعلاقة وثيقة تأثيراً وتأثراً بالتحولات المستمرة على النطاق العالمي وبالسياق

الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمجتمع الغربي، بجانب انهيار اتحاد النمور الآسيوية التي انتهجت النظام المصرفي الإسلامي والتي كان من المنتظر أن يكون لها شأن كبير على الساحة العالمية لو كان قد تحقق لها النجاح.

هذا فضلا عن ظهور بعض التحالفات الاقتصادية بين الدول الإسلامية الروسية والتي انتهت هي الأخرى بالفشل نظرا للتدخل الغربي في المنطقة والسعي نحو إفشال أي مشروع يقوم على النهج الاسلامى باعتبار أن الإسلام معادى للحضارة الغربية وضد الولايات المتحدة الأمريكية وأن النصوص المقدسة التي تضمها ضفتي القرآن الكريم تحث المسلمين على أن تكون لهم حياتهم الخاصة من اقتصاد

وسياسة وفكر وثقافة وأدب وفن، الأمر الذي دفع النظام العالمي الجديد إلى إفشال أي طرح إسلامي، أو السماح للإسلام لأن يطرح رؤيته في بعض القضايا العامة أو حتى في المسائل الاقتصادية سواء جاء هذا الطرح عبر إحدى الدول الإسلامية أو التجمعات الإسلامية في بلاد الغرب أو ما يعرفون بالأقليات الإسلامية.

وقد اتسعت هذه الفجوة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر فزادت نسبه اضطهاد المسلمين في بلاد الغرب واستخدام العنف ضدهم، والقبض عليهم بتهم وبدون تهم، ووضعهم داخل السجون، والكشف عن مصادر أموالهم وثرواتهم والاستيلاء عليها مع أنها ممتلكات شخصية ولا يجوز السماح لأي جهة مجرد محاولة الكشف عن حجم هذه الأموال، وبالتالي أصبح كل شيء يرتكب ضد الأقليات المسلمة مباح ولا يحاسب علية القانون باعتبار أن المسلمين إرهابيين ويكرهون الغرب والمسيخيين بل أنهم معادون للسامية.

ساعد على تحقيق هذا كله حالة الضعف التي تمر بها الأنظمة العربية والإسلامية الآن، بجانب حالة ضعف مماثلة من جانب المسلمين أنفسهم أغلبيات وأقليات مسلمة ومن أبرز هذه الحالات التي أدت إلى التراجع الاسلامى في بلاد الغرب والتي لو تم التغلب عليها لأصبح للإسلام والأقليات الإسلامية الشأن الأكبر والمؤثر في أوربا وأمريكا وهى:

١. العصبيات العرقية والإقليمية الأمر الذي جعل المسلمين منقسمين فيما بينهم إلى قوميات تعتز كل منها بقوميتها، على حساب الانتماء للمجتمع الأكبر وهو الأمة الإسلامية، أو العمل على وحدة المسلمين أغلبيات وأقليات.

٢. اختلاف المذاهب والاتجاهات والأيديولوجيات المستوردة من ديمقراطيات وقوميات وغيرها، واستبعاد الإسلام من أي طرح بديل.

٣. اختلاف الولاءات ما بين بلد وآخر، فهذه الدولة ولاؤها لأمريكا، وأخرى ولاؤها لبريطانيا، وثالثة لباريس، أما رابطة الدين فنادراً ما تطرح في المسائل السياسية، وقد تلعب الدول الكبرى بورقة الدين عند الحاجة إليها.

٤. اختلاف المصالح الإقليمية والمحلية وتجزئة الأمة الإسلامية إلى فرق وتيارات مختلفة بجانب حرص كل دولة على التفرد بمكان خاص بها في علاقاتها مع الدول الكبرى.

٥. المكائد الصهيونية المتربصة للعالم الإسلامي من حركات ومنظمات هدامة مثل (الماسونية، والعلمانية والصهيونية) الهدف منها ألا يقوم للإسلام قائمة وإظهاره على أنه دين تخلف وعجز ولا يتفق وتطورات العصر الحديث.

وبالتالي يجب إضافة بعض التعديلات على العديد من نصوصه المقدسة لتتماشى مع مجريات الألفية الثالثة بداية من المقررات الدراسية على الطلاب في المدارس والجامعات والمعاهد المختلفة بما في ذلك الجامعات ذات الصبغة الإسلامية مثل جامعة الأزهر في مصر، والجامعة الإسلامية في باكستان، وجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وتحجيم الهيئات والمنظمات الإسلامية في دول الخليج والأفرع التابعة لها في العديد من دول العالم، ومصادرة كافة الأموال التابعة لها إذا ما ثبت أن هذه المنظمات على علاقة من قريب أو بعيد بتنظيم القاعدة الذي يتزعمه السعودي أسامة بن لادن، والمصري أيمن الظواهري، والباكستاني الملا عمر، بجانب القيام بمضاربة البنوك الإسلامية في العالم العربي والاسلامى حتى يظل المسلمون في حاجة مستمرة إلى الغرب في مختلف مجالات الحياة.

هوامش الفصل السابع

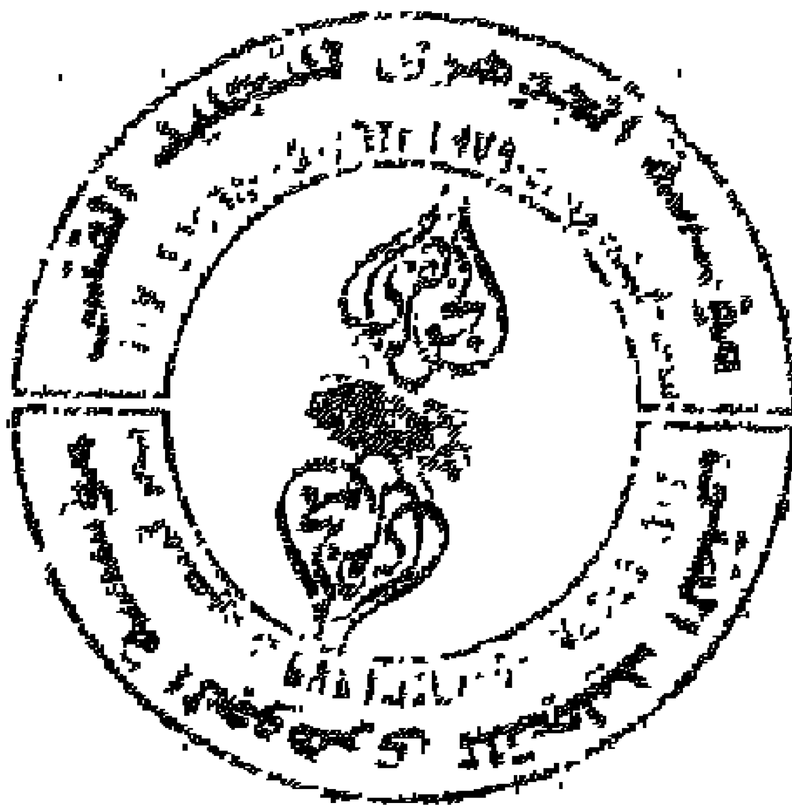
١	محمد حسنين هيكل	المقالات اليابانية(القاهرة : دار الشروق ،١٩٩٥) مرجع سابق . ص ٣٧
٢	مجدي الداغر	حوار مع وزير الأوقاف السعودي الدكتور :عبد الله التركي (جريدة الأمة عدد ١٩٩٩/١/٢٨) ص ١١
٣	عبد الله التركي	مسئولية الدول الإسلامية عن الدعوة (مركز البحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ١٩٩٩) ص ٣٢
٤	سميرة بحر	مدخل لدراسة الأقليات، مرجع سابق ص
٥	سعد الدين إبراهيم	الأبعاد الثقافية لحقوق الإنسان (القاهرة ، دار سعاد الصباح ١٩٩٨) ص٣٣٠
٦	يوسف القرضاوى	الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم (تقرير مركز الدراسات الحضارية لعام ١٩٩٣) ص ١٣ ، ١٤
٧	محمد المتوكل	الإسلام وحقوق الإنسان (بيروت :المستقبل العربي، عدد فبراير١٩٩٧) ص ٦
٨	حامد سليمان	من القبطية إلى الإسلام (القاهرة: المكتب العربي المعارف، ١٩٨٨) ص ٩٩
٩	احمد شوقي الفنجرى	كيف تحكم بالإسلام (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠) ص ١٢٦
١٠	طارق البشرى	المسلمون والأقباط (القاهرة : دار الشروق ١٩٩٥) ص ٤٣
١١	ميلاد حنا	حقوق الأقباط (القاهرة : دار سعاد الصباح للنشر، ١٩٩٨) ص ٣٨٣
١٢	محمد الغزالي	حقوق الإنسان في الإسلام(القاهرة : دار الدعوة ١٩٩) ص ٢٥١
١٣	محمود زقزوق	الإسلام وقضايا العصر، مرجع سابق ص ٨٣
١٤	نيفين مسعد	الأقليات والاستقرار السياسي، مرجع سابق، ص ٣٦
١٥	محمود زقزوق	الإسلام وقضايا العصر، مرجع سابق ص ٧٥: ٧٨
١٦	خليل المسلاتى	أمريكا كما رأيتها، مرجع سابق ص٤٩
١٧	يوسف القرضاوى	غير المسلمين في المجتمع الاسلامى (القاهرة، مكتبة وهبة ١٩٩٨) ص ١٥
١٨	محمد الغزالي	الدين والحياة (القاهرة، دارالدعوة ١٩٩٢) ص ٣٩
١٩	يوسف القرضاوى	غير المسلمين في المجتمع الاسلامى، مرجع سابق ص ٩: ١٥
٢٠	مجدي الداغر	مقابلة مع نيافة الأنبا غويغوريوس بالكنيسة في ١٩٩٦/٢/١٦
٢١	جمال البنا	الحساسية الدينية (الزهراء للأعلام العربي ١٩٨٧) ص ٥١

٢٢	سميرة بحر	مدخل لدراسة الأقليات، مرجع سابق ، ص ١٠٤
٢٣	مهدى شمس الدين	في الاجتماع السياسي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات ١٩٩٢) ص ١٤٦
٢٤	عوني فرسخ	حول المسيحيين العرب (بيروت، المستقبل العربي، عدد (٢٢٥) ١٩٩٩/١١) ص ٤٠
٢٥	عوني فرسخ	حول المسيحيين العرب (بيروت: المستقبل العربي، عدد (٢٢٥) ١٩٩٩/١١) ص ٤٢
٢٦	محمد على الجوزو	الحوار القومي الديني (المستقبل العربي، عدد ١٤١، ١٩٩٠) ص ١٢٦
٢٧	شوقي ضيف	عالمية الإسلام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٦) ص ٢٩
٢٨	عبد العزيز الدخيل	عرب الخليج (المستقبل العربي عدد ٢٣٤، ١٩٩٨/٨) ، ص ٥٥
٢٩	عبد العزيز الشناوي	الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (الأنجلو المصرية ١٩٨٠) ص ٦
٣٠	فوزي طايل	مذابح البوسنة والهرسك، مرجع سابق ص ٣٠، ٣١
٣١	ــــــــــ	مذابـح البـوسنة والهرسك ، المرجـع السابق ص ٣٠، ٣١
٣٢	يلمازا وزتونا	تاريخ الدولة العثمانية (تركيا ، مؤسسة فيصل ، ١٩٨٨) ص ١٣
٣٣	فوزي طايل	مذابح البوسنة و الهرسك،مرجع سابق ص ٣٣، ٣٤
٣٤	عبد العزيز الشناوي	الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق ، ص ٦٨
٣٥	فوزي طايل	مذابح البوسنة الهرسك، مرجع سابق ص ٣٥، ٣٦
٣٦	طارق البشرى	المسلمون و الأقباط، مرجع سابق ص ٣٠، ٣١
٣٧	ممدوح الشيخ	المسلمون ومؤامرات الابادة، مرجع سابق ص ٥٣
٣٨	صابر طعيمة	محنة الأقليات الإسلامية والواجب نحوها، مرجع سابق ،ص ٦٤
٣٩	مجدي نصيف	حرب البوسنة والهرسك، مرجع سابق ص ٩٠
٤٠	حسنى محمود	الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا (دار النهضة العربية ١٩٩٣) ص ١٠
٤١	جمال قاسم	العرب في أمريكا، مرجع سابق ص ٢٣٣
٤٢	محمد سعدي	الجنوب في التفكير الاستراتيجي الامريكى، مرجع سابق ، ص ٦٨
٤٣	محمد جلال كشك	الآفى الفتنـــة سقطوا(مكتبة التراث الاســلامى، ١٩٩٢) ص ٧٩

٤٤	عبد العزيز صقر	الدين والدولــة في الواقــع الغربي،مرجع سابق ، ص ٣٣
٤٥	نديم البيطار	الأيديولوجية الإسلامية (المؤسسة الأهلية للطباعة، ١٩٩٢) ص ١٨٨
٤٦	سميرة بحر	مدخل لدراسة الأقليات، مرجع سابق ، ص ٨٢
٤٧	رأفت الشيخ	العلاقات الدولية، (الزقازيق: مطابع الجامعــــة، ١٩٩٢) ص ١٨٨
٤٨	سميرة بحر	مدخل لدراسة الأقليات. مرجع سابق ، ص ٨٥
٤٩	محمد حسن الابيارى	المنظمات الدولية (الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٨) ص ٢٠
٥٠	رأفت الشيخ	العلاقات الدولية، مرجع سابق ، ص ١٨٨
٥١	سميرة بحر	مدخل لدراسة الأقليات. مرجع سابق ، ص ٨٨
٥٢	سعد الدين إبراهيم	الملل والنحل والأعراق. مرجع سابق ص ٢٨، ٢٩
٥٣	ــــــــــــ	وثيقة حقوق الإنسان (مطبوعات الأمم المتحدة، ١٩٨٤) ص ٨
٥٤	عبد الله عامر	الأقليات، مرجع سابق ص ٢١، ٢٢
٥٥	ــــــــــــ	وثيقة حقوق الإنسان، مرجع سابق ، ص ٣٦
٥٦	محمد المتوكل	حقوق الإنسان في الإسلام، مرجع سابق ، ص ٥
٥٧	عبد الله عامر	الأقليات، مرجع سابق ص ٢١، ٢٢
٥٨	ممدوح الشيخ	المسلمون ومؤامرات الابادة ، مرجع سابق ص ٥١
٥٩	ــــــــــــ	مذابح البوسنة و الهرسك (لندن، مجلة الشاهد، يناير ١٩٩٦) ص ٣١
٦٠	جمال الدين سيد	البوسنة و الهرسك، (دار سعاد الصباح، ١٩٩٧) ص ٢٢
٦١	محمد حسن الابيارى	المنظمات الدولية، مرجع سابق ، ص ٢٢١
٦٢	رأفت الشيخ	العلاقات الدولية ، مرجع سابق ، ص ٥
٦٣	أبو الحسن الندوى	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (المنصورة، دار الإيمان ١٩٩٤) ص ٢٣٧
٦٤	ــــــــــــ	مؤتمر وزراء الخارجية العرب (الشعب ٢٠ يونيو ١٩٩٢) ص ١
٦٥	عبد الإلة بلقزيز	العولمة والهوية الثقافية (المستقبل العربى ، عدد٢٢٩، ١٩٩٧) ص٩٩

فهرست الكتاب

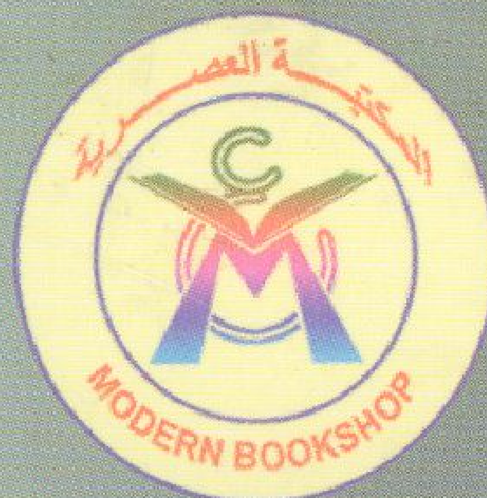






المؤلف فى سطور

- مدرس تكنولوجيا الإعلام والصحافة - قسم الإعلام والصحافة كلية الآداب - جامعة المنصورة - جمهورية مصر العربية
- حاصل على جائزة وزارة الأوقاف فى البحوث الإسلامية عام ١٩٩٢
- حاصل على جائزة الدراسات الإسلامية بمؤسسة إقرأ الخيرية ١٩٩٥
- حاصل على جائزة أحمد بهاء الدين الصحفية كأفضل باحث عربى عام ٢٠٠٢
- حاصل على درجة الماجستير فى الإعلام السياسى والدينى ٢٠٠١
- حاصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى فى تكنولوجيا الصحافة مايو ٢٠٠٥
- المستشار الإعلامى والمدير الإقليمى لقناة المدينة الفضائية ٢٠٠٦
- أمين عام الإعلام بالحزب الوطنى الديمقراطى بالدقهلية إبريل ٢٠٠٧
- مسئول تدريب المذيعين بعدد من القنوات الفضائية فبراير ٢٠٠٧
- مؤسس ورئيس تحرير جريدة الصحافة الجديدة الإلكترونية ٢٠٠٧
- رئيس تحرير جريدة قسم الصحافة الإلكترونية بجامعة المنصورة ٢٠٠٨
- المستشار الإعلامى لمحافظة الدقهلية ، ومدير المركز الإعلام



MODERN BOOKSHOP

FEKRA DESIGN
0124009076